

الحرب الصليبية الثانية

حرب الغرب المستعرة مجددًا ضد الإسلام

تأليف

جـون فيفر

ترجمة

محمد هيثم نشواتي

الحرب الصليبية الثانية

حرب الغرب المستعرة مجددًا ضد الإسلام

يحاول الكتاب الحالي فهم مصادر المشاعر المعادية للإسلام، ويكشف أن ثلاث حروب من الألفية الماضية - الحروب الصليبية، والحرب الباردة، والحرب على الإرهاب - مازالت مستعرة، وما زالت تهيمن على طريقة تفكير الغرب.

نعم. دارت عجلة التاريخ. انبعث الإسلام من جديد، ومن جديد أضحى مستهدفًا. اليوم، يتراءى للغرب أنه منخرط في حرب لا هوادة فيها - حرب الخير ضد الشر: حرب الدفاع عن مصير الحضارة الغربية ضد الاجتياح الإسلامي ديموغرافيًا وثقافيًا من الداخل، وضد إقامة الخلافة الإسلامية بالقوة من الخارج؛ حرب يرى أنها، في نهاية المطاف، تحدد ماهية وجوهر الحضارة الغربية في حقبة "ما بعد-بعد-الحرب الباردة."

أهلا بكم إلى القرن الحادي والعشرين؟

أهلا بكم، بالأحرى، إلى القرن الحادي عشر، يقول الكتاب؛ فهذا تحديدًا النسق الفكري الغربي الذي أفرز الحروب الصليبية الأولى. وعلى الرغم من اختلافاتها عن الحرب الصليبية الثانية الدائرة حاليا، ثمة تشابهات وتقاطعات لا حصر لها، يأتي المؤلف على ذكرها وتفصيلها وتفكيكها واستشفاف أنها تُنبئ ببقاء العدوانية الغربية ردحًا أطول من الزمن، وإن لم تكن قدرًا محتومًا.

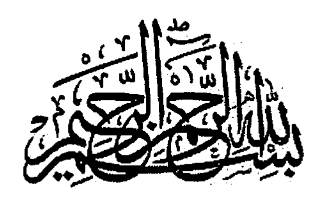
السعر: ١٠ دولارات




ISBN: 978-9927-103-24-7

هاتف: 44080451 974+ فاكس: 44080470 974+ صندوق بريد: 12231
الموقع الإلكتروني: fairforum.org البريد الإلكتروني: info@fairforum.org
العنوان: مبنى رقم 28، المؤسسة العامة للحي الثقافي (كتارا)، الدوحة، قطر

الحرب الصليبيّة الثانية


بسم الله الرحمن الرحيم

الحرب الصليبيّة الثانية

حرب الغرب المستعرة مجدّدًا ضد الإسلام

جـون فيفـر

ترجمة

محمد هيثم نشواتي



عنوان الكتاب بالإنكليزية:

John Feffer, *Crusade 2.0*

The West's Resurgent War against Islam

عنوان الكتاب: الحرب الصليبية الثانية.

المؤلف: جون فيفر.

ترجمة: محمد هيثم نشواتي.

٢٥٦ صفحة - ١٦,٥ × ٢٤ سم.

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٣٧٦/ ٢٠١٤.

الرقم الدولي (ردمك): ISBN: 978 - 9927 - 103 - 24 - 7

الطبعة الأولى ٢٠١٥.

المحتويات

الإهــداء

إلى إديث فيفر، التي علّمتني تحدّي الظلم

المقدمة

الهدف: الإسلام

كان صيف الكراهية، وكان الهدف هو الإسلام.

التغطية الإخبارية على شاشات التلفزة الأميركية طوال صيف عام ٢٠١٠ كانت حافلة بصور أميركيين غاضبين، يلوحون بلافتات تندد بثاني أكبر دين في العالم. بدا آنذاك وكأن الغضب يأتي من العدم، فقد شهدت المواقف المعادية للإسلام تراجعًا مطردًا لدى عموم الأميركيين[١]. في عام ٢٠٠٩، ونظرًا للانخفاض في عدد جرائم الكراهية ضد المسلمين على مدى سنتين، أعربت بعض منظمات الرصد والمراقبة البارزة عن «تفاؤلها الحذر في احتمال أن تكون أميركا تشهد ثباتًا في ردة الفعل السلبية على المستوى الشعبي تجاه الأميركيين المسلمين بعد أحداث ١١/ ٩»[٢].

(١) وفقًا لمشروع بيو العالمي لقياس المواقف، نسبة ٢٣٪ من الأميركيين كان لديهم وجهات نظر سلبية عن الإسلام عام ٢٠٠٨ بالمقارنة مع عام ٢٠٠٤ حيث كانت النسبة ٣١٪. مشروع بيو العالمي لقياس المواقف، «تزايد وجهات النظر السلبية عن اليهود والمسلمين على حد سواء، في أوروبا»، مركز بحث بيو، سبتمبر/ أيلول ١٧، ٢٠٠٨.
http://pewresearch.org/pubs/955/unfavorable-views-of-both-jews-and-muslims-increase-in-europe..

(٢) «كره مشترك، وهدف مختلف»، مجلس العلاقات الإسلامية الأميركية (واشنطن، ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٩-يناير/ كانون الثاني ٢٠١٠)، ٢٢.

كان التفاؤل سابقًا لأوانه.

في حزيران/ يونيو ٢٠١٠، بدأ بعض المتظاهرين بالاحتجاج على بناء مجمع إسلامي في «بارك ٥١» على الجانب الشرقي الأدنى من مانهاتن، واشتعلت وسائل الإعلام جدلاً. في نهاية آب/ أغسطس، أضرم مخربون مجهولون النار في موقع بناء مركز إسلامي آخر في مدينة مورفريسبورو بولاية تينيسي. ولم تكن تلك إلا الهجمة الأحدث في سلسلة هجمات شملت محاولة إحراق مركز إسلامي في فلوريدا في أيار/ مايو، ومحاولات تخريب متعمّدة استهدفت مساجد في ولايات ويسكونسن، وميشيغان، وتكساس[١]. طوال ذلك الصيف أيضا، قرر قس فلوريدا تيري جونز ورعيته الأصولية قليلة العدد اللعب بالنار، متعهدين بإحراق نسخ من القرآن الكريم في الذكرى السنوية لأحداث١١/ ٩. وقد ساور الرئيس باراك أوباما القلق من أن يؤدي ذلك إلى التحريض على شن هجمات ضد جنود الولايات المتحدة في أفغانستان والعراق، فمارس ضغطًا على القس بغية إلغاء الحدث.

استخدم مثيرو المخاوف تكتيكات أخرى في ذلك الصيف، فقد أحضر بعض المحتجين كلابًا معهم-لأن «المسلمين يكرهون الكلاب» - إبداء لمعارضتهم بناء مسجد جديد في مدينة تيميكولا بولاية كاليفورنيا[٢]. كما اشترت مجموعة تُسمي نفسها «كفوا عن أسلمة أميركا» إعلانات معادية للإسلام ألصقتها على الحافلات العامة في شوارع سان فرانسيسكو وميامي ونيويورك[٣]. حتى في أوكلاهوما، حيث يقل عدد المسلمين عن ١٪ من السكان، قامت حركة

---

(١) المرجع ذاته ٥٣-٥٤.

(٢) تيم أوليري «استهداف اقتراح بناء مسجد تيميكولا» فالي نيوز، يوليو/ تموز/ ٢٣/ ٢٠١٠.
http://www.myvalleynews.com/ story/49601/.

(٣) ستيفاني رايز، «ضد الإسلام ظهور إعلانات الحافلات في المدن الرئيسية» كريستشن سينس مونيتور، يوليو/ تموز ٢٨/ ٢٠١٠.

http://www.csmonitor.com/USA/Society/20100728//Anti-Islamic-bus-ads-appear-in-major-cities.

احتجاجية تمحورت حول إجراء استفتاء غير معقول ولا مبرر له من أجل حظر الشريعة (القانون الإسلامي)، وقد تم تمريره على نحو حاسم في نوفمبر/ تشرين الثاني أثناء الانتخابات الانتصافية[1].

في الوقت ذاته، كانت شخصيات عامة تشارك في مسابقة غير رسمية لإطلاق أشد التعليقات كرهًا وعدائيةً للإسلام. شبّه الطامح للرئاسة نيوت غينغريتش منظمي حملة إنشاء المركز الإسلامي في «بارك ٥١» بالنازيين. واعتبر مضيف البرامج الحوارية راش ليمبو أن إقامة مركز التلاقي بين الأديان في نقطة تفجيرمركز التجارة العالمية أشبه مايكون ببناء «نصب تذكاري» يخلّد انتصار الإرهابيين، فيما أشار المبشّر الإنجيلي فرانكلين غراهام إلى الإسلام مرارًا وتكرارًا بوصفه «دين الشر»[2]. وعندما أعلن الرئيس أوباما على مائدة إفطار رمضانية أن «للمسلمين الحق ذاته في ممارسة شعائرهم الدينية، حالهم حال أي شخص آخر في هذا البلد»، رد عليه محارب الحرب الباردة السابق فرانك جافني قائلاً: هذا التصريح يثبت أن الرئيس «يناصر الشريعة»[3]. في واقع الأمر، كانت المشاعر المعادية للإسلام التي احتدمت في الولايات المتحدة صيف عام ٢٠١٠ قد بدأت تنافس هستيريا العداء للشيوعية أيام الحرب الباردة، بوجود أشخاص أمثال غافني متورطين في المكافئ الديني لاصطياد الشيوعيين وملاحقتهم.

---

(١) الشريعة في الحقيقة هي عبارة عن قانون إلهي، على خلاف الفقه، الذي يعدّ قانونًا إسلاميًا. جون اسبوسيتو وداليا مجاهد عقدا مقارنة بينهما وعدّا الشريعة هي البوصلة، والفقه هو الخارطة. «هذه الخارطة تتوافق مع البوصلة لكنها تعكس أوقاتاً وأماكن ومواقع جغرافية مختلفة. البوصلة ثابتة لكن الخارطة هي الخاضعة للتغيير». جون اسبوسيتو وداليا مجاهد، من يتحدث نيابةً عن الإسلام؟ (نيويورك: صحيفة جالوب، ٢٠٠٧)، ٥٣.

(٢) ليمبو أطلق على مركز الإسلام مصطلح «صرح النصر في الغراوند زيرو ميديا ماترز» وسائل الإعلام، أغسطس/ آب ١٧/ ٢٠١٠.

http:/mediamatters.org / mmty/201008170036 /

(٣) «ميديا بلاست الجناح اليمني: دعم الرئيس أوباما لحرية الأديان» ميديا ماترز، أغسطس/ آب، ١٤/ ٢٠١٠.

وكان لذلك أثره في الرأي العام، إذ إن انخفاض المواقف السلبية المناوئة للإسلام انقلب بشكل حاد في تلك السنة[1]. في التاسع عشر من آب/ أغسطس عام ٢٠١٠، خصصت مجلة تايم مقالاً تتساءل فيه عما إذا كانت أميركا تواجه «مشكلة مسلمين». في نهاية الشهر ذاته، كان غلاف المجلة يحمل عنوان «الإسلاموفوبيا»[2].

كان الموقف أشد قبحًا في أوروبا، حيث ناقشت الهيئات التشريعية في بلجيكا وإسبانيا وفرنسا مشاريع قوانين تتعلق بتقييد ارتداء الزي الإسلامي، وذلك في أعقاب تحرك قامت به سويسرا لحظر بناء المآذن. باتت أحزاب اليمين المتطرّف المؤيدة للآراء والمواقف المعادية للمهاجرين وللإسلام تستقطب أعدادًا أكبر من المناصرين والأتباع. وأعربت قطاعات جماهيرية أوسع في أوروبا عن رغبتها سحب جنودها من قوات التحالف في حربها المشتركة في أفغانستان،

---

(١) فقط ٣٠٪ من الأميركيين نظروا للإسلام بإيجابية صيف ذلك العام، وهذا انخفاض كبير، فالنسبة في عام ٢٠٠٥ شكلت ٤١٪ من الأميركيين ممن لديهم وجهة نظر إيجابية عن الإسلام. منتدى بيو حول الدين والحياة العامة، «مازال الرأي العام منقسمًا حيال الإسلام» مركز بيو للأبحاث، ٢٤ أغسطس/ آب، ٢٠١٠.

http://pewresearch.org/pubs/1706/poll-americans-views-of-muslims-object-to-new-york-islamic-centerislamviolence.

ويدعم استطلاع للرأي أجرته صحيفة الواشنطن بوست / ايه بي سي هذه الأرقام أيضًا. ووفقًا لتقرير صدر في سبتمبر/ أيلول من عام ٢٠١٠: «٤٩٪ من جميع الأميركيين المستطلعة آراؤهم لديهم نظرة سلبية عن الإسلام بصفة عامة، مقارنةً مع ٣٧٪ قالوا إن لديهم نظرة إيجابية. وهذه أكثر الانقسامات سلبيةً حيال المسألة في استطلاعات الواشنطن بوست/ إيه بي سي حتى شهر أكتوبر/ تشرين الأول من عام ٢٠٠١». وتبعًا لما قال جون كوهين وكيل دروب: «يعترض معظم الأميركيين على المركز الأميركي المزمع إنشاؤه قرب موقع الغراوند زيرو، هذا ما خلص إليه استطلاع للرأي».

http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/201008/09//AR2010090806231.html

(٢) بوبي غوش «جدل دائر حول مسجد: هل لدى أميركا مشكلة مع المسلمين؟» تايم، ١٩ أغسطس/ آب/ ٢٠١٠.

http://www.time.com/time/magazine/article/0,9171,2011936,00.html;

والحد من عمليات الاندماج بإبقاء تركيا خارج الاتحاد الأوروبي. وقد استغل القادة الشعبويون هذه المواقف للترويج لرؤيتهم الخاصة: «أوروبا القلعة».

لم تتوقف ظاهرة الإسلاموفوبيا (رُهاب الإسلام) بعد صيف الكراهية ٢٠١٠. صحيح أن مركز «بارك ٥١» افتتح في نهاية المطاف بعد مرور عام دون وقوع أي حوادث كبيرة، لكن الغضب لم يهدأ من نواح أخرى كثيرة. نفّذ تيري جونز وعده بإحراق نسخة من القرآن في شهر آذار/ مارس٢٠١١، مما أثار ردود أفعال عنيفة في جميع أنحاء العالم أودت بحياة أكثر من اثني عشر شخصًا[1]. واستنسخت عشرون ولاية تقريبا مثال أوكلاهوما بتقديمها مشاريع قوانين مناهضة للشريعة الإسلامية. ثم التقط الكونغرس الفكرة عبر النائب الجمهوري عن مدينة نيويورك بيتر كينغ، فعقد جلسات استماع مثيرة للجدل في آذار/ مارس عام ٢٠١١ حول ازدياد «راديكالية» المسلمين الأميركيين. كما أطلق عدد من المرشحين للرئاسة عن الحزب الجمهوري العنان لمشاعرهم المعادية للإسلام، فذهب هيرمان كين إلى حد تعهّده بأن لا يوظف مسلمين «الأمر الذي أنكره لاحقًا»، في حين ضخّت مؤسسات الجناح اليميني في الحزب أكثر من أربعين مليون دولار خدمة للجهود المعادية للإسلام[2].

في أوروبا، بقيت نيران الإسلاموفوبيا مستعرة عبر الكتب الأكثر مبيعًا والمناهضة للإسلام، وعبر الاحتجاجات العنفية في الشوارع، بل حتى عبر القتل الجماعي في النرويج.

بالنسبة للبعض، كان تفسير هذه الانفجارات المعادية للإسلام بسيطًا. فالأميركيون والأوروبيون مازالوا غاضبين حيال ما جرى في ١١/ ٩، وحيال

---

(١) كفين سيف «إحراق قس فلوريدا، تيري جونز، نسخة من القرآن يحدث تأثيرات بعيدة المدى» الواشنطن بوست، ٢ أبريل/ نيسان، ٢٠١١.
http://www.washingtonpost.com/local/education/florida-pastor-terry-joness-koranburninghas-far-reaching-effect/201102/04//AFpiFoQC_story.html

(٢) وجاهة علي وإيلي كلفتون ومايتودوس ولي فانغ وسكوت كيز وفايز شاكر، مؤسسة الخوف (واشنطن، دي سي: مركز التقدم الأميركي، ٢٦ أغسطس/ آب، ٢٠١١).

التفجيرات الإرهابية اللاحقة التي وقعت في لندن ومدريد؛ وما برح الغضب يتملّكهم لجهة جريمة قتل المخرج الهولندي ثيوفان غوخ عام ٢٠٠٤، على يد المسلم الهولندي مغربي الأصل محمد بويري؛ ومازالوا يخشون تنظيم القاعدة، وحركة طالبان، والرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد، وحركة حماس في غزة، وحزب الله في بيروت. ويساورهم القلق إزاء الأفراد الذين حرّضوا على تنفيذ الهجمات التي وقعت مؤخرًا، أو خطّطوا لها، بما فيها إطلاق النار في قاعدة فورت هود في تكساس، والتفجيرات الانتحارية في موسكو وستوكهولم، ومحاولة تفجير قنبلة في ساحة التايمز في نيويورك، والمخططات الرامية إلى تفجير مترو الأنفاق في واشنطن العاصمة، وحفل عيد الميلاد في مدينة بورتلاند بولاية أوريغون. بالنسبة لكل هؤلاء، الذين حاولوا عقلنة الغضب بهذه الطريقة، المشكلة تقع على عاتق المسلمين وعلى ما يسمى «ولعهم بالعنف».

ثمة تفسير بسيط آخر لموجة الإسلاموفوبيا العارمة صيف عام ٢٠١٠ وما بعده، وتتمثّل في نهوض حركة «حزب الشاي» واستقطابها جمهور الناخبين الأميركيين، فالانكماش الاقتصادي الشديد الذي نجم عن الأزمة المالية عام ٢٠٠٨ فسح المجال أمام ازدياد «شعبوية» الاستياء. وانتخاب رئيس ما انفك حوالى ربع جمهور الناخبين الأميركيين عام ٢٠١٠ يعتقدون زيفًا أنه كان مسلمًا، وفرا فرصة سياسية للناشطين المناوئين للحزب الديمقراطي للعب ورقة الدين[1]. هؤلاء النشطاء أنفسهم كثفوا جهودهم الرامية إلى تشويه سمعة الرئيس وحزبه على مدى الفترة المؤدية إلى الانتخابات الرئاسية الثانية عام ٢٠١٢.

إن الاعتقاد الخاطئ بأن تنظيم القاعدة ومطلق النار في قاعدة «فورت هود» يمثلان الإسلام ومعتنقيه، الذين يزيد عددهم على مليار ونصف المليار نسمة في العالم، أدى بالتأكيد دورًا في الإبقاء على مستويات مرتفعة من الخوف

(١) ألكس ألتمان، «بحسب استطلاع للرأي أجرته مجلة التايم: الغالبية يعارضون بناء المسجد، وكثيرون لايثقون بالمسلمين». مجلة التايم، ١٩ أغسطس/ آب، ٢٠١٠.
http://www.time.com/time/nation/article/0,8599,2011799,00.html#ixzz1ACL7hA6g.

والعداء للإسلام في الولايات المتحدة وأوروبا[1]. كما أثرت التصريحات المعادية للإسلام، التي يطلقها الساسة ونشطاء اليمين المتطرّف المدفوعون سياسيًّا، في التغطية الإعلامية وفي الرأي العام إلى أبعد الحدود.

بيد أن المشاعر المعادية للإسلام تمتد إلى أغوار أكثر عمقًا في المجتمع والثقافة الغربيين. فبدلاً من اقتصارها على أروقة الأجنحة المتطرّفة للأحزاب اليمينية، تتغذى مشاعر «الإسلاموفوبيا» وتستمد أسباب الحياة من سياسة حكومة الولايات المتحدة ذاتها، بخاصة حروبها، وجهودها في مكافحة الإرهاب، وهيمنة محلليها الذين يسايرون الاتجاه السائد تمامًا. كما تستند إلى أساطير ومفاهيم خاطئة تعود إلى ألف سنة خلت وأكثر، فالكراهية التي دبّت فيها الحياة بسرعة صيف عام ٢٠١٠ لم تأتِ من فراغ.

السياق الجيوسياسي:

يعيش الشرق الأوسط صراعاً محتدماً. ومرة أخرى يبدو نجم الإسلام في صعود، بعد أن انبزغت حركة إسلامية جديدة في هضبة الأناضول تتحدى النظام القائم. الغرب المنقسم إلى فرق شتى يستنفد موارد ضخمة في الحرب الدائرة في المنطقة، وتتعالى فيه باطراد أصوات بارزة تحذّر من استيلاء المسلمين على أوروبا، ومن محاولة إقامة الخلافة الإسلامية في العالم بالقوة والعنف. أما أصحاب الرؤية الأكثر كوارثية فيذهبون إلى حد القول إن مصير الحضارة الغربية ذاتها بات في خطر.

أهلا بكم إلى القرن الحادي والعشرين؟

أهلا بكم، بالأحرى، إلى القرن الحادي عشر.

---

(١) يوجد مليار وخمسمائة وسبعون مليون مسلم في العالم وفقًا لتقرير صادر عن منتدى بيو. انظر ريتشارد آلان غرين. يقول التقرير: «واحد من كل أربعة أشخاص من الناس في جميع أنحاء العالم مسلم». سي إن إن، ٧أكتوبر/ تشرين الأول، ٢٠٠٩.
http://articles.cnn.com/200907-10-/world/muslim.world. population_1_god-but-god-middle-east-distant?_s=PM:WORLD.

في عام ١٠٩٥، وردًّا على استيلاء الأتراك السلاجقة على القدس ومدن أخرى، شن العالم المسيحي حملته الصليبية الأولى ضد العالم الإسلامي. وقد استتبعت تلك الحملة أكثر من ست حملات عسكرية على مدى مئات السنين اللاحقة، إذ دامت هذه الحقبة ما يقرب الألف سنة حتى سقوط الإمبراطورية العثمانية وإنهاء الخلافة الإسلامية في تركيا عام ١٩٢٤. ولم يقتصر الصراع في تلك الفترة على تحديد هوية العصور الوسطى، بل تعداه إلى تعريف الملامح الحقيقية للهوية الغربية ذاتها.

لقد دارت عجلة التاريخ. انبعث الإسلام من جديد، ومن جديد أضحى مستهدفًا من قبل الغرب. نحن الآن عالقون في شرك مواجهة كبرى ثانية، حملة صليبية ثانية، فالحرب في أفغانستان أصبحت للتو أطول صراعات أميركا العسكرية أمدًا. و«عمليات الطوارئ في الخارج»، التي حلّت محل «الحرب العالمية على الإرهاب»، والتي تشنّها الولايات المتحدة وحلفاؤها، تنبئ بالبقاء ردحًا أطول من الزمن، وتحديد شكل ما أطلق عليه اسم حقبة ما بعد-بعد-الحرب الباردة.

حاليًا، كما كانت الحال في القرن الحادي عشر، يتراءى للغرب أنه منخرط في حرب لا نهاية ولا حدود لها، حرب الخير ضد الشر، حرب تعريف ماهية الجوهر الحقيقي للحضارة.

على الرغم من تشابهها في نواح مهمة مع الحروب الدينية المقدسة في العصور الوسطى، فإن الحملة الصليبية الثانية ليست ببساطة الحرب الصليبية العاشرة (The Tenth Crusade)[1]. في عام ١٠٩٥، لم يكن ثمة أعداد

(١) ألكسندر كوكبرن «الحملة الصليبية العاشرة» كاونتر بنش، ٧سبتمبر/ أيلول، ٢٠٠٢.
http://counterpunch.org/cockburn0907.html
هناك بعض الجدال حول عدد الحملات الصليبية، والأمر يتعلق بفريديريك الثاني ولويس التاسع، فإما أن يكون كل منهما قد شن حملتين صليبيتين أو واحدة، أي أن يكون كل منهما قد شن حملة واحدة من عدة مراحل. هذا الأمر يجعل عدد الحملات الصليبية إما سبعًا أو تسع حملات. يعد بعض الباحثين، مثل كريستوفر تيرمان، حتى الحرب التي شنتها في القرن السابع عشرالعصبة المقدسة (Holy League) ضد الإمبراطورية العثمانية حملة صليبية. كريستوفر تيرمان، حرب الرب (كمبريدج، إم إيه: مطابع جامعة هارفارد، ٢٠٠٦)، ٩١٤.

كبيرة من السكان المسلمين في الغرب يعيشون تحت السيادة المسيحية، ولم يكن الغرب يتهيّب من إعلان الإسلام عدوًّا. أما الآن، وعلى النقيض من ذلك، تحاول حكومة الولايات المتحدة وحلفاؤها في أوروبا الغربية وفي أماكن أخرى تجنّب ذكر كلمة «الصليبية» أو «المسيحية»، على الأقل لأن أعدادًا كبيرة جدًّا من المسلمين يعيشون حاليًا في الغرب. ويصرّ قادة التحالف على أنهم يحاربون الإرهاب، لا الإسلام، وعلى أنهم ملتزمون بكسب «عقول المسلمين وقلوبهم» عبر تحقيق الاستقرار الأمني والعسكري، والتنمية الاقتصادية، وتعزيز الديمقراطية، وعبر القيام بحملات علاقات عامة مكثفة لتحسين صورة الغرب.مع ذلك، وبرغم هذه الجهود، يشعر كثير من المسلمين بأنهم ضحايا حملة منسقة تستهدفهم بضربات جوية من السماء، وبافتراءات وإهانات إسلاموفوبية على الأرض.

بالنسبة للمتفائلين، كان يفترض بهذه الحملة المزدوجة أن تضع أوزارها مع نتائج الانتخابات الأميركية عام ٢٠٠٨، فقد وعد الرئيس المنتخب حديثًا باراك أوباما بوضع حد للحرب في العراق، وتعهد بإغلاق معتقل غوانتانامو وإنهاء التعذيب. وفي غضون بضعة أشهر من استلام إدارته مقاليد الحكم؛ أحالت بهدوء شعار «الحرب العالمية على الإرهاب» إلى التقاعد، وألقى الرئيس خطابًا في القاهرة أبدى فيه رغبته بالتواصل مع العالم الإسلامي عبر وسائل وأساليب جديدة. وهكذا، حتى قبل بلوغها عقدها الأول، بدا أن الحملة الصليبية الثانية في طريقها إلى تقاعد مبكر.

بيد أن تلك الحملة واصلت وتواصل زحفها، فقد تابعت إدارة أوباما الحروب التي بدأها سلفه تحت اسم جديد هو «عمليات الطوارئ في الخارج». وما تزال الولايات المتحدة في الوقت الراهن تشن مع حلفائها حروبًا في بلاد ذات أغلبيات مسلمة، مثل أفغانستان وباكستان والعراق. وقد توسعت في ظل إدارة أوباما عمليات القوات الخاصة، لتشمل رقعة أوسع من العالم الإسلامي تمتد من شمال إفريقيا إلى الشرق الأقصى. وشنّت إدارته هجمات تديرها المخابرات

المركزية الأميركية في باكستان بواسطة طائرات بدون طيار، وقد ازداد عددها إلى ثمانية أضعاف ما شنته طائرات مماثلة في عهد سلفه (جورج بوش الابن) على مدى فترتيه الرئاسيتين[1]. وأدى برنامج الاغتيال المستهدف، الذي أسفر عن مقتل أسامة بن لادن وغيره من كبار قادة القاعدة، إلى وقوع إصابات بين المدنيين، وإلى غضب شعبي، وإشكالات قانونية ذات صلة. وعلى الرغم من أن الإدارة الأميركية بادرت إلى بذل جهود كبيرة على صعيد الدبلوماسية العامة سعيًا وراء إشراك العالم الإسلامي، فقد تراجعت شعبية الولايات المتحدة في معظم البلدان ذات الأغلبيات المسلمة؛ إذ هبطت دون المستويات التي كانت عليها في سنوات حكم الرئيس بوش، وهي مستويات ضعيفة أصلاً. في مصر، على سبيل المثال، انحدرت شعبية الولايات المتحدة من ٣٠٪ عام ٢٠٠٦ إلى ١٧٪ عام٢٠١٠، وهبطت في باكستان من ٢٧٪ إلى ١٧٪ في الحقبة ذاتها[2]. حتى دعم الولايات المتحدة للانتفاضات العربية المناهضة للقادة الاستبداديين في الشرق الأوسط عام ٢٠١١ (الربيع العربي الذي انطلق من تونس وامتد إلى مصر واليمن وسوريا وليبيا وأماكن أخرى) لم يغير المواقف في العالم الإسلامي جوهريًّا، فقد جاء الدعم الأميركي للحركات الديمقراطية متأخرًا، في حين واظبت الولايات المتحدة على دعم قادة استبداديين في الخليج وأماكن أخرى، مما أكد أن الولايات المتحدة تكيل بمكيالين، وتستخدم معيارًا مزدوجًا للديمقراطية في المنطقة.

في الوقت ذاته، نجحت أقلية من الأصوات داخل الولايات المتحدة بفرض عقليتها الصليبية على السكان السذّج. وشايعها في ذلك بعض أصحاب المشاعر المعادية للإسلام، فوفق استطلاع للرأي أجرته مجلة **نيوزويك** الأميركية

---

(١) أرقام تعود إلى الثاني من أكتوبر/ تشرين الأول، ٢٠١١، «سنة الطائرة بدون طيار» مؤسسة أميركا الجديدة.

http://counterterrorism.newamerica.net/drones.

(٢) مشروع بيو لقياس المواقف العالمية «شعبية أوباما في الخارج أكثر منها في الداخل: صورة الولايات المتحدة العالمية، مواظبة على الاستفادة»، مركز بيو للأبحاث، ١٧ يونيو/ حزيران.
http://pewglobal.org/201017/06//obama-more-popular-abroad-than-at-home/.

في أغسطس/ آب ٢٠١٠، تباينت آراء غالبية الجمهوريين بين معتقد بأن الرئيس أوباما يتعاطف «بالتأكيد» مع الأصوليين الإسلاميين، وهدفهم الرامي إلى نشر الشريعة الإسلامية في أصقاع الأرض، وبين قائل إن الرئيس «من المحتمل» أن يكون كذلك[1]. ولم يقتصر الأمر على الجمهوريين وحدهم؛ إذ إن ثلثي المواطنين الأميركيين يقرون بأنهم متحاملون على المسلمين[2].

يحاول الكتاب الحالي فهم مصادر هذه المشاعر المعادية للإسلام. وسوف يكشف أن لثلاث حروب لم تنته بعد من الألفية الماضية - الحروب الصليبية، والحرب الباردة، والحرب على الإرهاب - تأثيراً مستداماً على أفعالنا وطريقة تفكيرنا في الغرب. وقد أنتجت التجارب الثلاث أنواعًا مختلفة من الإسلاموفوبيا في أوروبا والولايات المتحدة، مع أن القلق الديموغرافي الذي رافق الأولى والتراجع النسبي في قوة الأخيرة تقاطعا معاً وأديا إلى تضخيم الخوف من الإسلام.

في الصفحات اللاحقة، أحاجج في أن الصليبيين الجدد ليسوا معنيين في المقام الأول بما يسمونه «الفاشية الإسلامية»، أو أية توصيفات أخرى يطلقونها على عناصر يعتبرونها راديكالية ولا تروق لهم في الإسلام. فالحملة التي تفجّرت في عناوين الصحف صيف عام ٢٠١٠، واستمرت ملتهبة في أوساط المجتمع الغربي حتى الآن، لم تكن تتمحور حول الإرهاب. ولم يكن المتطرفون الإسلاميون يحاولون إقامة الخلافة الإسلامية من جديد، أو فرض الشريعة الإسلامية على غير الراغبين فيها.

إن ما يقلق الاسلاموفوبيين حقًّا هو تزايد النفوذ الاقتصادي والسياسي والعالمي للإسلام السائد والحديث. انظر، مثلاً، إلى الأهداف الأخيرة للمشاعر المعادية للإسلام. جماعات اليمين المتطرّف - وفي نهاية المطاف المنظمات

---

(١) «أوباما/ مسلمون» استطلاع للرأي أجرته النيوزويك، ٢٧ أغسطس/ آب، ٢٠١٠.
http://nw-assets. s3.amazonaws.com/pdf/1004-ftop.pdf.

(٢) جون كول، خطب ود العالم الإسلامي (نيويورك: بالغريف/ ماكميلان، ٢٠٠٩)، ١.

الأكثر حضورًا في الاتجاه المعادي للإسلام، مثل رابطة مكافحة التشهير- استهدفت مركزًا إسلاميًا مقترحًا في شرق مانهاتن كان من بنات أفكار أحد دعاة حوار الأديان. هذا المركز تحديداً حفز غضبهم لأنه موقع حضاري وليس أحد معاقل الإسلام المتطرّف. وقس فلوريدا وأتباعه لم يعلنوا عزمهم إحراق مؤلفات ابن لادن، بل نسخة من القرآن الكريم ذاته. والمفكر «الليبرالي» بول بيرمان كرّس آلاف الكلمات للطعن في سمعة طارق رمضان، وهو أحد العلماء المسلمين البارزين من أصحاب التيار السائد والمعتدل، لا أحد منظري تنظيم القاعدة. والبلد الذي أثار أشد المخاوف وأقضّ مضاجع العواصم الأوروبية لم يكن المملكة العربية السعودية أو اليمن، بل تركيا. فعلى الرغم من أنها سارت بخطى حاسمة بعيداً عن الحكم الاستبدادي وباتجاه الديمقراطية الليبرالية، بقيادة حزب سياسي متأثر بالفكر الإسلامي المعتدل، فقد أصبحت تركيا العدو اللدود للإسلاموفوبيين الساعين إلى «إنقاذ» الحضارة الغربية.

حملة صليبية جديدة:

لم تكن الحملة الصليبية الأولى مجرد «صدام حضارات» بين الصليب والهلال. ومع أن الدين لعب بالتأكيد دورًا محفزًا، فإن الحروب الصليبية كانت تدور أيضا حول الأهداف الأكثر دنيوية والمرتبطة بكل الحروب: السلطة، والأرض، وتحقيق المكاسب الاقتصادية. وبرغم أن الصورة التي تصلنا الآن عن الحملة الصليبية توحي بأنها كانت جهدًا جماعيًا منسقًا، يرمي إلى إنقاذ الحضارة من الكفرة، فإن تلك الدوافع الأقل نبلاً وقداسة دفعت الصليبيين أحيانًا إلى مهاجمة مسيحيين آخرين، والتحالف أحيانا أخرى مع المسلمين لأسباب تكتيكية.

وحملتنا الصليبية الراهنة-الحملة الصليبية الثانية-معقدة بطريقة مماثلة. إذ دخلت الولايات المتحدة الحرب دفاعًا عن معتقد مزعوم مختلف، ليس المسيحية بل الديمقراطية الليبرالية. غير أن هذا المعتقد يخفي أيضًا مقاصد ونوايا

أقل نبلاً، فالولايات المتحدة وشركاؤها الأوروبيون، شأنهم شأن الصليبيين الأصليين، مهتمون بالميزة الجيوسياسية لهذه المنطقة المهمة استراتيجيًا في العالم. بالنسبة للصليبيين، كانت القدس وضواحيها موقع حج مهمًا، لكنها كانت أيضًا طريقًا حيويةً للتجارة. والصليبيون الآن هم أكثر اهتمامًا بموارد الطاقة، سواء أكانت هذه الموارد نفط العراق أم خطوط أنابيب الغاز الطبيعي التي تمر عبر آسيا الوسطى. ولتحقيق هذه الأهداف المغرقة في دنيويتها، أقام الغرب بعض التحالفات التكتيكية مع بعض الأطراف في العالم الإسلامي «تحالف الشمال في أفغانستان، وبعض المقاتلين السُنَّة في العراق، والحكومات غير الليبرالية في الخليج واليمن». وجهود البنتاغون في مكافحة التمرد، والاشتراك مع حكومات مسلمة ومسلمين فاعلين على الأرض في ميادين القتال، غالبًا ما تضع المؤسسة العسكرية الأميركية في مواقف تتناقض مع أغراض الإسلاموفوبيين. فكما يقول فرانك ريتش، كاتب الرأي في صحيفة *نيويورك تايمز*: «كيف تكسبون قلوب المسلمين وعقولهم في قندهار وأنتم تنعتونهم في نيويورك بكل الصفات البذيئة التي تخطر على بال؟»[1].

قليل من الجنود الغربيين تطوعوا للقتال في أفغانستان أو العراق، سواء ليكسبوا قلوب المسلمين وعقولهم، أو حتى ليحافظوا على حرية وصول الغرب إلى منابع النفط والغاز. ولتبرير شن الحرب وتعبئة الشباب للقتال، كانت الحكومات الغربية بحاجة إلى عدو حقيقي من لحم ودم. فالمواطنون الغربيون على استعداد لتحمل المزيد من بارانويا دولة الأمن القومي في الداخل فقط إذا كانت موجهة ضد عدو خطير يتهددهم في الجوار. وكلما كانت النية تتجه إلى شن حرب أضخم، وإعطاء دولة الأمن القومي دوراً تدخلياً أكبر، ازدادت الحاجة إلى أن يكون العدو أقوى وملحمي الأبعاد أكثر. أسامة بن لادن لم يكن كبيراً بما يكفي. لكن ابن لادن بالإضافة إلى حركة طالبان، بالإضافة إلى

(١) فرانك ريتش «كيف ضلل فوكس بانريوس» نيويورك تايمز، ٢١ أغسطس/ آب، ٢٠١٠.
http://www.nytimes.com/201022/08//opinion/22rich. html?_r=1.

صدام حسين، بالإضافة إلى إيران وسوريا وحركة حماس وحزب الله والأئمة المتطرفين في لندن ونيويورك وهامبورغ، رفع الرهان إلى درجة معتبرة. ولتقريب العدو الإسلامي الجديد من العدوّين العالميين التاريخيين في القرن العشرين-الفاشية والشيوعية-كان لابد أن يشكل تهديداً ليس فقط للأرض بل للحضارة الغربية ذاتها.

الحملة الصليبية الثانية، إذن، لها مفارقاتها وتعقيداتها، شأنها شأن سابقتها القروسطية. لكن صورة الحملة الصليبية الثانية-الغرب الليبرالي يحارب الأصوليين والمتدينين المتعصبين غير القادرين على التفكير المنطقي والعقلاني- أثبتت أنها إطار إيديولوجي مناسب ومستدام، حالها حال «صدام الحضارات» الأصلي في القرن الحادي عشر.

والصراعات الراهنة بين الولايات المتحدة وحلفائها من جهة، وبين ما اصطلح على تسميته «الإسلام الراديكالي» من جهة أخرى، ليست نتيجةً حتميةً لتاريخ أقدم عهدًا. فمع انحدارالإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر، تلاشت إلى حد بعيد السرديات الكبرى التي تضع الإسلام في مواجهة الغرب. وأثناء الحرب الباردة، كما يتقصى الكتاب الحالي بمزيد من التفصيل، ساندت الولايات المتحدة وإسرائيل فعلياً الإسلام الراديكالي ضد القومية العربية. وقد يكون الأمر الأكثر أهمية أن إسلام الأطراف المصطفة ضد الولايات المتحدة دخيل وعرضي، وليس جوهر الدين الإسلامي الحق. قال لي المدون المولود في العراق رائد جرار: «يتخذ العراقيون مواقف سلبية من الولايات المتحدة لأننا نحتل أرضهم... لا لأن أغلبيتهم مسلمون وأغلبيتنا مسيحيون»[1].

بعبارة أخرى، نحن لا نعيش صدام حضارات بين الشرق والغرب على أرض الواقع، بل فقط في الرؤى الجهادية العنفية لمحاربين في الشرق المتوحش

(١) فرانك لامبرت، الحروب البربرية (نيويورك: هيل ووانغ، ٢٠٠٥)، ٨، مقابلة مع رائد جرار في ٥نوفمبر/تشرين الثاني، ٢٠١٠ (واشنطن العاصمة).
http://www.fpif.org/articles/ interview_with_raed_jarrar_and_niki_akhavan.

وفي الغرب المتوحش على حد سواء. والإسلاموفوبيون وقيادة تنظيم القاعدة، مثلهم مثل حَمَلَة السلاح في مدينة مروعَةٍ، يشتركون معا في الرؤية الكارثية والعنف غير المشروع، وكلاهما يبقيان نار الحملة الصليبية الثانية مستعرة. ولعل الشعار الذي رفعه عبد الله عزام (المرشد المعلم لأسامة بن لادن)، «لا مفاوضات ولا مؤتمرات ولا حوارات»، ينسحب على كلا الطرفين في آن معًا[1].

ما الإسلاموفوبيا؟

يخشى المصابون برهاب العناكب، بسبب ذعرهم غير العقلاني، من نوعي العناكب طويلة القوائم غير المؤذية، والعناكب البنية المتوحدة والسامة. وفي الحالات القصوى، قد يتصبّب المريض عرقًا لمجرد النظر إلى صور العناكب من أي نوع. بالطبع، من المنطقي الابتعاد عن الأنواع، كذلك المسمى الأرملة السوداء، مع العلم أن لدغات العناكب في حدها الأقصى لا تتسبب إلا بعدد قليل جدًّا من حالات الوفاة سنويًّا في الولايات المتحدة. لكن ما يجعل الخوف المشروع خوفاً مَرَضِياً ورهابًا لا عقلانياً هو الميل إلى إجمال كل عناصر المجموعة دون تمييز، عناكب كانت أم بشراً، ضمن فئة مميتة واحدة، ثم المبالغة في التهديد الذي تشكله.

الإسلاموفوبيا، مثل رهاب العناكب، خوف مرضي ولا عقلاني من الإسلام. وهو مصطلح نحته المستشرق الفرنسي إتيان دينيه عام ١٩٢٢، وأشاعت استخدامه مؤسسة «رونيميد ترست» اللندنية في تقرير أصدرته عام ١٩٩٧[2]. نعم، لقد نفّذ بعض الأصوليين المسلمين هجمات إرهابية، وما زال

---

(١) فرانك لامبرت، الحروب البربرية، المقطع المقتبس كاملاً هو: «الجهاد والبندقية وحدها: لا مفاوضات، لا مؤتمرات ولا حوارات». مقطع مقتبس من كتاب عنوانه: مستقبل الإسلام للمؤلف جون إسبوسيتو، (نيويورك: مطبعة صحيفة جامعة أكسفورد، ٢٠١٠)، ٦٨.

(٢) جوسلين سيزاري، «معاداة الإسلام في الغرب»، للناشرين جون إسبوزيتو وابراهيم كالين، نهاية الإسلاموفوبيا، (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠١١)، ٢١. الإسلاموفوبيا: تحدٍّ لنا جميعًا (لندن: رنيميد ترست، ١٩٩٧).

بعض المتطرفين الذين استوحوا رؤاهم من «الخلافة العالمية» مستمرين في تدبير هجمات جديدة ضد من يتخيلون أنهم أعداء لهم، وما انفكت بعض الجماعات مثل حركة طالبان في أفغانستان تطبق نسخًا متعصّبةً من الدين متوسلةً العنف. غير أن الذين يعانون رهاب الإسلام يخلطون بين هذه الجماعات الصغيرة وبين عامة المسلمين، ويرون «الجهاد الإرهابي» تحت كل وسادة إسلامية، وتراهم يتصبّبون عرقًا لمجرد رؤيتهم مئذنة أو إمام مسجد.

«الإسلاموفوبيا» مصطلح غير دقيق. معظم الذين يعانون رهاب العناكب يتجنبونها، لا يعلنون الحرب عليها. وما نراه اليوم في وسائل الإعلام، وفي تظاهرات اليمين المتطرّف خارج المساجد، وفي التشريعات الأوروبية الجديدة، يتخطّى حدود الخوف من الإسلام، ويمتد إلى الغضب بل حتى الكراهية. قد يكون الإسلاموفوبيون، ببساطة، راغبين في الابتعاد عن المسلمين وتجنّبهم، غير أن لمنظمي حملات الكراهية أجندة مختلفة وأكثر صليبيةً.

يحاول بعض الإسلاموفوبيين تعديل فهمهم للمصطلح. «أنا إسلاموفوبي، أو من الأفضل القول ضد-إسلاموي، » كتب الروائي مارتن إيميس «لأن الفوبيا أو الرهاب خوف لاعقلاني، في حين أن الخوف من شخص يقول إنه يريد قتلك ليس لا عقلانيا»[1]. لكن، كما يجادل هذا الكتاب، كثير من المشاعر التي تستهدف «الإسلاموية» على وجه التحديد تقصد في نهاية المطاف الإسلام كله. إيميس أقرّ في مقابلة أجريت معه أن عداءه لا يقتصر على المتطرفين، حيث قال في عام ٢٠٠٦: «يجب أن يعاني المجتمع الإسلامي كله إلى أن يرتب بيته الداخلي، وعلينا أن نمنع المسلمين من السفر، وأن نرحّل مزيدًا منهم مستقبلاً، وأن نحدّ من حرياتهم، وأن نخضع الناس الذين توحي هيئاتهم أنهم من الشرق الأوسط أو باكستان إلى تفتيش دقيق، يصل إلى حد تعريتهم من ثيابهم»[2].

---

(١) مارتين إيميس، الطائرة الثانية (نيويورك: نوف، ٢٠٠٨)، x.

(٢) لارا كلارك وطاهرة يعقوب، «مارتن أميس يشن هجومًا شديدًا على الدين الإسلامي قائلاً إن الدول الإسلامية أقل تطورًا»، الديلي مِل، ١٨ أكتوبر/ تشرين الأول، ٢٠٠٦.

http://www.dailymail.co.uk/news/article-488239/Martin-Amis-launches-fresh-attack-Muslim-faith-saying-Islamic-statesevolved. html.

يبدو أن إيميس نسي حقيقة أن جمهور المسلمين ندد بالإرهاب بقوة مرارًا وتكرارًا. وفي الوقت عينه، يبدو إلقاء اللوم على مجتمع بأسره جراء أعمال تقوم بها أقلية ضئيلة جدًا سلوكاً يتسم بانعدام الضمير. تخيّل الاحتجاجات الصارخة لوأن إيميس أدلى بالتصريح ذاته عن الإيرلنديين عقب تفجير نفذه الجيش الجمهوري الإيرلندي.

ثمة كتّاب آخرون لا يحاولون حتى إخفاء الوجه الحقيقي لهجماتهم. في كتابها **الإله الذي يكره**، تحدثت الطبيبة النفسية سورية المولد وفاء سلطان عن «شرور الإسلام»، وزعمت أنه «ليس دينًا» بل «مذهب سياسي فرض نفسه بالقوة»[1]. وفي كتابها **مشكلة الإسلام**، تنتقد الصحافية إرشاد مانجي ما أسمته «العقلية الصحراوية» للإسلام، وترجّع صدى الحرب الباردة بتوصيف نفسها على أنها «مسلمة رافضة» أو منشقة[2]. أما الأميركية مصرية الأصل نوني درويش، التي تحولت عن الإسلام واعتنقت المسيحية، فتعتبر الإسلام في كتابها **يسمونني كافرة الآن** «هجومًا على الحضارة ذاتها من قبل كارهي الحضارة»[3].

ليست هذه مقالات غير رسمية تنشر في مواقع شخصية عبر الإنترنت، بل لهذه الكتب الثلاثة ناشرون يسايرون التيار السائد، ومؤلفات تحظى باهتمام إعلامي واسع. إن من تستخدم هؤلاء المسلمات، ومن كُنَّ مسلمات، بوصفهن متحدثات رسميات باسمها هي شبكة جيدة التمويل، تضم ناشطين، وصحافيين، ومفكرين يعملون في مؤسسات أبحاث، حولوا جميعًا الإسلاموفوبيا إلى حرفة وإلى صناعة مزدهرة عبر الأطلسي.

هذه المشاعر المعادية للإسلام، التي تتحداه في الصميم والمركز ولا تقتصر على استهداف أطرافه الراديكالية، هي نتاج قلق ثقافي عميق قائم في الغرب. إن عدونا الجيو-سياسي الرئيس، الاتحاد السوفياتي، تفكك في

---

(١) وفاء سلطان، الإله الذي يكره (نيويورك: إس تي مارترتنز، ٢٠٠٩)، ٢٤٠.

(٢) إرشاد مانجي، المشكلة مع الإسلام (نيويورك: إس تي مارتنز، ٢٠٠٣).

(٣) نوني درويش، الآن يعدونني كافرة (نيويورك: بنغوين، ٢٠٠٦)، ١٩٧.

تسعينيات القرن العشرين؛ ومنافسنا الجيو-اقتصادي الأكبر، الصين، يتحمل القسم الأكبر أيضًا من ديون الولايات المتحدة. القوة المتبقية التي يمكن تحويلها إلى عدو، إذن، لابد وأن تكون قوة تحمل تهديدا جيو- ثقافياً يتحدى «أسلوب حياتنا». وكما يبيّن الدكتور محمود مامداني، الأستاذ في جامعة كولومبيا، «لم يعد الأمر يتعلق بالسوق (الرأسمالية)، ولا بالدولة (الديمقراطية)، بل بالثقافة (الحداثة) التي يقال إنها الحد الفاصل بين من يؤيدون أسلوب الحياة المدني السلمي، وبين من يميلون إلى الإرهاب»[1]. بتعبير آخر، وفقًا للرؤية الإسلاموفوبية العالمية، في حين يشكل تنظيم القاعدة تهديدًا عسكريًا، وجماعة الإخوان المسلمين تهديدًا سياسيًا، فإن الإسلام بمجمله يشكل للغرب تهديدًا ثقافيًا في جوهره.

وليست «ثقافتهم» الإسلامية ببساطة وحدها المخطئة والملومة؛ إذ يستهدف الإسلاموفوبيون أيضا «التعددية الثقافية» الغربية، التي يعتقدون أنها أتاحت للإسلام الراديكالي التسرب خلسة عبر الباب الخلفي لـ«النسبية الأخلاقية» كي ينهش الحضارة الغربية من الداخل. المتطرفون المسلمون سلعة نادرة في الغرب، لذلك يستنفد الإسلاموفوبيون سمهم، أو قدراً أكبر منه، في استهداف «المدافعين عن الليبرالية» ممن فتحوا، قصدا أو عن غير قصد، الباب الخلفي للأعداء المسلمين[2]. في الحالة الأكثر تطرّفًا في شهر يوليو/ تموز عام ٢٠١١، لم يستهدف اليميني المتطرّف أندرس بيرنغ بريفيك المهاجرين المسلمين في النرويج، الذين شجبهم بإسهاب في سورات غضب عارمة من قبل، بل استهدف حزب العمال في بلده، لتشجيعه التعددية الثقافية والهجرة. لقد أصبحت الإسلاموفوبيا جزءاً من الحرب الثقافية الدائرة بين اليمين واليسار

(١) محمود مدني، مسلم صالح، مسلم طالح (نيويورك: بانيثون، 2004)، 18.

(٢) بول بيرمان، على سبيل المثال، يكرس كثيرًا من كتابه هجرة المثقفين لشن هجوم على إيان بوروما وتيموثي غارتن -آش، كلاهما ليبرالي، اللذين قاربا قضية الإسلام السياسي مقاربات أكثر دقةً. بول بيرمان، هجرة المثقفين (بروكلين، ملفيل هاوس، ٢٠١٠).

في الغرب، تمامًا كما تنظيم القاعدة وحركة حماس ومحمود أحمدي نجاد الإيراني جزء من صراع ثقافي دائر داخل الإسلام.

لماذا هذا الكتاب؟

لم يُصمَم هذا الكتاب لعرض الإسلام على القراء أو ليحاجج دفاعًا عن مزاياه بوصفه دينًا[1]، فأنا شخصيًا لست متدينًا. بعض الحركات والشخصيات الدينية أنتجت في الواقع كثيرًا من الأمور المثيرة للإعجاب (غاندي والنضال من أجل الاستقلال في الهند، ومارتن لوثر كينغ والجهود التي بذلها على صعيد الحقوق المدنية، وعبد الغفار خان وحركته التي تنبذ العنف بين أبناء الباشتون)[2]. إلا أن الحركات والشخصيات الدينية أدت أيضًا إلى حروب إيديولوجية عنيفة ولا هوادة فيها. يبدو أن جميع المعتقدات الدينية تنتج متطرفين، وكل الأديان ذهبت في مرحلة من المراحل إلى التطرف. ليس العنف متأصلاً في الإسلام، أو أبديًا، أو أمرًا يتفرد به أكثر مما هي عليه الحال في العرف الديني اليهو-مسيحي الذي يصر أحيانًا على أنه كذلك. والإسلام الدين لا يعدو كونه جزءًا صغيرًا مما يجري في عالم المسلمين، كما يذكرنا إدوارد سعيد، حيث إن هذا العالم «يتضمن عشرات البلدان، والمجتمعات، والتقاليد، واللغات، وبطبيعة الحال، عددًا لا حصر له من التجارب المختلفة»[3].

في نهاية المطاف، الهجمات التي تستهدف الإسلام كبيرة في تحديها للحضارة- الإنسانية- كِبَرَ التهديد الذي يسببه المتطرفون الذين يرفعون راية الإسلام. وهذا التحدي موجه إلينا جميعًا، مسلمين وغير مسلمين، مؤمنين وغير

---

(١) لمقدمات ممتازة عن الإسلام، أوصي بالاطلاع على كتاب جون إسبوزيتو مستقبل الإسلام (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠١٠) وكتاب رضا أصلان لا إله إلا الله (نيويورك: راندوم هاوس، ٢٠٠٥).

(٢) للاطلاع على قصة عبد الغفار خان، انظر أميتاب بال «الإسلام» يعني السلام (نيويورك: بريغر، ٢٠١١).

(٣) إدوارد سعيد، تغطية الإسلام (نيويورك: فينتج، ١٩٩٧)، xvi.

مؤمنين. من هم ليسوا مسلمين يطالبون المسلمين بالتنديد بأحداث ١١/٩ وبغيرها من الأعمال الإرهابية فرادى وجماعات. وقد ندد كثير من المسلمين بها مرارًا وتكرارًا[1]، وبالمقابل يتعين على غير المسلمين أن يندفعوا الآن للتنديد بالإسلاموفوبيا[2].

تبقى القاعدة حقيقة قائمة، بطبيعة الحال، وكذا رغبتها في إلحاق الأذى لا بالغرب فقط، بل بأي شخص لا يتفق مع إيديولوجيتها المتطرّفة، أي بمعظم مسلمي العالم. ونحن إذا ما ندنا بالإسلاموفوبيا، نكون قد وقفنا جنبًا إلى جنب مع الغالبية الساحقة من مسلمي العالم ضد تعصّب القاعدة، ومعاداتها للسامية، وتطلعاتها الإمبريالية. القاعدة والإسلاموفوبيون سواء في اعتناقهم إيديولوجيات رجعية في سبيلها إلى الزوال في النهاية. لكن في وسع كلا نظامي المعتقدات التسبب بضرر كبير أثناء توهجهما واحتراقهما خارج التاريخ.

يروي هذا الكتاب قصة مختلفة عن العلاقة بين الإسلام وبقية العالم، ويركّز على الولايات المتحدة وأوروبا حيث تستعر الحرب الصليبية الثانية بضراوة (مع أن بوسع كتاب مماثل أن يقتفي أثر هذه الموضوعات في جنوب آسيا، وإفريقيا، والشرق الأقصى). على أية حال، ليس الكتاب مجرد توصيف، بل دعوة إلى البحث عن طريقة جديدة لمشاركة نابضة بحياة تدب الروح فيها في احترام أصيل بدلاً من التسامح الباهت. والحرب، والانقسام، والعزلة هي تكتيكات الحملة الصليبية الثانية. ولا يمكننا أن نجابه إيديولوجية القاعدة مجابهة فاعلة باعتماد تكتيكات القاعدة. ولا يفي بالغرض تبني قيم ومثل عليا «منفصلة إلا أنها متساوية (مع قيم الآخرين)». علينا أن نخطب ود الإسلام

---

(١) قائمة قصيرة بتصريحات المسلمين مناوئة للإرهاب. يمكن الاطلاع عليها هنا:
http://www.unc.edu/~kurzman/terror.htm.

(٢) نيكولاس كريستوف جديد بالذكر في هذا المقام، وذلك بسبب رسالته المفتوحة للمسلمين: «أنا آسف»، نيويورك تايمز، ١٨ سبتمبر/ أيلول ٢٠١٠.

ومعاهدته ومشاركته مشاركة تخلف وراء ظهرها الحملة الصليبية، والحرب الباردة، والحرب على الإرهاب.

ونمر الآن في منعطف حاسم، بعد سياسات الاستقطاب التي شهدها العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. ويمكن للولايات المتحدة وأوروبا أن تعيدا، على نحو جوهري، تعريف علاقتهما مع العالم الإسلامي. وهذا لا يتطلب فقط إنهاء «الحرب على الإرهاب»، ولا يقتصر على مجرد وأد حرب باردة جديدة على الإسلام في مهدها، بل يقتضي ذلك إنهاء حقبة من الزمن امتدت ألف عام طغت فيها الحروب الصليبية على الخيال الغربي.

وما زلنا عند عتبة بداية الحملة الصليبية الثانية، وقد تمخّض عنها حتى الآن تأثيرات مدمرة تمثّلت في أرواح أزهقت وفي فرص تاريخية أهدرت. إلا أننا لسنا محكومين بقدر مشؤوم يحملنا على إعادة التاريخ. وفي وسعنا الكف عن انتهاج سياسات الاحتلال التي نتجت عنها نكسة بالغة الشدة. يمكننا أيضًا أن نضرب صفحًا عن التقليد «اليهو-مسيحي» الأسطوري الذي يستبعد الإسلام عامدًا متعمدًا. كما نستطيع أن نضع حدًّا للتقسيم المصطنع المتمثّل بـ«نحن» و«هم» عبر إدخال تركيا في الاتحاد الأوروبي، وعبر التأكيد مجددًا على أن أوروبا هي موطن للمسلمين كما هي موطن لغيرهم.

الإسلاموفوبيا ليست غرضًا أبديًّا أصبح على نحو ما جزءًا ثابتًا من مورث الإنسانية الاجتماعي، فقد تعاظمت مشاعر الإسلاموفوبيا، وتضاءلت على مر الزمن تبعًا لمشاريع سياسية شديدة الخصوصية. وعبر تحويل مسارنا السياسي الراهن وفقًا للطرق الثلاث التي سأناقشها في خاتمة هذا الكتاب، ستتمكن من إسدال الستار على الحملة الصليبية الثانية، ولسوف يكون في وسعنا التأكيد على أنه لن يكون ثمة مزيد من الحروب الصليبية في المستقبل.

الفصل الأول

أساطير الحرب الصليبية الأولى

كان المسلمون متعطشين للدماء وغدّارين. لقد دبروا هجومًا خفيًا ضد جيش شارلمان، وذبحوا كل الجنود الذين بلغ عدِدهم عشرين ألفًا. وقبل أكثر من ألف عام، في شعب جبلي من شعاب جبال إسبانيا العصور الوسطى، قتلت قبائل البدو الرحل المسلمين خيرة الجنود الخاضعين لإمرة الإمبراطور الروماني المقدس، ومنهم ابن أخيه الشجاع رولاند. ثم بعد ذلك (والخبر على ذمة القصيدة الشهيرة التي خلّدت المأساة) انتقم شارلمان ملحقًا بجيش المسلمين كله هزيمةً نكراء.

وأغنية رولاند (قصيدة غنائية تصف معركة جرت في القرن الثامن) قصيدة عن الحضارة الغربية، تحظى بانتشار واسع وتثير إعجابًا متواصلاً في صفوف الكليات على امتداد البلاد. إنها «تحفة درامية ملحمية»، بحسب تعبير مترجمها الشهير دوروثي سيرز، وهي توفر مقدمة ميسّرة للطلاب قبل أن يخوضوا في قراءاتهم الخاصة بالحروب الصليبية[1]. إلا أن القصيدة علّمت أيضًا أجيالاً من اليهو-مسيحيين ودرّبتهم وروّضتهم على النظر إلى المسلمين بوصفهم أعداء غدّارين، هددوا ذات يوم أسس الحضارة الغربية ذاتها.

---

(١) أغنية رولاند (نيويورك: بنغوين، ١٩٨٣)، ٨.

وتكمن المشكلة في أن هذه الملحمة كلها بنيت على باطل مغرق في الغرابة، فالجيش الذي انقضّ على رولاند وجنوده من الفرنجة لم يكن جيش المسلمين على الإطلاق. وفي المعركة الحقيقية التي جرت عام ٧٧٨، كان قتلة الفرنجة هم من الباسك المسيحيين الغاضبين من شارلمان لنهبه مدينتهم بامبلونا. ولم تكن ملحمة على الإطلاق؛ إذ إن المعركة انبثقت عن نزاع محدود متسم بضيق أفق التفكير في خضم الحروب المعقّدة لإسبانيا العصور الوسطى[1]. وكان الفرنجة في الواقع يحاربون جيوش المسلمين في إيبيريا، بيد أنها لم تكن حربًا مقدّسة، وكان شارلمان يبقي على علاقات جيدة نوعًا ما مع نظيره في بغداد[2]. لقد شطبت أغنية رولاند جنود الباسك من سجل التاريخ ودمجت السياسات المعقّدة، وذهبت بعيدًا في تبسيطها[3]. وفي وقت لاحق في القرن الحادي عشر، فيما كان الملوك والباباوات والفرسان والفلاحون جميعًا على استعداد لخوض معركة ضمن الحملة الصليبية الأولى، أجرى شاعر مجهول تعديلاً نهائيًا على النص تلبيةً لاحتياجات حرب الصليب الناشئة «المقدّسة» ضد الهلال.

وفي الوقت الراهن، غالبًا ما تصور الحروب الصليبية كما كانت تصور في نسختها القديمة الأولى بوصفها «صدام حضارات» بين أتباع يسوع المسيح وأتباع محمد. وفي المخيلة الشعبية، ثمة صورة لحشود من المسلمين العازمين

---

(١) بعد مرور ثلاثمائة سنة، مازال الشؤون السياسية في إيبيريا معقدة للغاية. يوجد شخصية تمثيلية مرموقة في هذا المضمار صاحبها هو إل سيد، أحد نبلاء القرن الحادي عشر الإسبان وبطل ملحمة شعرية ألفت في القرن الثاني عشر. قاد إل سيد جيوشًا إسلامية وأخرى مسيحية في آن معًا، وشكل في ظل حكم ألفونسو السادس قوة مشتركة استخدمها لتكوين إمارة خاصة به ضمن النطاق المغاربي الإسلامي في فالنسيا.

(٢) «حتى إن مؤرخين افترضوا أنه لو قدر للإمبراطورية الكارولنجية أن تستمر زمنًا أطول، لكان من المحتمل أن تكون الثقافتان المسيحية والإسلامية بحال أفضل». توماز ماستناك، السلام الصليبي (بيركلي، كاليفورنيا: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٢)، ٦٧-٦٨.

(٣) للوقوف على استكشاف متعمق لمعركة رونسيفو، انظر اختيار الرب لديفيد ليفرينغ لويس، بوتقة الله (نيويورك: نورتون، ٢٠٠٨)، ٢٤٥ إف إف.

على ابتلاع القدس وضواحيها، مقبّلات تسبق ابتلاع الطبق الرئيس المتمثّل بأوروبا، وقد حلت هذه الصورة محل الخصوم شديدي التنوع للصليبانيين. ويشمل هؤلاء الخصوم يهودًا قتلوا في مذابح منظمة ارتكبت في الطريق إلى القدس، ومسيحيين كاثوليك مناوئين ذبحوا في مناطق البلقان وفي القسطنطينية، ومسيحيين هراطقة طوردوا وتعرضوا لأصناف الاضطهاد وضروب التعذيب جنوبي فرنسا. وفي فلسطين العصور الوسطى، شن الصليبيون أيضًا حربًا على مسيحيي المنطقة ويهودها الذين غالبًا ما كانوا يؤازرون مواطنيهم المسلمين. كما إن محاولة شارلمان الاستيلاء على مقاطعات إيبيرية مغاربية (مسلمة) من الأندلس، كانت أكثر من خصام بسيط بين المسيحيين من جهة والمسلمين من جهة أخرى. كذلك كانت الحملة الصليبية محاولة حقيقية جادة من قبل بيزنطة غايتها إحداث تحولات في التحالفات السياسية والدينية.

لقد حولت الأطراف المتحاربة -على مر التاريخ- الصراعات المعقدة والتي غالبًا ما كانت متناقضة إلى نزاعات مانوية (نسبة إلى ماني الفارسي الذي دعا إلى الإيمان بعقيدة ثنوية)؛ لتحفيز الجنود، وحمل الداعمين الماليين على فتح باب التبرع والإنفاق على مصراعيه، وتعظيم حالة التعطش للدماء وإكسابها شرفًا رفيعًا. لا يوجد شاعر في العصور الوسطى أوشك على الشعور بشيء ما يسري في دمه فيدفعه إلى نظم قصيدة في هجوم شنه الباسك. ولم يكن ثمة صليبي كان عازمًا على بيع ممتلكاته من أجل شراء درع وحصان، للقيام ببساطة بمذبحة تستهدف اليهود القاطنين في قرية مجاورة. ولم يكن الكونغرس في الولايات المتحدة ليأذن بشن هجوم ضد صدام حسين عام ٢٠٠٣ لمجرد أنه كان شخصًا بغيضًا منفرًا. وفي الحالات الثلاث جميعها، التهديد الذي يشكله الإسلام «الضاري» الافتراضي في الأندلس والقدس وفي بغداد، أثار التحالف المتخيل مع تنظيم القاعدة الصراع وأمن له دفعًا.

واستمرت حال مماثلة، فيما أرى، في عهد أوباما مع تحويل «الإسلام» إلى كاريكاتور عنيف. يبدو أننا جمدنا في معركة القرن الحادي عشر الأبدية

الناشبة بين «نحن» ضد «هم». وفي الواقع، يبدو أننا مازلنا نخوض حروب الألفية الثلاث الكبيرة. وعلى الرغم من أن اثنين من هذه الصراعات قد وليا منذ عهد بعيد، فيما تقلص الثالث خطابيًا إلى «عمليات طوارئ في الخارج»، فالحروب الصليبية التي اضمحلت تدريجيًا ثم تلاشت أخيرًا في القرن الرابع عشر، ما انفكت تشكل مخيلتنا العالمية في الوقت الراهن. لقد انتهت الحرب الباردة عام ١٩٩١، بيد أن العناصر الرئيسة المكوّنة للعقيدة المناهضة للشيوعية أسقطت على الخصم الإسلامي الجديد على نحو خطير. والحرب العالمية على الإرهاب، التي أعاد الرئيس أوباما تسميتها بهدوء بعد توليه مهام منصبه بوقت قصير، انبثت في الواقع في الحروب التي واظبت إدارته على شنها في أفغانستان، وباكستان، واليمن، وفي أماكن أخرى.

وما دامت حروبنا غير المنتهية تستعر في الوعي الجمعي (وهي ما تزال محتدمة في كابول، وصنعاء، والمناطق القبلية في باكستان)؛ سيظل الإسلاموفوبيا يمارس تأثيره الذي نستشعره عبر وسائل الإعلام، وفي السياسات، وفي حياتنا اليومية. لقد حرضت المجموعة الأولى من الحروب الصليبية مجموعة من الأوروبيين، لا شك في همجيتهم، ضد حضارة إسلامية أكثر تقدمًا وتطورًا منهم، وحالت دون تطوير علاقات متبادلة أكثر مسالمة. أما الحملة الصليبية الثانية، فتهدد بإحداث تصدع على القدر ذاته من الخطورة، ولسوف يستمر في حصد مزيد من الأرواح، وإهدار مزيد من الثروات، وتشويه فهمنا الحقيقي لذواتنا الغربية.

الأساطير الدائمة للحروب الصليبية:

ثمة جذور عميقة للرهاب بأنواعه، فخوف الذين يعانون رهاب العناكب منها غالبًا ما ينبع من أحداث جرت في مرحلة الطفولة، وتستعاد من الذاكرة على نحو باهت، يلفها الغموض ويشوبها الإبهام، مثل عنكبوت يزحف إلى سرير طفل أو يتدلى فوق وعاء يحتوي رائب اللبن ومصله. إن خوفنا غير

العقلاني من الإسلام على هذه الشاكلة، ويبدو أنه ناشئ عن أحداث وقعت في فجر تكوين الحضارة الغربية. ثمة خرافات عدة دائمة موروثة من حقبة الحروب الصليبية، تشكل جوهر الإسلاموفوبيا في العصر الحاضر: فالعنف متأصل في المسلمين، والمسلمون يريدون السيطرة على العالم، والمسلمون لا يمكن الوثوق بهم. رعى هذه الخرافات وغذاها بعض أبرز الشخصيات في الموروث التقليدي الغربي. وماركوبولو الذي كان يكيل المديح لكل شيء رآه تقريبًا في أسفاره في القرن الثالث عشر، التي يمم فيها شطر الشرق، وكان بين من مدحهم وأثنى عليهم قوبلاي خان، عديم الرحمة ومتحجر القلب. وقد ادخر بولو الكلمات القاسية لـ«الطائفة الملعونة من العرب المسلمين المغاربة وحدها، فأتباعها منغمسون في ارتكاب كل الجرائم ويجيزون لأنفسهم قتل الذين يختلفون عنهم في الدين والإيمان»[1].

فولتير الشخصية البارزة في عصر التنوير، كتب مسرحية خماسية الفصول عام ١٧٣٦، جعل عنوانها التعصّب، أو محمد النبي. وحتى عالم الاجتماع الألماني الرصين ماكس فيبر عدَّ الإسلام «دينًا محاربًا»[2]. هذه أساطير راسخة وشديدة التمترس في واقع الأمر.

ولا يقتضي الأمر وجود عالم نفسي لإدراك أن الخصائص المسندة إلى «المسلم الشيطاني» تنسحب بدقة على الذين يعزونها إليه. وعند مستوى معين من اللاوعي، ينسحب الظن السيّئ على ذواتهم التقية الورعة. وعلى الرغم من كل شيء، كان عنف الصليبيين أسطوريًّا. ولم يكن البابا وجحافله يخجلون بسبب رغبتهم في نشر المسيحية وصولاً إلى كل ركن من أركان المعمورة. وميل الصليبيين للنكث في عهودهم خلّف

(١) ماركو بولو بيتر هاريس كولن ثوربون ووليام مارسدن، وتوماس رايت. رحلات ماركو بولو الفينيسي (نيويورك: ألفريد إيه. نوف، ٢٠٠٨)، ١٣٠.

(٢) ماكس فيبر، الاقتصاد والمجتمع: ملخص علم الاجتماع التفسيري، المجلد الثاني (بيركلي، مطابع جامعة كاليفورنيا، ١٩٧٨)، ٥٧٤.

انطباعًا عميقًا في العالم الإسلامي. وهذه الظاهرة تنعكس في مرآة العصر وتنسحب عليه؛ إذ إن الصليبيين في عصرنا الحديث ينشرون عنفًا فظيعًا في الحروب التي يخوضونها في أفغانستان والعراق، وقد روّجوا لحملات عالمية أطلقوها باسم الديمقراطية، أو الليبرالية، أو المسيحية، وكذبوا على الجماهير، على سبيل المثال، في ما يتعلق ببرنامج صدام حسين النووي واتصالاته مع تنظيم القاعدة.

إن تحليل هذه الأساطير الصليبية لا يقتصر على كونه ممارسة ترمي إلى استجلاء الحقائق التاريخية. لا، بل هو خطوة حاسمة على صعيد تحرير الغرب تدريجيًا من أوهامه الراهنة. وكما تلح جميع برامج التعافي بإصرار، لا يمكن المضي في العلاج قدمًا دونما إقرار بالإدمان، ولطالما أدمنا إدمانًا خطيرًا اجترار هذه الخرافات عن الإسلام والمسلمين.

خرافات الحملة الصليبية:

لنبدأ من خرافة العنف المتأصل في الإسلام. تصوير الإسلام على أنه «دين السيف» كان محورًا وعنصرًا رئيسًا من عناصر أدب العصور الوسطى وفنها[1]. وفقًا لرواية البابا أوربان الثاني الدموية والبغيضة جدًا، جاء في الموعظة التي تلاها على أتباعه عام ١٠٩٥ من أجل الشروع في الحملة الصليبية الأولى: «إن المفسدين في الأرض المقدسة ارتكبوا أهوالاً لا توصف، عندما يرغبون في تعذيب الناس بقتلهم بأسلوب دنيء، يثقبون مواضع السُرَّة من أجسادهم ويقطعون أطراف أمعائهم ويربطونها بسناد، ثم يسوقون الضحية بجلده بالسياط فيدور إلى أن تخرج أحشاؤه من جسده، ويخر الضحية صريعًا مسطحًا على

(١) وفي وقت سابق وصف مؤرخ القرن التاسع المسيحي أولوجيوس محمدًا بالدجال، ووصف أتباعه بالمطبوعين على العنف. جون تولان، المسلمون المشارقة (نيويورك: مطابع جامعة كولومبيا، ٢٠٠٢)، ٩٤.

الأرض»[1]. لم يتغير الأمر كثيرًا مع نهاية الحروب الصليبية، على الرغم من أن اللغة كانت إلى حد ما أكثر حذرًا. فقد جاء على لسان الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني في القرن الرابع عشر الآتي: «بينوا لي فقط ما الذي جاء به محمد وكان جديدًا، ولن تقفوا عنده إلا على أمور شريرة وغير إنسانية، مثال على ذلك أمره بنشر الدين بحد السيف»[2].

لقد كان شائعًا في العصور الوسطى- كما هو شائع في الوقت الراهن- تعريف القرآن بوصفه إلهامًا للميول العنيفة هذه. وفي آية غالبًا ما تقتبس ويستشهد بها، على سبيل المثال، يدعو القرآن المؤمنين إلى قتل «المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد»[3] بطبيعة الحال، «المشركون» في «آية السيف» هذه يقصد بهم عبدة «الأوثان»، وهم العدو الرئيس لمحمد وأتباعه في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع، لا «أهل الكتاب» وهي التسمية التي كانت تطلق على المسيحيين واليهود[4]. وما يستشهد به على نحو أقل هو ما تبقى من الآية الكريمة، وفيها يوصى بالتعايش مع أولئك الذين تابوا وأقاموا الصلاة، وفقًا لتقليدهم، وهي تؤكد أهمية الالتزام بالمعاهدات «فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم.»[5]

---

(١) روبرت الراهب في دانة سي. مونرو، «المناطق الحضرية والصليبيون»، ترجمات وإعادة طباعة لمصادر أصلية من التاريخ الأوروبي، المجلد. ١ : ٠٢ (فيلادلفيا: جامعة بنسلفانيا، ١٨٩٥)، ٨-٥.
http://www. fordham.edu/halsall/source/urban25-vers.html.

لا يوجد نسخ أصلية من الخطاب الشديد الذي ألقاه البابا أوربان الثاني، لذا يجب أن نعتمد على عدد من النسخ التي جمعها شهود عيان معاصرون.

(٢) هذا الكلام مقتبس من كارين آرمسترونغ، «لا نستطيع عرض هذه الإجحافات المغرقة في القدم بحق الإسلام مشفوعةً بإيراد الدليل»، الغارديان، ١٨ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٦.
http://www.guardian.co.uk/commentisfree/2006/sep/18/religion. catholicism

(٣) القرآن (نيويورك: بنغوين، ١٩٨١)، ٣٢١ (التوبة ٩:٥).

(٤) في الممارسة العملية، تمكن الإسلام شيئًا فشيئًا من التكيف مع المشتركين، وكان هذا جليًا من خلال الإمبراطورية المغولية في الهند، حيث ازدهرت العلاقات الإسلامية الهندوسية في ظل حكم أكبر.

(٥) القرآن، ٣٦١ (البقرة ٢:٢٥٦).

و«آية السيف» تحض على العنف، إلا أن آيات أخرى توازنها وتعرّف الإسلام بوضوح على أنه دين السلام الذي يحرم قتل الأبرياء[1]. ووفقًا للمؤرخة عائشة جالا، تحريم الاحتراب والنهي عنه أكثر ورودًا في القرآن الكريم بكثير من الحض على القتال المسلح. ويلاحظ في هذا الصدد خالد أبو الفضل، المتخصص في الشريعة الإسلامية، أن كل إشارة إلى الحرب في النص «مقيدة بشرط أخلاقي محدد يكبح جماحها»[2]. قد تعكس هذه الرسائل المختلطة أيضًا فلسفات مختلفة تتبناها وتعتقد بها مجموعات مختلفة من المؤمنين في آن معًا[3].

وليس القرآن شديد الاختلاف عن غيره من النصوص الدينية؛ فالكتاب اليهودي المقدس يحتوي، كما القرآن، مقاطع مكتوبة بلغة شعرية بديعة. إلا أنه يتضمن مقاطع لا تقتصر على العنف، بل تدعو صراحة إلى الإبادة الجماعية. على سبيل المثال، يأمر يهوه (رب العبرانيين) شاوول بصب «اللعنة» على العمالقة، وذلك بقتل رجالهم، ونسائهم، وأطفالهم، ودوابهم وماشيتهم. واستشاط غضبًا عندما نَجّى شاوول ملك العمالقة وقليلاً من الحيوانات[4]. ومملكة إسرائيل اليهودية بسطت نفوذها وعززت قوتها عبر الحروب والغزوات، لكن بمنأى عن أولئك الذين يضمرون آراء مناهضة لليهود، فإننا نادرًا ما نسمع حديثًا عن

(١) وسع القانون الإسلامي في النهاية دائرة هذه المحرمات [من قتل للنساء والأطفال والرهبان والأحبار والمسنين وغيرهم من غير المقاتلين]. وقد شمل هذا التحريم تحريم تعذيب أسرى الحرب، وتشويه القتلى والاغتصاب والتحرش الجنسي، أو أي نوع من العنف الجنسي أثناء القتال، وقتل الدبلوماسيين والتدمير المتعمد للممتلكات، وهدم المؤسسات الدينية أو المنشآت الطبية، وكما لاحظ حلمي زواتي، فإن جميع هذه القواعد والأنظمة أدرجت ضمن القوانين الدولية الحديثة للحرب.

(٢) عائشة جلال، أنصار الله (كامبريدج، ماساتشوستس: مطابع جامعة هارفارد، ٢٠٠٨)، ٧، خالد أبو الفضل وآخرون، مكانة التسامح في الإسلام (بوسطن: بيكون، ٢٠٠٢)، ١٠٢.

(٣) انظر النقاش في ماليز روثفن، «ولادة الإسلام: رأي مختلف»، مراجعة كتب نيويورك، ٧ أبريل/ نيسان ٢٠١١، ٨٢.

(٤) كتاب القدس المقدس (نيويورك: دبلداي، ١٩٦٨)، ٣١٠-١١ (١ صموئيل ١٥).

اليهودية بوصفها دين سيف، أو عن دمج بين أفاعيل شنيعة يرتكبها قلة من الناس (على سبيل المثال، الإرهابي باروخ غولدشتاين الذي قتل تسعة وعشرين مسلمًا في مذبحة الخليل عام ١٩٩٤)، وبين دين شعب بأكمله.

إذا كان لكل من القرآن والكتاب المقدس اليهودي آياته المروعة، فماذا بشأن العهد الجديد عند المسيحيين؟ عمومًا، رسالة يسوع المسيح في الإنجيل هي رسالة سلام، رسالة تدعو من يُضرَب على خده الأيمن لأن يدير لضاربه خده الأيسر. إلا أن اللهجة تحولت تحولاً كبيرًا في آخر كتاب من العهد الجديد. فوفقًا لكتاب أسفار الرؤيا، «في أولى معارك الخاتمة، ثمة حصان أبيض على صهوته محارب عظيم، يهبط من السماء، ويخرج من فمه «سيفٌ ماضٍ يضرب به الكفرة»[1]. خلافًا للوصف التاريخي لمآثر شاوول في الكتاب المقدس اليهودي، لا يمكن نبذ هذا المقطع بوصفه ينتمي إلى العنف القائم في زمانه. ويشرح كتاب أسفار الرؤيا العنف المحتوم الذي سوف يغرق عالم المستقبل في الدم، وهو تقليد مروع حفز على إراقة دماء كثيرة.

وقامت الحملة الصليبية الأولى، على سبيل المثال، في زمن انتشرت فيه الأوبئة، وتفشت فيه نذر الشؤم التي عززت الاعتقاد الذي كان سائدًا في العصور الوسطى، المفضي إلى أنه بعد موت يسوع بألف عام أضحت نهاية العالم وشيكة، وأن حملة ضد المسيح الدجال يمكن أن تساعد في وصول العالم الأثيم المفعم بالشر إلى ذروته[2]. لقد أريقت الدماء «الرؤيوية» مع باكورة الحملة الصليبية الأولى. وبعد نجاحهم في انتزاع مدينة أنطاكية من الحكام المسلمين مباشرة، أي بعد مضي ثلاث سنوات من دعوة البابا أوربان الثاني لشن الحرب، توجه الصليبيون إلى القدس حيث يوجد موقع قيامة يسوع المقدس. وهناك ارتكبوا عملاً وحشيًا فظيعًا ومروعًا بحق السكان أسفر عن مقتل ٤٠٠٠٠ من المقيمين

(١) كتاب القدس المقدس، ٣٣٦ (أسفار رؤيا ١١:١٩).
(٢) ستيفن رونسمان، الحملة الصليبية الأولى (نيويورك: مطابع جامعة كامبريدج، ٢٠٠٥)، ٤٨-٤٩.

فيها[1]. وجاء في ما كتبه المؤرخ كريستوفر تيرمان تحت عنوان حرب الرب: «أجبر كثير من السكان المسلمين الذين بقوا في قيد الحياة على إخلاء الشوارع من الجثث، وحملها إلى خارج الأسوار لتحرق في محارق ضخمة، حيث كان حملة الجثث أنفسهم يذبحون»[2]. وقد كابد يهود القدس مصيرًا مماثلاً عندما اجتمعوا في المعبد اليهودي الرئيس. فقد سد الصليبيون كل المخارج بمتاريس، وجمعوا كل ما استطاعوا العثور عليه من أكوام الخشب وجعلوا منها طوقًا أحاط بالمبنى، هذا وفقًا لما دونه العالم بالتاريخ أمين معلوف. ثم(وتبقى الرواية لمعلوف): «أضرمت النار في المعبد. أما أولئك الذين تدبروا أمرهم وتمكنوا من الهروب ذبحوا في الأزقة المجاورة، وأحرق الباقون أحياء»[3].

وبالنسبة للصليبيين، قتل العرب المشرقيين(هذه التسمية كانت تطلق على كل المسلمين، وبعض ممن ليس لهم دين سماوي) كان واجبًا دينيًا على وجه التخصيص، وهو طريق تفضي إلى الجنة[4]. كان الصليبيون حجيجًا مسلحين يتلقى الفرسان منهم وأتباعهم الغفران عن ذنوبهم(وكان كثير منهم غارقين في الخطايا مثل السرقة وجرائم القتل)[5]، لقاء قيامهم بحملة عسكرية عنيفة أجازها البابا. وكان العنف والخلاص مرتبطين ارتباطًا وثيقًا في العقلية الصليبانية، وفق نمط لم يكن تصوره ممكنًا لدى العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

---

(١) كارين أرمسترونغ، الحرب المقدسة (نيويورك: دوبلداي، ١٩٩٢)، ١٧٩. أجري بحث أكاديمي لاحقًا شكك في هذه الأرقام بوصفها شديدة الارتفاع، إلا أن مؤرخين معاصرين وصفوا عملاً وحشيًا له تأثير بالغ على كل الجانبين.

(٢) كريستوفر تيرمان، حرب الرب (كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة الجامعة هارفارد، ٢٠٠٦)، ١٥٨.

(٣) أمين معلوف، الحروب الصليبية في نظر العرب (نيويورك: كتب شوكن، ١٩٨٥)، ٢٤.

(٤) كارين أرمسترونغ، الحرب المقدسة، ٦٥.

(٥) وفقًا لفولشر أوف تشارترز، ألمع البابا أوربان الثاني إلى سجلات متناثرة لصليبيين عديدين عندما أدلى في مجلس كليرمونت بقوله: «ليغدو أولئك الذين كانوا على مدى حقبة طويلة من الزمن لصوصًا الآن فرسانًا. وليصبح أولئك الذين كانوا يقاتلون إخوانهم وأقرباءهم مقاتلين بطريقة ملائمة ضد البرابرة». هذا الكلام مقتبس من كتاب بعنوان عالم بلا إسلام للكاتب غراهام فولر (نيويورك: ليتل، براون، ٢٠١٠)، ٩٨.

ولم تكن الأعمال الوحشية المسيحية مقتصرة على الخصوم المسلمين، فقد ارتكب الصليبيون مذابح كبرى ضد اليهود في أوروبا في طريقهم إلى أرضهم المقدسة في الشرق الأوسط. وجاء في ما كتبته العالمة باللاهوت كارين آرمسترونغ: «يبدو بصراحة أنه من غير المنطقي بالنسبة لمعظم الصليبيين أن يقطعوا آلاف الأميال ليحاربوا مسلمين في الشرق الأوسط، لا يعرفون عنهم إلا أقل القليل، في وقت كان فيه قتلة المسيح الفعليون(أو هكذا كانوا يعتقدون) أحياء يرزقون يعيشون بينهم»[1]. والأموال التي جمعت ابتزازًا أو سرقت من يهود أوروبيين أمنت عونًا إضافيًا لتغطية النفقات الخاصة بالشرق الأوسط.

كما قتل الصليبيون مسيحيين، قتلوا كثيرًا منهم، ولم يكن ذلك مجرد ضرر ملازم للعمليات التي كانت تجري، حيث إن كثيرًا من الصليبيين استهدفوا الخصم المسيحي الكبير الذي انشق رسميًا عن روما عام ١٠٥٤في بيزنطة استهدافًا مباشرًا. وأثناء الحملة الصليبية الثانية، قاد الصليبي رينو ثورة ضد المسيحيين الأرثوذكس في جزيرة قبرص عام ١١٥٦، وكان ما قام به مأثرة وعملاً بطوليًا ألقى بظلاله لاحقًا على الحملة الصليبية الثالثة، عندما عاد ريتشارد قلب الأسد إلى الجزيرة في عام ١١٩١ لينزل بها خرابًا أشد وأقسى. لكن ربما أكثر الأعمال الصليبية الوحشية الشائنة والمورثة للعار وسوء السمعة هي تلك التي استهدفت القسطنطينية، عاصمة بيزنطة، في عام ١٢٠٣. وقد كتب كولن ويلز عن هذا الموضوع تحت عنوان **الإبحار من بيزنطة** الآتي: «على مدى ثلاثة أيام بلياليها، ارتكب الصليبيون جرائم القتل والسلب والنهب، أو دمروا كل الناس والأشياء التي تمكنوا من الوصول إليها. لقي أناس لا سبيل لإحصائهم حتفهم، تقدر أعدادهم بالآلاف؛ وعومل أناس آخرون كثيرون بوحشية، وشوهوا وبترت أطرافهم، وتركوا بلا مأوى. وفي كنيسة أيا صوفيا العظيمة، عمد السلابون النهابون إلى تجريد الجدران من معلقاتها المشغولة من الحرير، وحطموا الأيقونات، ومزقوا المفروشات الفضية والذهبية، ثم أحضروا بغالاً إلى داخل

---

(١) المرجع نفسه، ٧٢-٧٣.

الكنيسة لتحميل الغنائم، فانزلق بعض البغال وسقطت أرضًا، وفقدت القدرة على الوقوف مجددًا على الأرض الرخامية التي جعلها الدم زلقة»[1].

ولم يكن أتباع المذهب الأرثوذكسي المسيحيين الوحيدين الذين أُعملت السيوف في رقابهم أثناء الحروب الصليبية، فأثناء الحملة الصليبية الرابعة، وقبل غزوهم الوحشي للقسطنطينية، اشتهر الصليبيون باستباحتهم لمدينة زارا الكاثوليكية (حيث تقع كرواتيا حاليًا) سلبًا ونهبًا. وبعد سنوات قليلة فقط في عام ١٢٠٩، أعلن البابا إنوسنت الثالث شن الحملة الصليبية الرسمية الأولى ضد مسيحيين هم إخوة له في الدين، وهم الهراطقة في لانغدوك جنوب فرنسا. وفي معركة اكتسبت شهرة خاصة، حاصر الصليبيون مدينة بيزيرس معقل طائفة الهراطقة المانويين الجدد. ولدى سؤاله من قبل الصليبيين قبل شن الهجوم كيف لهم أن يميزوا بين المسيحيين المخلصين الصادقين وبين الكاذبين المضللين منهم، أجاب الممثل البابوي بقوله: «اقتلوهم [جميعًا]. ولسوف يعلم الرب كيف يفرق بينهم»[2]. شرع الصليبيون بقتل كل رجل، وامرأة، وطفل، وبلغ عدد القتلى الإجمالي عشرين ألفًا، وهو عدد مماثل لعدد العمالقة الذين قتلهم شاوول.

ولم يكن قد مضى وقت طويل بعدُ، عندما استهل العالم المسيحي العمل في أولى محاكم التفتيش لديه، واستهدف بها طائفة المانويين الجدد ذاتها، مؤلفًا بذلك بين تقليدين اثنين: الحرب ضد العدو الخارجي، والحرب ضد العدو الداخلي.

وفي وسع المرء أن يستخدم هذا الملخص الوجيز عن قسوة الصليبيين الوحشية ليدلك على أن المسيحية دين عنيف وغير متسامح على نحو استثنائي. دين ارتكب(على الرغم من التعاليم الصريحة للسيد المسيح، لكن بالتأكيد

---

(١) كولن ويلز، الإبحار إلى بيزنطة (نيويورك: راندوم هاوس، ٢٠٠٦)، ٣٣.

(٢) دانيال برازا، قسوة القرون الوسطى (إيثاكا، نيويورك: مطبعة جامعة كورنيل، ٢٠٠٣)، ٨٧-٨٨.

تمشيًا مع أسفار الرؤيا) مجموعة من الفظائع المتواصلة بحق أعدائهم الظاهرين في الداخل والخارج. إلا أن الصليبيين ادعوا-خلافًا لذلك- أن العرب المسلمين المشارقة كانوا قساة متوحشين في جوهرهم على نحو لا مثيل له، حتى على الرغم من أن المجازر الرهيبة التي ارتكبت في القدس والقسطنطينية، وجزيرة قبرص، مافتئت تشكل نقيضًا صارخًا لتاريخ الفتوحات الإسلامية في تلك الحقبة. فقبل أربعمائة سنة من إغراق الصليبيين القدس في الدماء، لم يأمر الخليفة عمر بقتل أحد عندما تولى أمر المدينة، حتى إنه -في واقع الحال- وقع معاهدة مع البطريرك المسيحي صوفرونيوس، وقد تضمنت هذه المعاهدة بندًا ينص(وفقًا لتعاليم القرآن) على أنه «لا إكراه في الدين». وفي وقت لاحق، عندما استرد القائد الإسلامي الشهير صلاح الدين القدس من الصليبيين في عام ١١٨٧، اقتدى بعمر وحذا حذوه، فلم يكتف بالسماح للبطريرك المسيحي بمغادرة المدينة مع أتباعه، بل سمح لهم، إلى ذلك، بحمل ثرواتهم معهم[١].

لقد كانت علاقة العالم الإسلامي باليهود مغايرة تمامًا لعلاقة الصليبيين بهم، فبينما عمد الصليبيون إلى ارتكاب مذابح منظمة بحق اليهود الآمنين في أوروبا، واستهدفوا السكان اليهود في الشرق الأوسط، خطب القادة المسلمون ودهم وبذلوا جهودهم لإقامة علاقات طيبة مع العالم اليهودي. ومنذ البداية، مكن المسلمون اليهود من التعبد بحرية والعيش بأمان وسلام. وفي الواقع، عندما دعا صلاح الدين اليهود إلى العودة للقدس، بعد استعادته المدينة، ألهم بذلك نوعًا من الصهيونية الباكرة حيث تدفق اليهود من جميع أنحاء العالم عائدين إلى المنطقة[٢].

وأسهم القادة والعسكر المسلمون بنصيبهم من الفظائع التي ارتكبوها، إبان العقود الأولى من الفتوحات بعد مولد الدين، وفي الحقبة المتأخرة من العصور الوسطى على حد سواء. بيد أن المسلمين أبدوا شيئًا يسيرًا من الاندفاع

(١) أمين معلوف، الحروب الصليبية في نظر العرب.

(٢) كارين أرمسترونغ، الحرب المقدسة، ٢٦٠.

على صعيد الإبادة الجماعية بحق إخوانهم الموحدين. وأعمال العنف التي ارتكبت من قبل المسلمين، أثناء المائتي سنة الأولى من الحروب الصليبية، تدرج إلى حد بعيد في خانة رد الفعل. وفي القرن الثالث عشر، عندما استولى الجنود العبيد الذين اشتهروا بالمماليك على الخلافة، والمقال في هذا المقام على عهدة العالمة بالتاريخ آرمسترونغ حيث كتبت الآتي: «أخيرًا بدا الأمر كما لو أن المسيحيين استنسخوا القسوة الوحشية القاتلة والكراهية التي أكنوها للمسلمين في قلوب المسلمين أنفسهم»[1].

وفي عام ١٢٩١، على سبيل المثال، نهب المماليك مدينة عكا بعدما استولوا عليها، وقتلوا كل من كانوا فيها، محاكين بذلك أفاعيل الصليبيين التي جرت في القدس قبل مائتي عام[2]. وعلى الرغم من أن القرآن الكريم وقف على مسافة واحدة من العهدين القديم والجديد، من حيث تعاليم كل منهما المتعلقة بالقصاص - «وجزاء سيئة سيئةٌ مثلُها، فمن عفا وأصلحَ فأجرُهُ على الله»[3]. (الآية الكريمة رقم ٤٠ من سورة الشورى) - رفعوا مسألة المبدأ الحاكم[4].

ولا تتعلق المسألة هنا بإنكار العنف لدى المسلمين أو الإصرار على أن العنف القاتل الذي لا يمكن إلغاؤه موجود في الديانة المسيحية أو اليهودية. بل أقول إن الأديان التوحيدية الثلاثة الرئيسة جميعها لديها تاريخ من العنف، كما إن لكل منها تاريخًا من التسامح. بيد أن الصليبيين قذفوا الإسلام بتهمة العنف التعصبي، لكي يبرروا هيجاناتهم «المقدّسة»، وما ذلك إلا خدعة من الخدع

(١) المرجع نفسه، ٤٥٣.

(٢) هذا ما يعيد إلى الذاكرة أيضًا ما حدث في القرن السابع عندما سيطر الفرس على أنطاكية ودمشق، وذبح اليهود آلافًا من المسيحيين في بلاد ما بين النهرين انتقامًا بسبب ٣٠٠ سنة من الاضطهاد. ديفيد ليفيرينغ لويس، اختبار الله، ٦٠.

(٣) القرآن، ١٥٧ (الشورى ٤٢:٤٠).

(٤) اشتكت أقلية في الغرب لاحقًا، عندما هزم القائد المملوكي بيبرس الغزاة المغول في معركة عين جالوت، لا صونًا للإسلام وحده، بل حفاظًا على أوروبا المسيحية أيضًا. كارين أرمسترونغ، الحرب المقدسة، ٤٤٧.

السيكولوجية لفنون القتال اليابانية القديمة، استخدمها الصليبيون في عصرنا الراهن كما استخدمها الصليبيون القدامى[١].

والنتيجة الطبيعية التي تلزم عن الخرافة التي تقول إن العنف متأصل في المسلمين، هي الخرافة التي تقول إن المسلمين برابرة والهمجية متأصلة في جوهر تكوينهم. لقد توهّم الصليبيون أنهم كانوا منخرطين في معركة ألفية ناشبة بين قوى التخلف الهمجية (الإسلام)، وقوى الحضارة (المسيحية). لكن في الواقع، واجه الصليبيون حضارة أكثر تقدمًا في العلوم، والطب، والأدب، والاقتصاد، والفلسفة. وحتى المزارعون العرب الذين برعوا في الري، وإنتاج القطن والحرير الطبيعي، وزراعة الحمضيات، تفوقوا على المزارعين الأوروبيين[٢]. وكان الإسلام في ذلك الوقت حضارةً عالميةً حقًّا، وتلاقى الإسلام مع الصين قبل ماركو بولو بعهد طويل، وأفاد من الاختراعات الصينية أيما فائدة. وكانت لدى بغداد عاصمة هارون الرشيد في القرن التاسع خدمة بريدية، ونظام صرف صحي، ومشفى يعالج الناس مجانًا، وبنوك عديدة لها فروع في بلدان بعيدة مثل الصين[٣]. وظلت باليرمو(عاصمة صقلية المسلمة) واحدة من مدن العالم الكبرى العظيمة إلى أن وضع حدًّا لازدهارها الغزاة النورمانديون السلاّبون النهّابون سنة ١٠٧٢ [٤]. ويعتز العالم الإسلامي بافتتاحه جامعات في القاهرة وفي مدينة فاس المغربية قبل قرن كامل من تمكن أوروبا من تحقيق إنجاز مماثل.

---

(١) جاك غودي، الإسلام في أوروبا (لندن: بوليتي، ٢٠٠٤).

(٢) أمين معلوف، الحروب الصليبية في عيون العرب، ٥٤.

(٣) غودي، الإسلام في أوروبا، ٢٩.

(٤) كان العالم الإسلامي متقدمًا على أوروبا في القرن الثامن بما لا يقل عن أربعة قرون، وفقًا لما كتبه المؤرخ ديفيد ليفرينغ لويس في كتابه اختبار الرب ٢٨٦. وجاء في كتابه كذلك: «يجب أن ينظر إلى انتصار «تشارلز المطرقة»بوصفه إسهامًا كبيرًا في تكوين أوروبا المتخلفة اقتصاديًّا والمبلقنة والغارقة في الاقتتال بين ذوي القربى، والتي في تحديدها لذاتها بوصفها معارضة للإسلام جعلت من الاضطهاد الديني والاصطفائية الثقافية والأرستقراطية التقليدية فضائل». ديفيد ليفيرينغ لويس، اختبار الرب، ١٧٤.

وكانت أوروبا تعيش حالة من العزلة والتخلّف، كما كانت حالها عندما أوقف تشارلز ذي هامر تقدم المسلمين في مدينة تور الفرنسية عام ٧٣٢. وكان أوروبيو العصور الوسطى لا يعرفون شيئًا تقريبًا عن الأدب اليوناني والأدب الروماني اللذين خلبا ألباب المفكرين المسلمين. وفي الواقع، يرى المسلمون أن الصليبيين كانوا وحوشًا مدرّعة، انهمكوا في كل سلوك بربري انحدارًا إلى درك أكل البشر. ويقرّ المؤرخ المسيحي رادولف أوف كين ويعترف بأنه: «في المعرة، عمدت قواتنا إلى سلق بالغين (وثنيين) في قدور الطبخ، وكانوا يدخلون أسياخًا في أجساد الأطفال، ويلتهمونهم مشويين»[1]. مستحضرًا أشنع الأعمال الوحشية الخيالية، حث البابا أوربان الثاني الصليبيين على القتال، فمضوا إلى ارتكاب فظائع مغرقة في وحشيتها، اقترفتها أيديهم. ولم يتحسن سلوك الصليبيين على مر السنين؛ فتدميرهم الإسكندرية عام ١٣٦٥، المنطوي على مفارقة تنبعث من تزامن هذا الحدث مع البدايات الباكرة لعصر النهضة في إيطاليا، كان أيضًا انتصارًا آخر للهمجية على الحضارة[2].

آخذين في حسباننا أن هذا التاريخ حقيقة مقررة، لا نرى عجبًا في وصف الفيلسوف الإسكتلندي العظيم للحروب الصليبية بأنها: «المعلم الأبرز والأكثر ديمومة، الدال على الحماقة البشرية التي ظهرت حتى الآن في أي عصر من العصور أو لدى أي أمة من الأمم»[3].

---

(١) أمين معلوف، الحروب الصليبية في نظر العرب، ٣٩.

(٢) كتب مؤرخ العصر البيزنطي العظيم ستيفن رونسيمان: لم يضارع تدمير الإسكندرية وحشيةً إلا الفظائع التي ارتكبت في القدس عام ١٠٩٩، وفي القسطنطينية عام ١٢٠٤. وكتب ستيفن عن ذلك: «كانت ثروة الإسكندرية هائلة، وجن جنون المنتصرين لدى رؤيتهم هذه المكاسب والغنائم الهائلة. ولم يستثنوا أحدًا، حيث عانى أبناء البلد المسيحيون واليهود بقدر ماعانى المسلمون على أيديهم، وحتى التجار الأوروبيون الذين كانوا مستقرين رأوا مصانعهم ومخازنهم وهي تنتهب دونما رحمة». ستيفن روسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، المجلد الثالث (كامبريدج، مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٥١)، ٤٤٦.

(٣) اقتباسًا من كريستوفر تيرمان، حرب الرب، ١٤.

هل هي خلافة عالمية؟

خرافة أن العنف متأصل في طبيعة المسلمين التي خدعت الحملات الصليبية بها الثقافة الغربية، ودستها في هيكل بنيانها، تنافسها خرافة أخرى تقول إن الإسلام عازم على تولي زمام السلطة على العالم. وفي واقع الأمر، برر الصليبيون عنفهم بجعل غايته إحباط هذا الاحتمال المروع. وفي خطبة ألقاها البابا أوربان الثاني عام ١٠٩٥ صرح فيها (على ما قيل) بالآتي: «هذا الجزء الضئيل من العالم الذي هو عالمنا يتعرض لضغط من قبل الأتراك والعرب المسلمين المولعين بالحروب: لقد سيطروا على إسبانيا وجزر الباليار طوال ثلاثمائة عام، وهم يعيشون على أمل الْتهام الباقي»[١].

وفي أيامنا الأولى، تخيلت الإمبراطورية الإسلامية في الحقيقة أن تكون دار الإسلام دائمة التوسع. وفي زمن الصليبيين، على كل حال، كان هذا الاندفاع الأولي من الحماس للتوسع قد تبدد منذ عهد بعيد. وكان العالم الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية قد بلغ مداه فعلاً، كما كانت الخلافة قد خسرت نفوذها الضئيل في إيطاليا. وعادة كان الفتح يتحقق على حساب مسلمين آخرين، كما حدث عندما استولى السلاجقة على القدس ومدن أخرى في الأراضي المقدسة، انتزاعًا من منافسيهم المسلمين. وكان العالم الإسلامي زمن الحملة الصليبية الأولى منقسمًا انقسامًا شديدًا، لدرجة أن أحدًا لم يستجب للدعوات القليلة المطالبة بالاتحاد والتضافر والثأر ممن استولى على القدس وأباحها للسلب والنهب عام ١٠٩٩ [٢]. ومع ذلك، مابرح باحثون مثل برنارد لويس يصرون على اجترار وهم مضلل يزعم أن: «كماشة المسلمين تحكم إطباقها على أوروبا» في زمن الحملات الصليبية[٣].

---

(١) اقتباسًا من كارين آرمسترونغ، الحرب المقدسة، ٢٠٧.

(٢) طارق علي، صراع الأصوليات (نيويورك: فرسو، ٢٠٠٢)، ٣٩-٤٠.

(٣) برنارد لويس، الإيمان والقوة (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠١٠)، ١٥.

وعلاوة على ذلك، أخفى الغرب المسيحي توقه الجامح لتوسيع سلطة البابا بحيث تشمل كل ركن من أركان المعمورة. لقد كان الدافع التبشيري للمسيحية من أقوى سمات صمودها واستمرارها.ودفع شارلمان باتجاه تنصير أوروبا على نحو عدواني ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وجرى تحويل اليهود القسري إلى النصرانية بعد ارتكاب الحملة الصليبية الأولى باكورة المذابح بحق الأوروبيين. وشرعت بعثات التبشير الفرنسيسكانية والدومينيكية في العمل أوائل القرن الثالث عشر لنشر الإيمان (المسيحي) في العالم الإسلامي. وفرنسيس السيزي، ذاك الرجل الذي آمن باكرًا بالقوة الناعمة، جلس مع السلطان الكامل إبان الحملة الصليبية الخامسة بهدف استئصال الإسلام عبر التنصير[1]. وعلى الرغم من أن تسامح الحكم الإسلامي في العصور الوسطى، كان يقدر أحيانًا تقديرًا مبالغًا فيه، فإن الناس من مختلف الأديان كانوا يتعايشون بانسجام نوعًا ما. وكان المسيحيون واليهود المعروفون باسم أهل الذمة، يعدون مواطنين من الدرجة الثانية، إلا أنهم كانوا على وجه العموم يمارسون شعائرهم الدينية وأعمالهم بحرية، ما داموا يؤدون الضرائب المفروضة عليهم.

وهاتان الخرافتان (العنف المتأصل، والطموحات العالمية) أدّتا إلى اقتناع راسخ بأن المسلمين كانوا بطبيعتهم غير جديرين بالثقة. روبرت كيتون، أحد مترجمي القرآن الكريم في القرن الثاني عشر، كان نموذجًا في شتم النبي محمد واتهامه بـ«الكذب والتناقض مع الذات».

وكان الصليبيون كثيرًا ما يشتكون غدر عدوهم. يقول فيدينتيوس(وهو منظر عدواني لاهوتي من القرن الثالث عشر): «كان حكام المسلمين الماكرون يخرقون الهدنة بصورة روتينية، لذلك كانت الحرب هي الرد الوحيد عليهم

(١) كريستوفر تيرمان، حرب الرب، ٦٣٨.

لا المفاوضات»[1]. وأسقط الاشتباه بالغدر وعدم الجدارة بالثقة أيضًا على كل مسيحي يتطرق إلى الحديث عن إمكانية التعايش مع الإسلام. وكان البابا غريغوري التاسع، على سبيل المثال، يعتقد أن فريدريك الثاني الصليبي في القرن الثالث عشر، كان هو نفسه المسيح الدجال؛ لأنه كان يرتبط مع المسلمين بعلاقات حميمة.

والغدر، للأسف، سمة كان الصليبيون أنفسهم أولى بها وأجدر. فعلى سبيل المثال، إبان إحدى أكثر المذابح الألمانية المشينة، تعهد أسقف ماينز بحماية يهود المدينة مقابل حصوله على فضة، إلا أنه فرّ بعد ذلك من مسرح الحدث، ما أسفر عن قتل حتى اليهود المختبئين في قصره[2]. وإبان استيلائهم على القدس واستباحتها، قتل الصليبيون مجموعة من المسلمين، وكان الصليبي الأسطوري تانكريد نفسه قد منحهم ملاذًا آمنًا في المسجد الأقصى[3]. وفي المثال الأكثر شهرة، ربما، الذي خلدته الشاشة على نحو يفتقر إلى الدقة نوعًا ما عبر فيلم «مملكة السماء»، الذي أخرجه ريدلي سكوت عام ٢٠٠٥، خرق الصليبي رينولد أوف شاتيلون هدنة صليبية كانت قد انعقدت مع صلاح الدين، وذلك بمهاجمته حجاجًا كانوا في طريقهم إلى مكة، وكان قد فعل ذلك مرتين لا مرة واحدة.

وباختصار، كانت الصورة التي أسقطتها الحروب الصليبية على المسلم مغرقة في السلبية: فقد صورته عنيفًا، ومخادعًا، ومتعطشًا للسلطة، وشهوانيًا. ولكن في الوقت ذاته، انتزع المسلمون احترامًا شحيحًا على مضض من العالم المسيحي. وكثيرًا ما حظي عرب مسلمون مشرقيون فرادى بالثناء والمديح

(١) جون تولان، المسلمون المشرقيون، ٢١١.
(٢) كريستوفر تيرمان، حرب الرب، ١٠٢.
(٣) كارين أرمسترونغ، الحرب المقدسة، ١٧٨

لروحهم القتالية[1]. وصلاح الدين، القائد الكردي الذي وحّد العالم الإسلامي واستعاد القدس دونما مذابح أو سفك دماء، برز بوصفه شخصية مرموقة محترمة، وبطلاً يتسم بالشهامة. وظهر في «الأعراف» إلى جانب عظماء: هوميروس وأفلاطون في جحيم دانتي.

وتبدد هذا الاحترام الشحيح لاحقًا مع صعود نجم الإمبراطورية العثمانية، والصور النمطية للمسلمين بقوتهم. وحل «التركي» محل «العربي المسلم» بوصفه النقيض المطلق لكل ما تمثّله أوروبا المسيحية. إن الاستيلاء على القسطنطينية عام ١٤٥٣ الذي مثّل نهاية الإمبراطورية البيزنطية، وتلاشي موطئ القدم الرسمي الذي كان للمسيحية في المشرق العربي، كان تطورًا انطوى على تحول خطير بالنسبة لأوروبا، شأنه شأن الانتصارات السلجوقية التي جرت قبل أربعمائة عام من ذلك التاريخ. ورد في ما كتبه توماس مور عن الأتراك أنهم كانوا «أعداء ألداء» للمسيحيين الأوروبيين، وعَدَّهم مارتن لوثر إلى جانب الروم الكاثوليك أعداء للمسيح[2]. وهذه المشاعر المناهضة لتركيا والمعادية للمسلمين(كما يشير الباحث توماز ماستناك) كانت مركزية بالنسبة لباكورة الاقتراحات التي أوصت بتشكيل الاتحاد الأوروبي. حتى كويكر ويليام

---

(١) التقديرات الإيجابية المماثلة هي نادرة في هذه الأيام. عندما ذكر بيل ماهر شجاعة مهاجمي الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر على سبيل الاستشهاد عبر البرنامج التلفزيوني: خاطئ سياسيًّا، ألغت محطة الـ«إيه بي سي» برنامجه التلفزيوني لكونه غير لائق سياسيًّا من كل النواحي.
قال ماهر: «كنا نحن الجبناء نطلق صواريخ كروز من على بعد ألفي ميل. هذا هو السلوك الجديربالازدراء. يبقى الطيار في الطائرة وهي تقصف الأبنية. قل ما أنت راغب في قوله عن هذا الأمر. هذا ليس سلوكًا وضيعًا». مع ذلك وكما تشير سوزان، فإن حدة أصوات الإدانة والاستنكار لماهر لا تقارن بما قاله النقاد عن سوزان سونتاج، التي نشرت ملاحظات أقل استفزازًا في مقال في صحيفة النيويورك تايمز. انظر سوزان فالودي، حلم الإرهاب (نيويورك: مكميلان، ٢٠٠٧)، ٢٨.

(٢) لم يكن لوثر في الحقيقة قادرًا على اتخاذ قرار، فقد أعلن من جهة أن الأتراك والكاثوليك هم أعداء المسيح، وهو من جهة أخرى يحاجج في أن التركي «شديد الخطورة وفي أن أساليبه الشيطانية شديدة الوضوح» إلى حد يؤهله ليكون عدوالمسيح الحقيقي. انظر بول ليفين، تركيا والاتحاد الأوروبي (نيويورك: بالغريف مكميلان، ٢٠١١)، ١٠٧.

بن الداعي للسلام والمعارض للحرب رأى في خطته التي رسمها في القرن السابع عشر من أجل التكامل الأوروبي أن ثمة فضيلة مثلى: «سوف توفر أمنًا عظيمًا للمسيحيين في مواجهة انتهاكات الأتراك واعتداءاتهم»[١].

بمجرد أن تلاشى التهديد الإقليمي للإمبراطورية العثمانية، فقدت الأداة السياسية لهذه الصور النمطية الخاصة بالمسلمين قوتها. وفيما كانت تتساقط بلاد المسلمين واحدًا فواحدًا خضوعًا للسيطرة الاستعمارية للقوى الأوروبية، بدأت هيمنة صور نمطية مختلفة: المسلمون بوصفهم متخلفين، وفاسدين، يبددون الوقت كسلاً واسترخاءً في مجالس حريمهم وفي مقاهيهم.

فيلسوف القرن التاسع عشر الفرنسي إرنست رينان، حاله حال المستشرقين الآخرين، صور المسلم على أنه «غير قادر على تعلم أي شيء أو على الانفتاح الذهني على فكرة جديدة»[٢]. مع ذلك، وعلى الرغم من تصوير المسلمين على هذه الشاكلة من التراخي والكسل والتخلف، فقد كان الباحثون والنشطاء في العالم الإسلامي في هذه الحقبة مفعمين بالنشاط، وقد تعاملوا مع هذا الواقع عبر استجابتين أساسيتين ردًّا على أفاعيل الاستعمار المؤذية: القومية العلمانية التي تجلت في التحولات التي أجراها كمال أتاتورك في تركيا، والسياسة الدينية للحركة الإسلامية التي أنتجت في نهاية المطاف منظمات مثل جماعة الإخوان المسلمين. فقط عندما أصبحت الجهات الفاعلة لدى المسلمين من جديد تمتلك من القوة ما يكفي لتحدي القوى الاستعمارية، عاودت الخرافات الصليبية القديمة ظهورها بعدما هجعت ردحًا من الزمن.

---

(١) توماز ماستناك، أوروبا والمسلمون: هل هي حملة صليبية دائمة؟لدى عمران قريشي ومايكل سيلز، الحروب الصليبية الجديدة (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ٢٠٠٣)، ٢٢٥. طبعًا، إذا تخلت تركيا عن الإسلام وتبنّت المسيحية، سوف ترحب أوروبا بانضمامها إلى الاتحاد. انظر بيرنارد لويس، الإيمان والقوة، ٣٧.

(٢) اقتباسًا من جون إسبوسيتو، التهديد الإسلامي (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٩)، ٤٤. للاطلاع على صور نمطية استشراقية أخرى، انظر إدوارد سعيد: الاستشراق (نيويورك: فينتج، ١٩٧٩).

خرافات العصر الحالي:

لم يكن التشهير بالمسلمين في أدب العصور الوسطى ببساطة عملاً من أعمال التضليل الإعلامي[1]، بل تحيزٌ خدم حاجة عميقة. لم يكن في وسع أي مسيحي أن يبرر ممارساته الإجرامية ما لم تكن مبررة على نحو ما بخطايا الآخر المختلف. وفقًا لما قاله همبرت الرومان عام ١٢٧٤: «المسلمون ملومون إلى أقصى الحدود». ويلاحظ مراقب من ذلك العهد: «أن للكنيسة الحق في إشهار السلاح، واستخدام القوة ضد الزنادقة والمتمردين، وضد المسلمين على حد سواء»[2]. إذن خطايا المسلمين كانت مبررات للتصرفات المسيحية.

وعلى نحو مماثل، الخرافات المنسوجة عن الإسلام والمتداولة حاليًا تعكس حقيقةً أعمق غورًا عن تصورات المتخوفين وبواعث قلقهم. نحن أيضًا يتعين علينا أن نبرر عنفنا فنتطلع إلى روادنا ووزرائنا تحللاً من تبعات العنف الذي نسوغه. الداعية المسيحي بات روبرتسون الذي يختلف إلى محطات التلفزة ويظهر عبر شاشاتها، أعلن عام ٢٠٠٥ أن الإسلام «يلقن العنف»[3]. كما أعلن اللواء جيري كاري (وهو ضابط متقاعد في الجيش الأميركي، خدم في إدارات كارتر، وريغان، وجورج بوش الأب) أن: «القرآن يلقن العنف، وأن المسلمين ومنهم من اصطلح على تسميتهم المسلمين الوسطيين المعتدلين

---

(١) على سبيل المثال، في أغنية رولاند، يظهر المسلمون المشرقيون بوصفهم مشركين يصلون لأبولو وللآلهة الوثنية ترماغانت. في الحقيقة، يضم جيش الخليفة أعراقًا مختلفة من البشر ومنهم سلافيون وأفارقة سود، وهم يعبدون في واقع الحال آلهة متعددين ومتنوعين. وإلى ذلك، واجهت أوروبا المسيحية أعداء وثنيين على حدودها. لذا كانت الوثنية بالنسبة لها تهديدًا بحجم الإسلام إن لم يكن أكبر منه. جوآن وهوبنر موران كروز، «مواقف شعبية حيال الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى»، الناشران ديفيد بلانكس ومايكل فراسيتو. آراء غربية في الإسلام في أوروبا العصور الوسطى وفي فجر تكوين أوروبا الحديثة (نيويورك: مطبعة سانت مارتن، ١٩٩٩)، ٥٧-٥٩.

(٢) المرجع ذاته، ٦٨.

(٣) «ادّعى بات روبرتسون أنّ الإسلام في جوهره يلقن تعاليم العنف»، ١٨يوليو/ تموز، ٢٠٠٥.
http://mediamatters.org/ mmtv/200507180003.

يؤمنون بالعنف صراحةً»[1]. أما جيري فالويل فقد دعا محمدًا بـ«الإرهابي» و«رجل الحرب»، على عكس عيسى وموسى[2].

كما إنه تردد صدى هذه التوصيفات للإسلام إبان الحروب الصليبية لدى أعلى مستوى كنسي. كذلك استهل البابا بينيديكت السادس عشر خطابه الذي ألقاه عام ٢٠٠٦ في جامعة ريجنسبرغ، بقراءة مقطع مقتبس من خطاب للإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني الذي مر ذكره آنفًا، تكلم به بحق إرث محمد واصفًا إياه بأنه «شرير ولا إنساني» ومستشهدًا بأوامره التي تقضي بنشر الدين «بحد السيف». وبعد مجابهته بموجة احتجاجات غاضبة من جميع أنحاء العالم، اعتذر البابا بينيديكت وقال إن كلماته التي قالها قد أسيء فهمها[3]. لكن لم تكن هذه المرة الأولى التي نأى فيها البابا بنفسه عن سلفه البابا يوحنا بولس الثاني على نحو صارخ الوضوح، وهو (البابا يوحنا) الذي بذل أقصى الجهود لرأب الصدع، وردم الفجوة بين المسيحيين، واليهود، والمسلمين[4]. وقد كتب الصحافي كريستوفر كلدويل في معرض استحسانه لما قاله بينيديكت الآتي: «لم يكتف بمجرد التساؤل علانيةً إذا ما كان الإسلام قادرًا على التكيف في مجتمع تعددي. لقد نزل أيضًا بالرتبة الكنسية لأحد كبار مستشاري البابا يوحنا بولس الثاني لشؤون العالم الإسلامي، وخفف دعمه لبرنامج الحوار بين الأديان الذي

---

(١) جيري كري، «الإسلام دين عنيف»، الشبكة العنكبوتية، ١١ سبتمبر/ أيلول، ٢٠١٠.
http://www.audacityofhypocrisy.com/201011/09//islam-is-a-violent-religion-by-maj-general-jerry-curry-us-army-ret/.

(٢) بعدما أحدثت التعليقات ردود فعل حادة، وأثارت أحداث شغب حول العالم، اعتذر فالويل عن تعليقاته. ماري جين مالكيه، «فالويل آسف لتطاوله على محمد»، شبكة سي.بي.إس الإخبارية، ١٤ أكتوبر/ تشرين الأول، ٢٠٠٢.
http://www.cbsnews.com/stories/200260/11/10/minutes/main525316. shtml.

(٣) البابا يعتذر عن الإساءة للإسلام»، شبكة بي بي سي نيوز، ١٦ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٦،
http://news.bbc.co.uk/2/hi/5351988.stm.

(٤) أكبر سين. أحمد، «باني جسر إلى العالم الإسلامي»، بليفنت، نيسان، ٢٠٠٥.
http://www.beliefnet.com/Faiths/Islam/200504//Bridge-Builder-To-The-Muslim-World.aspx..-

يديره الرهبان الفرنسيسكان في أسيسي[1]. في الواقع ظهر بينيديكت ظهور البابا أوربان الثاني في جيله، مروّجًا للتبشير المسيحي بين المسلمين ومعارضًا عضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي لأنها ليست بلدًا مسيحيًا.

أدام الباحثون أيضًا بقاء هذه الخرافات الأساسية. لقد أظهر عميد دراسات الشرق الأوسط برنارد لويس، عام ١٩٩٠، مقالاً أطلسيًّا يشير بأصابع الاتهام إلى الإسلام ذاته، بدلاً من الاستعمار أو أي قوة أخرى خارج نطاق الدين، بوصفه المورد الأساسي لـ«غضب المسلمين»[2]. أضحى لويس لاحقًا مسؤولاً عن عنوان كتاب صديقه صمويل هنتنغتون الأكثر مبيعًا: صراع الحضارات، وعن بعض محتواه الأكثر إثارة وتأجيجًا. جاء في كتاب هنتنغتون الذي ألفه عام ١٩٩٦: «نزعة المسلمين الحربية وولعهم بالقتال والعنف حقائق في أواخر القرن العشرين، ليس بوسع المسلمين أو غيرهم إنكارها». وتكشف الكتاب عن وجدان يفسر على نحو ملائم العقلية الصليبية للقرن الحادي عشر[3].

بدأت الحملة الصليبية الثانية بوصفها ردًّا على جرائم ١١/ ٩ المؤسفة[4]. لكن عنف الصدمة والرعب الناجم عن حملة الغرب الصليبية في العصر الحديث مختلف من حيث الحجم عن المجازر الإرهابية التي جرت في الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول عام ٢٠١١؛ فالحرب التي شنت على العراق بقيادة

---

(١) كريستوفر كالدويل، تأملات في الثورة في أوروبا (نيويورك: دوبلداي، ٢٠٠٩)، ١٨٧

(٢) برنارد لويس، «جذور الغضب الإسلامي»، أتلانتيك سبتمبر/ أيلول عام ١٩٩٠.
http://www.theatlantic.com/magazine/archive/1990/09/the-roots-of-muslim-rage/4643./

(٣) صموئيل هنتنغتون، صراع الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي (نيويورك: سايمون وشوستر، ١٩٩٦)، ٢٥٨.

(٤) ويتبع غيرها من الجرائم: هجمات ١٠/ ١٢ في بالي في عام ٢٠٠٢، والهجمات الانتحارية في كازابلانكا في ١٦/ ٥/ ٢٠٠٣، وتفجير القطار في مدريد في ٣/ ١١/ ٢٠٠٤، وتفجيرات لندن في ٧/ ٧/ ٢٠٠٥.

الولايات المتحدة نجم عنها ٢٥٠٠٠ إصابة في صفوف المدنيين في سنتيها الأولى والثانية[١]. وقد أجريت دراسة عام ٢٠٠٦ من قبل علماء أوبئة أميركيين وعراقيين قدروا أن أكثر من ٦٠٠,٠٠٠ إنسان قضوا نحبهم، ولم يكونوا ليموتوا لولا الغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣[٢]. قتل القصف الجوي لأفغانستان أكثر من ١٠٠٠ مدني عام ٢٠٠٢ فقط، ولقي آخرون يعدون ثلاثة آلاف إنسان حتفهم، كنتيجة مباشرة لتأثير الحرب[٣]. ومات آلاف أيضًا في السنوات اللاحقة، وهناك إصابات أخرى كثيرة في صفوف المدنيين من جراء حملات الولايات المتحدة في باكستان واليمن وأماكن أخرى. وفي عام ٢٠٠٩، قدر ستيفن والت الأستاذ في جامعة هارفارد -متحفظًا- أن الولايات المتحدة قتلت على مدى السنوات الثلاثين الأخيرة ٣٠٠,٠٠٠ مسلم تقريبًا مقارنة بعشرة آلاف ضحية تقريبًا، من الولايات المتحدة، قضوا نحبهم بأيدي مسلمين[٤].

عنف الحملة الصليبية الثانية، وفقًا للمدافعين عنه، إنما كان كله خدمة لأهداف نبيلة ووجيهة: لفظ حركة طالبان، والإطاحة بصدام حسين، وإرساء الديمقراطية، وضمان حق تقرير المصير. عنفـ«نا» كان مفيدًا، ووسيلة مؤسفة لغاية حميدة، تخفي دوافع أخرى في طياتها مثل تأمين الوصول إلى النفط والغاز الطبيعي. عنفـ«هم»، بالمقابل، نتاج الإثم المتأصل فيهم، ونتاج طموحاتهم

---

(١) «ملف الضحايا المدنيين في العراق ٢٠٠٣-٢٠٠٥»، تعداد القتلى في العراق، ١٩ يوليو/ تموز ٢٠٠٥.

http://www.iraqbodycount.org/analysis/reference/press-releases/12/.

(٢) ديفيد براون، «تزعم دراسة أن عدد ضحايا غزو العراق وصلت إلى ٦٦٥,٠٠٠ إنسان». الواشنطن بوست، ١١أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٦.

http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/200610/10//AR2006101001442.html.

(٣) كارل كونتا، النصر الغريب (بوسطن: بادائل مشروع الدفاع، ٢٠٠٢)،

http://www.comw.org/pda/0201strangevic.html.

(٤) ستيفن والت، «لماذا يكرهوننا: الجزء الثاني»، السياسة الخارجية، ٣٠ نوفمبر/ تشرين الثاني، ٢٠٠٩.

http://walt.foreignpolicy.com/posts/200930/11//why_they_hate_us_ii_how_many_muslims_has_the_us_killed_in_the_past_30_years

المتعلقة بالعصر الألفي السعيد. يحذر المسلم المرتد علي سينا من أن: «الهدف النهائي للإسلام هو حكم العالم»[1].

حتى مبنى بارك ٥١ شرق مانهاتن، قدم بوصفه مجرد مناورة أخرى في حوزة هذه السلطة الموغلة في القدم، المدونة اليمنية باميلا جيلر التي حولت «مسجد الغراوند زيرو» إلى هاجس إعلامي، كتبت الآتي: «هذه هيمنة ونزعة توسعية إسلامية»[2].

في العالم الإسلاموفوبي، ليس تنظيم القاعدة فقط هو من يريد أن يسيطر على العالم. وفقًا لهذا الرأي، أقامت جماعة الإخوان المسلمين ورشة عمل حول كوكب الأرض لاختراق المجتمع الغربي. والدولة السعودية أنفقت ملايين الدولارات من إيراداتها النفطية لنشر نسختها من الوهابية، وهي مذهب إسلامي ظهر في القرن الثامن عشر واشتهر بتشدده. لكن كما يتفق مراقبون معارضون سياسيًّا، مثل رضا أصلان ودانيال بايبس، هذه التصرفات لا تشكل صدامًا بين الحضارات، بل صداما داخل الحضارة، وهو أمر يتعامل معه الغرب بصفة مراقب إلى حد بعيد[3]. فالوهابيون السنة ينافسون ضد التفسيرات المزاحمة للإسلام التي تصدر، بخاصة، عن إيران الشيعية وتنظيم القاعدة المتطرفين، وعن فروع متنوعة من حركة الإخوان المسلمين. هذه هي المعركة الحقيقية بالنسبة لعقول المسلمين وقلوبهم، وليست معركتهم مرتبطة بمكافحة العصيان والتمرد التي تقود عملياتها الولايات المتحدة، وأخفقت إلى حد بعيد. ويستنتج محلل

---

(١) علي سينا، «هل الإسلام السياسي فاشي؟» فيما وراء الجهاد، كيم إيزرا شينبوم وجمال حسن وآخرون (بيثيسدا، مدريد: المطبعة الأكاديمية، ٢٠٠٦)، ١١٣.

(٢) جوستين إليوت، «كيف بدأت حملة التخويف من إنشاء جامع غراوند زيرو» سالون، ١٦أغسطس/ آب، 2010.
http://www.salon.com/news/politics/war_room/2010/08/16/ground_zero_mosque_origins

(٣) رضا أصلان، لا إله إلا الله، ٢٤٨؛ دانييل بايبس، الإسلام المتشدد يصل إلى أميركا (نيويورك: نورتون، ٢٠٠٢)، xiv؛ والي نصر، إحياء الشيعة (نيويورك: نورتون، ٢٠٠٦).

السياسة الخارجية وليام فاف من ذلك الآتي: «إن أهداف الحركة الإسلامية ترمي إلى تنقية الإسلام وممارسات المسلمين وإزالة النفوذ الغربي، لا إلى إخضاع الغرب»[1].

في ما يتعلق بمسألة النزعة التوسعية هذه، نحن من جديد بصدد إسقاط بواعث قلقنا على خصومنا، فالولايات المتحدة ترفض مصطلح الإمبراطورية؛ لأن ذلك يتناقض مع المُثُل الجمهورية للآباء المؤسسين، ومع ذلك نكافح في سبيل إدامة «لحظة القطب الواحد» التي نسود فيها العالم بوصفنا القوة العظمى الوحيدة. وقد تحدث المحافظون الجدد في إدارة بوش بحماسة شديدة في معرض ترويجهم للديمقراطية، بغية إعادة رسم خارطة الشرق الأوسط على طول خطوط جيوسياسية، مؤاتية أكثر لنفوذ الولايات المتحدة. وكان المبشرون المسيحيون أصحاب الأهداف التنصيرية أكثر صراحة من المحافظين الجدد، وهم الذين هرعوا إلى منطقة الشرق الأوسط في أعقاب القوات المسلحة الأميركية، ودعا بعضهم صراحةً إلى «فعل الخير» من قبل إدارة أميركية تلتزم بعمل الخير المرتكز إلى الدين والإيمان. وقد استهدف جيل جديد من هذه البعثات التبشيرية «النافذة ١٠/ ٤٠»، وهي الرقعة الشاسعة الواسعة من كوكب الأرض، الممتدة بين خط العرض ٤٠ المحاذي للشمال، وخط العرض ١٠ المحاذي للجنوب، وقد صادف، ويا لها من مصادفة، أن كانت هذه الرقعة موطنًا لأكبر تجمع من المسلمين[2]. وداخل المؤسسة العسكرية الأميركية أيضًا، ثمة جناح قوي يروّج لما يدعوه ميكي فاينشتاين (داقًا ناقوس الخطر) «طلبنة» الخدمات، بواسطة مجموعة «زمالة الضباط المسيحية» وزملائهم المجندين من ذوي الرتب الصغيرة، مستجيبين لدعوة نائب وكيل وزارة الدفاع لشؤون الاستخبارات، وليام

(١) ويليام فاف، «تصنيع زعزعة الاستقرار»، الشؤون الخارجية، نوفمبر/ تشرين الثاني- ديسمبر/ كانون الأول ٢٠١٠، ١٣٦.

(٢) انظر إليزا غريسوولد، النظير العاشر (نيويورك: فارار، شتراوس، جيرو، ٢٠١٠) ٩٠-٩١.

بويكين؛ تلك الدعوة الشائنة من أجل تشكيل «محاربي ملكوت الرب»[1]. أما ما هو أكثر فظاظة وفجاجة، فيتمثّل ببرامج الأسطوانات الإذاعية التي تتعامل مع شؤون الجبهة الداخلية، وتستخدم لغة عامية رديئة. يلاحظ على سبيل المثال، مقدم البرامج الإذاعية اليميني المتطرّف مايكل سافاج أن «هؤلاء الناس (العرب والمسلمين) يجب تنصيرهم (تحويلهم إلى الديانة المسيحية) قسرًا، وهذا هو الأمر الوحيد الذي يحتمل أن يحولهم إلى بشر»[2].

أحيا الإسلاموفوبيون فكرة أن الرياء والنفاق متأصلان في طبيعة المسلمين، ومن الممكن أن يوحوا ظاهريًا أنهم مشاركون ومعنيون في الحوار بين الأديان، بينما هم يتآمرون سرًا سعيًا وراء سيطرتهم على العالم[3]. إذا ما أخذنا في الحسبان التفسيرات المختلفة لمصطلح «الحركة الإسلامية»، نجد أن

(١) ديفيد بلدين، «جنود مسيحيون خلفيون»، هيومانيست، يناير/ كانون الثاني - فبراير/ شباط ٢٠٠٨.
http://newhumanist.org.uk/1681/backward-christian-
بويكين اقتباسًا من بيترغوتشولك وغابرييل غرينبرغ، إسلاموفوبيا (لانهتم، رومان وليتلفيلد، ٢٠٠٨)، ١٣.

(٢) اقتباسًا من جون إسبوسيتو، مستقبل الإسلام (أكسفورد، ٢٠١٠)، ٢٠. أو كما قالت آن كاولتر: «يجب علينا أن نغزو دولهم وأن نقتل قادتهم وأن ننصرهم». آن كاولتر، «هذه هي الحرب»، ناشيونال يفيو، ١٣ سبتمبر/ أيلول، ٢٠٠١.
http://old.nationalreview.com/coulter/ coulter.shtml.

(٣) خذ في الحسبان أيضًا مفهوم التقية، كتب برنارد لويس عن التقية الآتي: «مصطلح التقية (وهو يعني الاحتراس أو الحيطة) يكرس مفهومًا إسلاميًا عن التَّحِلّة، وهي فكرة تقول: في حالة الاضطرار أو في حال الشعور بخطر يتهدد المؤمن، يحل للمرء أن يتحلل من تنفيذ أحكام دينية معينة. برنارد لويس، الحشاشون (نيويورك: باسيك، ٢٠٠٢)، ٢٥. تلقف كارهو الإسلام هذا المفهوم وشرعوا في استخدامه، وحسبما تؤكد وفاء سلطان: «يخفي المسلم مشاعره الحقيقية ومعتقداته التي يعتز بها عندما يشعر أن لغير المسلمين من حوله اليد العليا، وفي الوقت ذاته يعمل سرًا لتحقيق هدفه العظيم المتمثل في الانقضاض عليهم عندما يغدو الوقت مؤاتيًا». وفاء سلطان، الإله الذي يكره، ٢٤٢. غير أن مفهوم التقية يعني أمرًا مختلفًا كل الاختلاف في التقليد الإسلامي. فالقرآن يذكر أنه: في وسع المؤمنين، إن تعرضوا هم أو من يحبون إلى خطر محدق، أن يخفوا دينهم وإيمانهم. ففي إسبانيا القرن السادس عشر، كانت التقية هي الوسيلة الوحيدة التي تمكن الإنسان من البقاء في قيد الحياة عندما خير الملك المسلمين بين التحول إلى النصرانية أو الطرد خارج البلاد أو الموت.

هذا المصطلح ينطبق (وفقًا لما يراه المحلل غراهام فولر) على أي شخص «يعتقد بأن الإسلام بوصفه هيئة دينية، في جعبته رؤية مهمة للطريقة التي ينبغي أن تتنظم فيها السياسة والمجتمع في العالم الإسلامي المعاصر، وعلى أي شخص يسعى إلى تنفيذ هذه الفكرة، وفق طريقة معينة»[1]. لقد شكل الإسلاميون من مختلف الاتجاهات السياسية أحزابًا بغية التنافس عبر الانتخابات في جميع أنحاء العالم. بيد أن الطريقة التي استخدم فيها الإسلاموفوبيون مصطلح «الحركة الإسلامية»، جعلته يتضمّن في ثناياه كل القوالب والصور النمطية الموروثة من «أدبيات» الحروب الصليبية. فعلى سبيل المثال، يحاجج السياسي الجزائري سعيد سعدي في أن «الإسلامي المعتدل هو شخص لا يمتلك الوسائل التي تمكنه من التصرف بلا رحمة في سبيل الاستيلاء الفوري على السلطة»[2]. فالإسلامي حسب رأيه هو شخص عنيف، ومراءٍ، ومتعطش للسلطة. لقد برع في إجمال الكليشيهات المبتذلة في سبع عشرة كلمة.

وفي الوقت عينه، يفترض الإسلاموفوبيون في الولايات المتحدة أن جميع المسلمين مذنبون في أعقاب أحداث ٩/ ١١، إذ إن الأمر لا يقتصر (وفق ما يرون) على أنهم منافقون، بل هم خونة أيضًا. وهنا أقتبس شيئًا مما كتبه الروائي إدوارد كلاين في هذا الصدد: «يجب أن يواجه المسلمون الأميركيون خيرًا يتمثّل في إما/ أو. فإما أن يتنصلوا من الإسلام، أو أن يلزموا الصمت، وتنزل العقوبات في الطابور الخامس منهم»[3]. وحتى المسلمون الأميركيون الذين يشغلون مناصب رسمية رفيعة، مثل عضو الكونغرس كيث إليسون، لم يكونوا فوق الشبهات، ففي مقابلة أجرتها محطة «السي إن إن» الأميركية مع عضو الحزب الديمقراطي الأميركي عن ولاية مينيسوتا، غلين بيك، قال بيك مخاطبًا إليسون: «هذه المقابلة

---

(١) اقتباسًا من دانييل فاريسكو، «تلفيق الأسلمة»، عند ريتشارد مارتين وعباس بارزيجار، الأسلمة (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، ٢٠١٠)، ٣٧.

(٢) اقتباسًا من دانييل بايبس، الإسلام المتشدد يصل إلى أميركا، ٤٦.

(٣) إدوارد كلاين «الفاشيون بين ظهرانينا»، مركز تقدم الرأسمالية، ١٥ أغسطس/ آب ٢٠٠٦.
http://www.capitalismcenter.org/Philosophy/Commentary/0606-15-08/.htm.

معك تثير أعصابي؛ لأنني أشعر برغبة في أن أقول لك: يا سيدي، أثبت لي أنك لا تعمل لحساب أعدائنا»[1]. بعبارة أخرى، يقع العبء على عواتق المسلمين ليثبتوا أنهم من «الصالحين» لا «الطالحين». لقد حزم كثير من الأميركيين أمرهم واتخذوا قرارهم، إذ أعرب ثلث الأميركيين المستطلعة آراؤهم في استطلاع للرأي أجري عام ٢٠١١ عن اعتقادهم أن المسلمين الأميركيين «غير مؤيدين» للولايات المتحدة، وأنهم «شديدو التطرّف» في معتقداتهم[2].

ولنشر هذه الخرافات، عمد الإسلاموفوبيون إلى إحياء تقاليد أخرى من عصر الحروب الصليبية. كان شائعًا في العصور الوسطى، على سبيل المثال، كتابة سير ذاتية سفيهة وبذيئة لحياة النبي محمد[3]. وقد حدّث روبرت سبنسر، مؤسس موقع «جهاد واتش»، هذا التقليد في كتابه **حقيقة محمد: مؤسس أكثر الأديان تعصّبا في العالم**، حيث يكرر الخرافات المألوفة حول التعصّب، تماماً كما يفعل شخص معاد لليهود بتكرار الخرافات الشهيرة في الكتاب المزيف بروتوكولات حكماء صهيون[4]. هناك أيضا تقليد التجديف وسب الإسلام عمداً لاستثارة ردود أفعال عنيفة، كما فعل «شهداء قرطبة» في القرن التاسع بتحقير النبي محمد في أماكن عامة كالمساجد أثناء أداء الصلوات[5]. وفي عصرنا الراهن، يقتفي إحراق نسخ من القرآن الكريم أثر هذا الاستفزاز المتعمّد، ولكن هذه المرة تحت ستار حرية التعبير.

---

(١) «ما الذي ينبغي عمله مع إيران؟ أول عضو مسلم في الكونغرس يتكلم جهارًا نهارًا»، سي إن إن، ١٤ نوفمبر/ تشرين الثاني، ٢٠٠٦.

http://transcripts.cnn.com/TRANSCRIPTS/061114//gb.01.html.

(٢) فرانك نيوبورت، «الجمهوريون والديمقراطيون يختلفون في الرأي حيال جلسات استماع إسلامية»، غالوب، ٩ مارس/ أذار ٢٠١١.

http://www.gallup.com/poll/146540/
Republicans-Democrats-Disagree-Muslim-Hearings.aspx.

(٣) انظر، على سبيل المثال، نورمان دانييل، **الإسلام والغرب** (أكسفورد: منشورات عالم واحد١٩٩٣)، ١٠٠ إف إف.

(٤) روبرت سبنسر، **حقيقة محمد** (واشنطن العاصمة: ريجنسي، ٢٠٠٦).

(٥) دانييل، الإسلام والغرب، ١٦.

لقد ازدهرت خرافات الإسلاموفوبيا المتعلقة بالعنف المتأصل، والغدر، وطموحات الإسلام الكونية في عصرنا، تمامًا كما ازدهرت قبل ألف عام تقريبًا. وقد عمدت هذه الخرافات، في معرض خلطها الماكر بين نوع معين من الراديكالية الإسلامية مع الإسلام ذاته، إلى استخدام لغة وتخيلات تخدم إسلاموفوبيا اليوم. ووفقًا لهذه الدينامية، يسوغ الغرب أعماله الوحشية عبر التأكيد على النوايا العدوانية والإجرام المتأصل في الخصم الافتراضي.

بيد أن المشاعر الراهنة المعادية للإسلام ليست ببساطة منسوجة على المنوال البالي للحملات الصليبية الغابرة، فالزخم السياسي للحملة الصليبية الراهنة يتأتى من صراع مثنوي أحدث عهدًا.

الفصل الثاني

الإسلام: الشيوعية الجديدة

ابتدعت في عام ١٩٥١ وكالة المخابرات المركزية الأميركية، والنخبة المناهضة للشيوعية الناشئة، ومنها من كان سيغدو عما قريب رئيسًا، دوايت أيزنهاور، شعار: الحملة الصليبية من أجل الحرية، بوصفها مكونًا رئيسًا من مكونات حملة الحرب النفسية المتنامية المناوئة للاتحاد السوفياتي ولأوروبا الشرقية الخاضعة له، والتي كانت تدور في فلكه. وكانت لغة هذه «الحملة الصليبية» دينية عن سابق تصوّر وتصميم. وقد صمّمت هذه اللغة من أجل إشعار الشعوب المتجذّرة في تراث الحضارة الغربية بالاهتمام، تلك الشعوب التي كانت ما تزال ترزح تحت «وطأة النفوذ الساحق الماحق للديكتاتورية الملحدة»[1]. وأرجعت دعوة هذه الحملة إلى تحرير العالم الشيوعي صدى أسلوب الخطابة البلاغية الصليبية الغابرة، التي انقضى على استخدامها زهاء ألف عام، والتي كانت تحضّ على استرداد القدس ومراكز دينية مسيحية أخرى، واقعة في «قبضة العدو». وكانت الحربان كلتاهما حربين ترميان إلى نشر الحضارة والمدنية.

في تنظير أميركا اللاهوتي الذي كان قائمًا إبّان الحرب الباردة، حلّ الاتحاد السوفياتي محل العالم الإسلامي بوصفه مناوئًا للمسيحية، ومصدر تهديد لها. وقد حولت الخرافات الغابرة التي نسجت إبّان الحملة الصليبية الأولى عن

(١) بلانش فايزن كوك، أيزنهاور وقد رفعت عنه السرية (نيويورك: دبلداي، ١٩٨١)، ١٣١-٣٢.

الإسلام (عمدًا أو اتفاقًا) بسهولة ملحوظة إلى افتراضات هيمنت وطغت على العدو الشيوعي: السوفيات وحلفاؤهم كانوا عازمين على السيطرة على العالم، ولا يمكن الوثوق بخطابهم الداعي إلى التعايش السلمي، ومن ثم يعدون مصدر تهديد للحضارة الغربية، ويعرّضونها للخطر. وهم مع ذلك قاتلوا بوحشية فريدة في نوعها(لننعم النظر في «الجحافل» الصينية إبّان الحرب الكورية)، وكانوا على استعداد للتضحية بأنفسهم في سبيل تحقيق مصلحة إيديولوجية أسمى وأعظم.

ربط بعض المحللين ربطًا جليًا بيّنًا بين الشيوعية والإسلام، فقد حاجج عالم الاجتماع الفرنسي جول مونرو في أربعينيات القرن العشرين، في أن الشيوعية هي الإسلام الجديد؛ فكلاهما كان دينًا، وكل منهما شمولي في طبيعته، بمعنى أنهما يتطلعان إلى إخضاع الفرد إلى السيطرة الاستبدادية الكاملة. يقول جول: «لدى كل منهما خطة مفصّلة للنظام الاجتماعي»، وهما يعتنقان «المساواة نظريًا، وغالبًا ما تمسي هذه المساواة قمعًا في الممارسة العملية»[1]. وفي خمسينيات القرن العشرين، قدّم برنارد لويس تقويمًا مشابهًا، حيث كان يرى أن الإسلام والشيوعية كليهما «يعتنقان عقيدة شمولية، تتضمّن إجابات نهائية وكاملة عن كل الأسئلة والمسائل في السماء وفي الأرض». كان هذا ما ورد في مقال مؤثر كتبه، وجاء فيه أيضًا: «إن إجابات كل منهما تختلف عن إجابات الآخر في كل النقاط والأوجه، بيد أنهما يتفقان في الغايات واكتمالها، وفي التباين الصارخ مع الإنسان الغربي الذي يجعلانه في موضع ارتياب أبدي»[2]. حتى الإيديولوجية الماركسية بنسختها الغربية تحشر الشيوعية مع المسلمين في خانة واحدة، من حيث ازدراؤهم جميعًا للنزعة الفردانية.

كانت المجادلات الأكاديمية في واد، فيما كان الواقع الجيوسياسي في واد آخر؛ إذ كانت حكومة الولايات المتحدة ذات التوجه البراغماتي في الحقيقة

(١) كريستوفر كالدويل، تأملات عن الثورة في أوروبا، ٢٨١.

(٢) برنارد لويس، «الشيوعية والإسلام»، والترلاكير، الشرق الأوسط في مرحلة انتقالية (فريبورت، نيويورك: مطبعة كتب للمكتبات، ١٩٧١)، ٣٢٠.

تنظر إلى الإسلام بوصفه حليفًا في مجابهة الشيوعية الملحدة، إبّان حقبة الحرب الباردة. ففي عام ١٩٥٧، أُنشئت هيئة بإيعاز من أيزنهاور، خلصت إلى أن «للإسلام والمسيحية قاعدة روحية مشتركة، انطلاقًا من الاعتقاد في أن ثمة قوة إلهية تحكم الحياة الإنسانية وتطلعاتها وتوجهها، بينما الشيوعية هي مادية إلحادية بحتة»[1]. في الواقع، انبثقت بلدان ذات أغلبيات مسلمة (مثل إيران، والمملكة العربية السعودية، ومصر، وتركيا، وباكستان) بوصفها بلدانًا رئيسة في تحالفها مع الولايات المتحدة ضد الشيوعية. حتى قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها، التقى الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت سرًّا مع الملك عبد العزيز آل سعود؛ لإبرام اتفاق يضمن للولايات المتحدة الوصول إلى نفط المملكة العربية السعودية، والحصول عليه لقاء وعد أميركي باحترام سيادة بلد الملك الجديد[2]. كما تعهدت واشنطن العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة بينها وبين تركيا بالعناية والرعاية، وضمّتها إلى حلف «الناتو» في عام ١٩٥٢، وعملت بعد ذلك على ربط إيران، والعراق، وباكستان، وتركيا مع منظمة المعاهدة المركزية للحيلولة دون التوسع السوفياتي في الشرق الأوسط.

لم يكن هذا كافيًا، إذ كانت تستبد بواشنطن هواجس عميقة، وتستحوذ عليها حيال حملتها الصليبية الجديدة المناوئة للشيوعية، استنادًا إلى نظرية عدو عدوي صديقي، إلى الحد الذي جعلها تتعهد الإسلام «الراديكالي» بالرعاية بوصفه سلاحًا إضافيًا إبّان الحرب الباردة. ووفقًا للتفاصيل التي سردها الصحافي روبرت درايفوس باقتدار في كتابه **لعبة الشيطان**، لم يكن تمويل الولايات المتحدة للمجاهدين في أفغانستان عقب غزوها من قبل الاتحاد السوفياتي عام ١٩٧٩، سوى الجزء الذي كان صيته أكثر انذياعًا من الحملة الصليبية المناهضة

---

(١) ريتشارد بوليت، **قضية الحضارة الإسلامية - المسيحية** (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ٢٠٠٤)، ١٠٠.

(٢) ستيفن كينزر، **إعادة تقويم** (نيويورك: كتب التايمز، ٢٠١٠)، ١٤٥-١٥٠. في هذه النقطة، كانت الولايات المتحدة مجرد مشايعة للبريطانيين تتبع خطاهم وتحذو حذوهم، في دعم السعوديين في نضالهم ضد الإمبراطورية العثمانية.

للشيوعية في العالم الإسلامي[1]. ولتقويض مساعي اليساريين والقوميين العرب الذين كان يحتمل اصطفافهم إلى جانب الاتحاد السوفياتي، عمدت الولايات المتحدة إلى العمل مع الملالي الإيرانيين، وسهلت عملية انتشار جماعة الإخوان المسلمين. ففي عام ١٩٦٢ على سبيل المثال، استخدمت الولايات المتحدة جماعة الإخوان المسلمين للإطاحة بنظام الحكم الذي كان قائمًا في اليمن آنذاك، وكان مواليًا لجمال عبد الناصر[2]. وحتى جهود المملكة العربية السعودية التي كانت ترمي إلى نشر الدين الإسلامي لاقت عطفًا واستحسانًا في واشنطن. وقد كتب الصحافي روبرت درايفوس اقتباسًا من مسؤول في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية: «كان ينظر إلى الجهود السعودية الرامية إلى أسلمة المنطقة بوصفها جهودًا قوية ومجدية ومرشحة للنجاح، وقد راق لنا ذلك. كيف لا وقد أضحى لنا حليف مناهض للشيوعية؟»[3].

ثمة حدثان وقعا عام ١٩٧٩ حوّلا حالة الغزل بين الولايات المتحدة والمتطرفين السنة (الذين يستوحون نهجهم من الوهابية السعودية) إلى علاقة وثيقة قائمة على مصلحة مشتركة. ففي إيران، ركب آية الله الخميني موجة التطرّف الشيعي بغية الإطاحة بشاه إيران المدعوم من قبل الولايات المتحدة، ثم غزا الاتحاد السوفياتي في نهاية العام ذاته أفغانستان. وسعيًا من الولايات المتحدة لخلق توازن مع إيران الشيعية، ومن أجل هزيمة الروس، بدأت تمرر أسلحة للمجاهدين على نطاق ضيق، وكان أولئك المجاهدون خليطًا من المقاتلين المسلمين الأجانب ومن السكان الأصليين. وقد ذهبت واشنطن أبعد من ذلك إلى حد إحضار بعض هؤلاء المقاتلين لتدريبهم مع أصحاب القبعات الخضر، والقوات الجوية والبرية والبحرية التابعة للقوات البحرية الأميركية،

---

(١) روبرت درايفوس، لعبة الشيطان (نيويورك: متروبوليتان، ٢٠٠٥).
(٢) غراهام فولر، عالم بلا إسلام، ٢٦٣.
(٣) درايفوس، لعبة الشيطان، ١٢٥.

في منشآت في الولايات المتحدة[1]. وعندما انهار الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٩١، لم تعد حكومة الولايات المتحدة بحاجة إلى المجاهدين، وانفرط العقد الذي كان قائمًا بين الطرفين على أساس المصلحة المشتركة، وأضحت كلمة الجهاد من جديد سيئة، فيما كان أسامة بن لادن وعصبته من المجاهدين السابقين يحولون اهتمامهم تدريجيًّا نحو هدفهم اللاحق المتمثّل بقوة عظمى.

على الرغم من أن الحرب الباردة وضعت أوزارها في أوروبا في عام ١٩٩١، إلا أن كثيرًا من مفاهيمها بقي على قيد الحياة، مع أن مصطلحاتها انقلبت فجأةً رأسًا على عقب. فبينما كانت الشيوعية تشبه الإسلام الذي كان ذات يوم قويًّا، في تحليل مونيروت في أربعينيات القرن العشرين، فجأة بدأ الإسلام يشبه الشيوعية التي كانت ذات يوم قوية. وفيما كان المحللون يتحدثون ذات يوم عن تقارب بين الشيوعية والفاشية، أضحوا الآن يتكلمون عن تقارب بين الإسلام والفاشية. وبينما كان صنّاع السياسة يسعون جاهدين من أجل التعاون ورصّ الصفوف مع الإسلاميين ضد الشيوعية، باتوا الآن يتحالفون مع حلفاء غير مرغوب فيهم لمحاربة حلفائهم الإسلاميين السابقين. وبعد خمسين عامًا من عَزْوِ العنف، والنفاق، والطموحات الاستعمارية إلى الشيوعيين، صمّم الغرب هذه المفاهيم مرة أخرى، بحيث تناسب هدفهم الأصلي إبّان الحروب الصليبية الغابرة: المسلمين.

في معرض البحث عن عدو كبير لاحق:

لقد برّر التهديد السوفياتي توسيعًا غير مسبوق في ميزانية جهاز الأمن القومي للولايات المتحدة، وميزانية القوات المسلحة الأميركية. وبسبب الاتحاد السوفياتي، ضخّت الولايات المتحدة أموالاً في أوروبا، واليابان، وكوريا الجنوبية؛ لإعادة بناء مجتمعاتهم التي مزقتها الحرب. وخاضت الولايات المتحدة غمار صراعات كبيرة في كوريا وفيتنام، وشنّت حروبًا لا

---

(١) المرجع نفسه، ٢٧٧.

حصر لها بالوكالة عبر العالم الثالث. وقد ارتكزت البنية الفعلية لقوة الولايات المتحدة في العالم على أساس منطقي مناهض للشيوعية، يرمي إلى: قيادة العالم الحر وحمايته.

إن انهيار نظام الحرب الباردة بوّأ الولايات المتحدة مكانة عالمية، فريدة في نوعها من حيث القوة والسلطة، مع شبكة واسعة النطاق من القواعد المنتشرة فيما وراء البحار، وميزانية عسكرية ضخمة أدامت بيروقراطية البنتاغون، وعدد لا يُحصى من شركات التصنيع المحلية، واستشراف ديمقراطي يرعاه تقليد من التفرّد والتميّز. وبقي الخصوم، لكن لم يشكل أي بلد تهديدًا عالميًا، وبصراحة، لم يبدِ أي بلد حتى تهديدًا إقليميًا. أما الحديث عن «التوسع الإمبريالي المفرط» (المستوحى من كتاب للعالم في التاريخ بول كينيدي عام ١٩٨٧ بعنوان **صعود القوى العظمى وسقوطها**)، فسرعان ما استبدل به نشوة انتصار «نهاية التاريخ» فيما كانت الولايات المتحدة تحتفي «بلحظتها أحادية القطبية»[١]. بيد أن هذه العبارة تحديدًا تمخّضت عن قلق مزعج يبعث على النكد؛ إذ إن «اللحظة» يمكن أن تكون عابرة. فكيف يمكن للولايات المتحدة أن تتجنّب حالة انعدام الأهمية بعلاقاتها مع الآخرين، أو الانعزالية، أو سيناريو الحالة الأشد سوءًا المتمثّل بانبثاق حركة محافظين جدد، أي أممية فاترة؟ بدأت نخب السياسة الخارجية في واشنطن تعزف على وتر الحنين إلى أيام كان فيها للولايات المتحدة عدوٌ مبين، وكان البحث عن مثل عدو كهذا متواصلاً. جاء فيما كتبه العالم السياسي صمويل هنتنغتون: «ينبغي أن يكون العدو النموذجي لأميركا معاديًا إيديولوجيًا، ومختلفًا عرقيًا وثقافيًا، وقويًا عسكريًا بما يكفي ليشكل تهديدًا حقيقيًا للأمن الأميركي»[٢].

---

(١) بول كينيدي، صعود القوى العظمى وسقوطها (نيويورك: راندوم هاوس، ١٩٨٧)؛ فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير (نيويورك: أفون، ١٩٩٢)؛ تشارلز كراوثامر «المرحلة أحادية قطبية»، الشؤون الخارجية، ٧٠، رقم. ١ (١٩٩٠-١٩٩١).

(٢) صموئيل هنتنغتون، من نحن؟ (نيويورك: سايمون وشوستر، ٢٠٠٤)، ٢٦٢.

نتيجة لغزو العراق للكويت في عام ١٩٩٠ والهجوم الأميركي المضاد اللاحق في عام ١٩٩١، برز صدام حسين بوصفه عدوًّا يمكن أن يديم اللحظة أحادية القطبية. لقد أورد المحلل السياسي لشؤون الشرق الأوسط، فيليس بنيس، فيما كتبه الملاحظة الآتية: «كيف تظهر للعالم أنك ما تزال ذا قوة عظمى؟ أنت لا تعلن ذلك في مؤتمر صحفي. لا، بل تتوجه إلى الحرب. تذهب إلى حرب تخوضها ضد صدام حسين»[1]. لقد دعا الديكتاتور العراقي مسلمي العالم إلى الجهاد ضد الغزاة الغربيين، إلا أن هذه الدعوة ذهبت أدراج الرياح، حالها حال الدعوات التي وجهت إبان الحملة الصليبية الأولى؛ فالعالم الإسلامي لم يتكاتف ولم يرصّ الصفوف. وفي الواقع، ساندت معظم الدول الإسلامية (المملكة العربية السعودية، ومصر، وباكستان) واشنطن. كما إن الولايات المتحدة حالت دون جعل حربها على العراق حملة صليبية كاملة، وذلك عبر إحجامها عن التقدم إلى بغداد والإطاحة بصدام حسين. وفي معرض بنائها لـ«نظام عالمي جديد»، أظهرت إدارة بوش علامات تحفّظ أخرى كذلك. فقد سحبت أسلحة نووية من كوريا، وحاولت أن تضغط على إسرائيل لدفعها إلى تحقيق تسوية في الشرق الأوسط، ونأت بنفسها عن الحروب اليوغسلافية، وانتاب النقاد الصقور قلق من أن اللحظة أحادية القطبية يمكن أن تكون عابرة.

حاولت إدارة كلينتون عمل شيء مختلف؛ فقد اقترحت بادئ الأمر تشكيل «تعددية جازمة»، وإرساء صيغة من السلام يكون في وسعها تحويل الموارد من القطاع العسكري إلى الاستخدام المدني. بيد أن الفشل الذريع الذي منيت به القوات المسلحة الأميركية من جراء التدخل في الصومال، والتردد في التصدي للإبادة الجماعية في رواندا، والخلافات مع أوروبا بشأن ما ينبغي عمله حيال تفكك يوغوسلافيا؛ كل ذلك كان باعثًا على إعادة التفكير في الجبهة متعددة الأطراف. وفي نهاية المطاف تغيّرت الإدارة موقفًا ومسلكًا. وانتهى بها الأمر إلى

---

(١) مقابلة مع فيليس بينيس، ٤ فبراير/ شباط، ٢٠١١ (واشنطن العاصمة).
http://www.fpif.org/articles/interview_with_phyllis_bennis.

الارتداد الحاد إلى الأحادية، وإلى رفض المعاهدات الدولية الأساسية، وإلى القيام بأعمال عسكرية في العراق وكوسوفو دون الحصول على موافقة الأمم المتحدة، وإلى مضاعفة حجم الصادرات العسكرية، وعمومًا، إلى الإصرار على أن الولايات المتحدة (وفقًا لتعبير وزيرة الخارجية الأميركية مادلين ألبرايت) هي «أمة لا غنى عنها».

ويشرح العالم السياسي روبرت ليتواك الموقف في حينه بقوله: «لقد كان العدو المثالي هو الدولة المارقة، وسياسة إدارة كلينتون المتعلقة بالدولة المارقة انصبت على مجموعة متباينة من الدول(كوريا الشمالية، وإيران، والعراق، وليبيا، وكوبا)، وقدمت هذه البلدان أساسًا خدمةً لأغراض التعبئة السياسية»[1]. وكانت جماهير الشعب الأميركي تفتقر إلى الحماس حيال تبني واشنطن ارتداء عباءة قمة العالم؛ لمجابهة كل دولة مارقة، وللحيلولة دون وقوع أي كارثة إنسانية[2]. ومن ناحية أخرى، حثّت حركة المحافظين الجدد التي كانت حديثة النشأة على مطاردة أشد للوحوش بغية القضاء عليهم، جاء ذلك على لسان كل من ويليام كريستول وروبرت كاغان، اللذين أمطرا سياسة كلينتون (التي يناهضانها) على صعيد الشؤون الخارجية بوابل من الانتقادات. وقد كتبا يقولان في هذا الإطار: «بما أن الولايات المتحدة هزمت إمبراطورية الشر، إذن ينبغي أن تنعم بالهيمنة الاستراتيجية والإيديولوجية؛ لذلك ينبغي أن يكون هدف السياسة الخارجية الأول للولايات المتحدة هو الحفاظ على هذه الهيمنة وتعزيزها»[3].

---

(١) روبرت ليتواك، الدول المارقة والسياسة الخارجية للولايات المتحدة (واشنطن العاصمة: مطبعة مركز وودرو ويلسون، ٢٠٠٠)، ٨. انظر أيضًا مايكل كلير، الدول الخارجة عن القانون النووي (نيويورك: هيل وانغ، ١٩٩٦).

(٢) وفقًا لبرنامج عام ١٩٩٥ المتعلق باستطلاع المواقف من السياسة الدولية، فَضَّلَ ٨٩٪ من الأميركيين العمل عبر الأمم المتحدة من أجل استعمال القوة العسكرية، فيما فضل ٢٩٪ فقط العمل العسكري المنفرد المباشر دون الذهاب للأمم المتحدة. ذُكِرَ هذا في برادلي بودليسكا، التصرف بصورة منفردة (لانهام، مدريد: لكسينغتون للكتب، ٢٠١٠)، ١٥.

(٣) وليام كريستول وروبرت كاغان، «نحو سياسة خارجية نيو-ريغانية»، الشؤون الخارجية، يوليو تموز-أغسطس/ آب عام ١٩٩٦.

http://www. carnegieendowment.org/publications/index.cfm?fa=view&id=276.

وبالنسبة لأولئك المتطلعين إلى العثور على عدو جديد بعداء الولايات المتحدة، عدو يمكن أن يبرّر النفقات العسكرية الهائلة، ويعمّق يقظة الجبهة الداخلية، ثمة تهديد عدو واحد يتربّص في الأفق، ويبدو واعدًا أكثر من مارقين مشهود لهم مثل الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيفيتش، ورئيس العراق صدام حسين. هذا التهديد هو تنظيم القاعدة الذي أسسه أسامة بن لادن في أفغانستان عام ١٩٨٨، مقتفيًا أثر سيد قطب، وهو ناشط مصري آثر استخدام العنف لإعادة تأسيس الخلافة الإسلامية[١]. لم ترق لتنظيم القاعدة الطريقة الودية التي كانت تعامل بها حكومات شرق أوسطية معينة الولايات المتحدة. وما أغضب التنظيم، بصفة خاصة، إقامة القوات المسلحة الأميركية قواعد لها في المملكة العربية السعودية (وهي أراضي الحج المقدّسة) في معرض الاستعداد لشن حرب الخليج الأولى[٢]. كما لم يكن التنظيم شديد الرضا عن جماعات إسلامية مثل حركة الإخوان المسلمين، التي كانت تؤيد المشاركة في انتخابات ديمقراطية. لقد شنّت القاعدة هجومها الكبير الأول ضد أهداف غربية عندما فجّرت مركز التجارة العالمي عام ١٩٩٣. وأعقب ذلك تفجير السفارتين في كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨، ثم الهجوم الذي استهدف المدمّرة الأميركية كول في عدن في شهر أكتوبر/ تشرين الأول من عام ٢٠٠٠.

وكان وعيد إيديولوجية تنظيم القاعدة بالقتال أشد حدةً مما كانت عليه الشيوعية، على الرغم من أن طموحاته تجاوزت كثيرًا قدرته اللوجستية. لقد كان

---

(١) فواز جرجس يشير إلى أنه على الرغم من أن أسامة بن لادن أسس القاعدة في عام ١٩٨٨، فإن هذه المنظمة لم تصبح عملياتية في الواقع، إلا في النصف الثاني من العقد الأخير من القرن العشرين. فواز جرجس، صعود القاعدة وسقوطها (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠١١)، ٢٩.قطب، على الرغم من أنه دافع عن العنف، إلا أنه لم يُوْصِ بمهاجمة الولايات المتحدة.

(٢) شغلت الولايات المتحدة مطار الظهران في المملكة العربية السعودية وأدارته منذ عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٦٢، غير أن الحضور العسكري للولايات المتحدة في السعودية أصبح نقطة خلاف رئيسةإبان زمن حرب الخليج الأولى تقريبًا.

تنظيم القاعدة مدمّرًا، إلا أنه بالغ الصغر، فيما كان الإسلام، من ناحية أخرى، عظيمًا وهائلاً.

إن ظهور الإسلام بوصفه «العدو الكبير» الجديد كان بطيئًا إلى حد ما، كما ورد في مقال للكاتب برنارد لويس عام ١٩٩٠ بعنوان «جذور غضب المسلمين»، حيث أقرّ بأنه على الرغم من أن الإسلام كان خصمًا هائلاً، إلا أن «غضب المسلمين» هذا لم يشْغل الولايات المتحدة بكليتها: «فلا وجود لكوبا وفيتنام في العالم الإسلامي، وليس هو الميدان الذي تشارك فيه القوات الأميركية بوصفها قوات مقاتلة أو حتى بصفة استشارية»[١]. ودانيال بايبس الذي كان على وشك الظهور لاحقًا بوصفه أحد المنظّرين الأساسيين الذين حاولوا تضخيم حجم التهديد الإسلامي الجديد، كتب مقالاً في الناشيونال ريفيو، نشر بعد عام من سقوط جدار برلين قال فيه: «إن الإرهاب والافتقار إلى الديمقراطية في العالم الإسلامي يُعَدّان مصدر قلق له». وأضاف: «لكن لا هذا ولا ذاك يبرر النظر إلى المسلمين بوصفهم العدو الأكثر أهمية»[٢].

ورئيس وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، جيمس وولسي، الذي أضحى لاحقًا ناشطًا آخر على أجندة الإسلاموفوبيا، كان في عام ١٩٩٤ متفقًا مع الرأي القائل: «يتعين علينا عدم تقبل فكرة أن «الخطر الأحمر» التي هيمنت على حياتنا قرابة نصف القرن تستبدل حاليًا بفكرة «الخطر الأخضر» الذي يكتسح العالم العربي»[٣].

---

(١) برنارد لويس، «جذور الغضب الإسلامي»، أتلانتيك، سبتمبر/ أيلول ١٩٩٠.
http://www.theatlantic.com/magazine/archive/199009//the-roots-of-muslim-rage/4643/.

(٢) دانيال بايبس، «المسلمون قادمون، المسلمون قادمون»، المصلحة القومية، ١٩ نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٩٠.
http://www.danielpipes.org/198/the-muslims-are-coming-the-muslims-arecoming

(٣) اقتباسًا من دانيال بايبس، الإسلام المقاتل يصل إلى أميركا، ٩٥.

كانت الأصوات القليلة التي دعت إلى شن حملة صليبية جديدة مترددة. في أحد مقالاتها الافتتاحية عام ١٩٩٠، ارتأت صحيفة التايمز اللندنية أنه «في كل شهر تقريبًا يتضاءل التهديد الصادر عن حلف وارسو؛ بيد أنه في كل سنة وحتى نهاية العقد الحالي وما بعده، سوف يتزايد التهديد القادم من الإسلام الأصولي»[١]. وفي عام ١٩٩٥، صرح السكرتير العام لحلف شمال الأطلسي، ويلي كلايس قائلاً: «إن الأصولية الإسلامية، في الحد الأدنى، تشكل الخطورة ذاتها التي كانت تشكلها الشيوعية سابقًا»[٢]. بيد أن الصخب الذي استقبلت به تصريحاته أدى إلى تراجع سريع[٣]. وفي السنة اللاحقة، عرضت إلين سيولينو مناظرة عن التهديد الإسلامي في مجلة نيويورك تايمز، إلا أنها لم تنتقد أحدًا من طرفي المناظرة[٤].

كانت الأمور تفتقر إلى الأسلوب المنهجي في فهم الأعداء الجدد في حقبة ما بعد الحرب الباردة. نشر صمويل هنتنغتون في أحد أعداد مجلة الشؤون الخارجية مقالا بعنوان «صراع الحضارات»، شرح فيه «نمطًا جديدًا من الصراع» على صعيد السياسة العالمية، وهي مجموعة من الخطوط التي تعاني اختلالاً وأعادت ترتيب العالم في خارطة جديدة. وحاجج هنتنغتون في هذا المقال في أن التاريخ لم يكن في طور الانتهاء، بيد أن الدول القومية لن تكون مسؤولة عن الأنماط الجديدة من الصراعات التي تجتاح الكوكب. إذ إن صراعات القرن الحادي والعشرين، سوف تحرّض الحضارات العظيمة بعضها ضد بعض: الحضارات الغربية، والكونفوشيوسية، واليابانية، والهندوسية، والسلافية الأرثوذكسية، والأميركية اللاتينية، ويحتمل أن تكون الإفريقية من

---

(١) «الخطر الأصولي»، نيويورك تايمز، ١٠ يونيو/حزيران ١٩٩٠.

(٢) إلين سوشيولينو، «رؤية الأخضر»، مجلة نيويورك تايمز، ٢١يناير/ كانون ثاني ١٩٩٦.
http://query.nytimes.com/gst/fullpage.html?res=9C06E1D81339F932A15752C0A960958260&sec=&spon=&pagewanted=all.

(٣) دانيال بايبس، الإسلام المقاتل يصل إلى أميركا، ٢٤٥.

(٤) إلين سوشيولينو، «رؤية الأخضر»، مجلة نيويورك تايمز، ٢١ يناير/ كانون ثاني، ١٩٩٦.

بينها. إلا أن الحضارة الإسلامية، حسب زعمه، هي التي ستشكل التهديد الأكبر؛ لامتلاكها «حدودًا داميةً» لدى متاخمتها واحتكاكها مع أي معتقدات أخرى[1]. وعلى الرغم من أن فرضية هنتنغتون تعاني عيوبًا عديدة (كثير من الصراعات التي نشبت في الحقبة التي تلت الحرب الباردة، على سبيل المثال، كانت داخل ما سماها الحضارات، لا فيما بينها)، فقد أضحت أسلوبًا مؤثرًا في النظر إلى العالم، لا سيما العالم الإسلامي.

لقد وضعت اللبنات الأساسية في موضعها الملائم تمامًا. وتبعًا لإجماع في الرأي ناشئ مثير للمخاوف من الإسلام، فإن المسلمين كانوا غاضبين، بل كانوا شديدي الغضب، وقد تأتى هذا الغضب من صلب عقيدتهم لا من جراء عقود من الهيمنة التي مارستها القوى الاستعمارية، أو من جراء العلمنة القسرية التي فرضها إصلاحيون مثل كمال أتاتورك في تركيا. والعنف (بحسب زعيمهم) متأصل في الحضارة الإسلامية، وقد فرض هذا تحديًا ثقافيًا على الغرب، ووصل الأمر إلى حد شن منظمات مثل القاعدة هجمات على أهداف أميركية فيما وراء البحار. ولتصنيف أحد ما بوصفه عدوًّا من الطراز الأول، فإن كل ما يتعين على هذا الخصم الناشئ فعله هو أن يثبت فقط أن هذا العدو يمكنه في العصر الراهن (كما أمكنه في العصور الوسطى) أن يشكل تهديدًا مباشرًا للمنطقة الغربية ولمواقعها المقدسة.

صعود «الفاشية» الإسلامية:

في الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠١، تحولت القاعدة من كونها تهديدًا إلى كونها الخطر ذاته. وعلى الرغم من كونها جماعةً صغيرةً، ولا تمتلك أسلحة دمار شامل أو أرضًا ذات أهمية، وعلى الرغم من أنها كانت هامشية المكانة حتى داخل عالم الإسلام السياسي، فقد تمكنت القاعدة من أن تحظى باهتمام الولايات المتحدة، كما لم يتمكن أي متحدٍ آخر في حقبة ما بعد

(١) صموئيل هنتنغتون، «صدام الحضارات»، الشؤون الخارجية، صيف عام ١٩٩٣.

الحرب الباردة. ما كانت تفتقر له القاعدة من وسائل وعناصر القوة التقليدية، عوضت عنه بالجرأة في شن هجوم على تراب الولايات المتحدة ضد الرموز البارزة للقوة العسكرية والاقتصادية الغربية. بهذا التصرف الوحيد، تمكنت القاعدة من جديد من تحويل الإسلام إلى خطر يهدد وجود الغرب.

لم يكن الهدف الأول لإدارة جورج بوش الابن بعد الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول المتطرفين الإسلاميين بذاتهم بل الإرهاب. «الحرب العالمية على الإرهاب» كانت عبارةً يلفها الغموض، ولم يقتصر الأمر على أنها كانت تعاني غلطًا صريحًا ومطلقًا (فقد كان من المستحيل شن حرب على تقنية أو ضد طرف ليس دولة)، لكن كان يمكن أن تنسحب هذه العبارة على مجموعات أخرى مدرجة على قائمة الولايات المتحدة الخاصة بالمنظمات الإرهابية مثل منظمة «الباسك الوطن والحرية»، أو على قائمة الولايات المتحدة الخاصة بالدول الراعية للإرهاب مثل كوبا. لا تروق هذه العبارة الفضفاضة لكثير من مراقبي الجناح اليميني؛ لأنها لا تشير بإصبع الاتهام إلى الإسلام أو حتى إلى الإسلام «الراديكالي»[١].

في خطابه الذي ألقاه عام ٢٠٠٢ عن حالة الاتحاد، حاول بوش اختبار مقاربة مختلفة باستخدام العبارة الشائنة: «محور الشر» التي ضمت العراق، وإيران، وكوريا الشمالية، وكانت تلك آخر ملاحظة أبداها استباقًا لاتهامه بالتحريض على كراهية الإسلام. وكان المقترح الأصلي الذي اقترحه كاتب الخطابات ديفيد فروم، هو عبارة «محور الكراهية»، إلا أن زميله مايكل جيرسون، وهو مسيحي إنجيلي، رغب في استخدام تعبير ينطوي على مزيد من اللاهوتية. وبحسب تفسير الموضوع لاحقًا من قبل فروم، فإن مصطلح «محور» صمم بغية جعل الأذهان تستحضر صورًا من الفاشية. وقد كتب في هذا الإطار الآتي: «بقدر ما كانت العراق، وإيران، وحزب الله، والقاعدة، تتنازع فيما بينها هي تشترك في

(١) نورمان بودهوريتز، الحرب العالمية الرابعة (نيويورك: دبلداي، ٢٠٠٧)، ٩.

معتقدات ترجع إلى الفاشية الأوروبية: ازدراء البحث الحر والفكر المنطقي العقلاني، والاحتفال بالموت والجريمة، والهوس في معاداة السامية. وجميع هذه الأطراف مستاءة من قوة الغرب، وتحتقر القيم الإنسانية للديمقراطية»[1]. كانت عبارة «محور الشر» مصطلحًا وسيطًا بين مصطلح «الحرب العالمية على الإرهاب»، الذي طرح عقب الهجمات مباشرةً، ومصطلح «الفاشية» الإسلامية الذي تم تبنيه لاحقًا، بصهره اللاهوتي بالجيوسياسي، استولى هذا المصطلح الأخير على جوهر الحملة الصليبية الثانية.

لقد حاولت إدارة بوش، في نهاية المطاف، إعادة تأطير الصراع من جديد. ففي عام ٢٠٠٥، كان الدعم الجماهيري لتورّط الولايات المتحدة في العراق في طريقه إلى التلاشي. كان بوش بحاجة إلى إطار يمكن أن يعطي معنى لسياسته الخارجية، بحاجة إلى تهديد يكون من الكبر والديمومة بما يكفي(بعد رحيل صدام حسين، وتراجع مركز هجمات ٩/ ١١ في نطاق الذاكرة) لتبرير التضحيات الأميركية: جنود فقدوا، ومال أُهْدِرَ، وحريات مدنية اختُزِلتْ، وقضايا حاسمة مثل تغير المناخ وصعود نجم الصين. وفي خطاب ألقاه في المؤسسة الوطنية للديمقراطية في أكتوبر/ تشرين الأول من عام ٢٠٠٥، استخدم الرئيس مصطلح «الفاشية» الإسلامية وأقحمه في الخطاب الرئاسي. وبدلاً من أن يكون الأعداء مجرد حفنة من الأشرار المختبئين في كهوف في مكان ما على طول الحدود الباكستانية الأفغانية، أصبح العدو «الفاشية» الإسلامية؛ أي أضحى العدو يشكل تهديدًا حضاريًا يمكن مقارنته بالتهديد الذي كان يشكله السوفيات، إنه عدو يتطلب تعبئة قومية.

قال بوش في الخطاب الذي ألقاه في المؤسسة الوطنية للديمقراطية: «إن الإيديولوجية شديدة الخطورة للمتطرفين الإسلاميين هي التحدي الكبير لقرننا الجديد». وأضاف بوش: «وهذه الحرب تشبه من نواح كثيرة الكفاح ضد

---

(١) ديفيد فروم، الرجل المناسب (نيويورك: راندوم هاوس، ٢٠٠٥)، ٢٣٥-٣٦.

الشيوعية في القرن المنصرم». ومضى يعدد أوجه الشبه: الشيوعيون والإسلاميون الفاشيون (على حد سواء) يؤمنون بحكم النخبة، ويكنّون «ازدراءً وحشيًا للحياة الإنسانية»، ويسعون إلى تحقيق «أهداف شمولية»[1].

لم يكن الربط بين الإسلام والفاشية جديدًا، فقد عمد مؤرخون إلى استكشاف الصلات بين المسلمين والنازيين، قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها[2]. لحركة البعث (التي أنتجت حزبين حاكمين في العراق وسوريا) جذور في حركات فاشية أقدم عهدًا منها. عندما ابتدع الباحث ماليس روثفين عبارة «الفاشية» الإسلامية في مقال نشره عام ١٩٩١، كان يجول في خاطره أسماء حكومات ديكتاتورية، كان بعضها متحالفًا مع الولايات المتحدة، مثل باكستان والمغرب[3]. وعبث لاحقًا نيوت غينغريتش بمصطلح «الإسلام الشمولي» ليصف به إيران[4]. وقد أعاد بعد أحداث ١١/٩ كتاب مثل كريستوفر هيتشنز وأكاديميون مثل بسام طيبي مؤضَعَة مصطلح «الفاشية» الإسلامي، ليصفوا به المعارضة الإسلامية لتلك الحكومات الديكتاتورية. فجأةً، لم يعد الأمر يقتصر على القاعدة التي كانت «شمولية» وحدها، بل أضحى يشمل مجموعة كاملة من الإسلاميين الذين شكلوا ما يشبه الدولة والنظام السوفياتيين الشموليين[5]. على سبيل المثال، تطمح حركة الإخوان المسلمين، والرأي هنا للطيبي، إلى صهر

(١) «بوش: إخفاق التطرف الإسلامي محتوم»، سي إن إن، أكتوبر/ تشرين الأول، ٢٠٠٥.

(٢) انظر، أحدث الإصدارات، جيفري هرف بعنوان: دعاية نازية للعالم العربي (نيوهافين، كونكتيكت: مطبعة جامعة ييل، ٢٠٠٩).

(٣) ماليس روثفن «الإيمان والعقل: تأويل الإسلام بوصفه لغة»، مستقل، ٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٩٠؛ الاستخدام الأكثر معاصرة للمصطلح بطابعه المحافظ الجديد من المحتمل أن يكون بدأ مع خالد دوران، وهوباحث إسلامي من ألمانيا في ٢٠ يوليو/ تموز٢٠٠١، مقابلة مع الواشنطن تايمز. انظر «الفاشية الإسلامية بأي اسم آخر»، واشنطن تايمز، ١ سبتمبر/ أيلول، ٢٠٠٦.

(٤) إلين سوشيولينو، «رؤية الأخضر»، مجلة نيويورك تايمز، ٢١ يناير/ كانون ثاني، ١٩٩٦.

(٥) وفقًا للشرح الذي أوردته إحدى قدامى المحافظين الجدد، جين كيركباتريك، في كتابها: ديكتاتوريات ومعايير مزدوجة، يتوفر الغرب على كل الأسباب التي تجعله يدعم الديكتاتوريات الاستبدادية اليمينية؛ لأنها تواظب على معارضة الديكتاتوريات اليسارية الشمولية التي لم تكن (خلافًا لأنظمة الحكم الاستبدادية التي تحالفنا معها) عاجزة عن إجراء إصلاح داخلي. جين كيركباتريك، ديكتاتوريات ومعايير مزدوجة (نيويورك: سيمون وشستر، ١٩٨٢).

الدين والدولة في نظام عالمي يقتضي الولاء التام عبر بديل إسلامي لنظرية ليون تروتسكي المتعلقة بـ«الثورة الدائمة»، التي أسس عليها ستالين الوسائلية الأممية، وأسس عليها لينين الطليعة[1]. هذا الاتحاد بين مناهضة الشيوعية والاستشراق، طرح رؤية للإسلام السياسي بوصفه مركزيًّا متكاملاً وغامضًا، ومتزمتًا، ومتعصبًا، وعاجزًا عن إجراء تغييرات، حاله في ذلك حال الشيوعيين التي يفترض أنهم كانوا عليها ذات يوم[2]. هنا، أخيرًا كان موضع «العدو المثالي» الذي ذكره هنتنغتون، إذ إن الأمر، والحالة هذه، لا يقتصر على عدد قليل من متطرفي القاعدة، بل يشمل ملايين الإسلاميين «الفاشيين» المحتشدين في مسار واحد.

بمجرد تبني الرئيس بوش أخيرًا الخطاب البلاغي التحريضي المتعلق بـ«الفاشية الإسلامية»، شرع اليمين المتشدد يحثّ الخطى ويبذل قصارى جهوده. فقد حثّ نورمان بودوريتز (ناشر مجلة التعليق، في كتابه **الحرب العالمية الرابعة**) قرّاءه على الارتقاء إلى مستوى التحدي الجديد محاكاةً للجيل الأعظم الذي اضطلع بمسؤولياته في مجابهة الفاشية، وجيل الآباء الذي جابه الاتحاد السوفياتي[3]، حاله حال البابا أوربان الثاني إبّان استدعائه الصليبيين الأوائل، ألمح بودوريتز إلى أن المعركة ستكون أكثر ملحميةً واحتدامًا من أي حرب مضت، وهائلة وواسعة النطاق مع عدو عدده بين مائة وخمسة وعشرين مليونًا ومائتي مليون إنسان، وهو عدد يفوق أعداد كل الفاشيين والشيوعيين الذين عاشوا على هذه الأرض في أي وقت مضى (إذا أخذنا في الحسبان عدد سكان الصين وحدها، نجد أن هذا زعم شاذ حقًّا)[4]. وبالنسبة لدانيال بايبس الذي انتبه

---

(١) بسام طيبي، «شمولية الإسلام الجهادي، وتحديها لأوروبا والإسلام»، في **الحركات الشمولية والأديان السياسية** رقم ٨، الأول من مارس/ آذار ٢٠٠٧ عن الطلائعية الإسلاموية، انظر أيضًا توماس فريدمان، **العالم مسطح** (نيويورك: فارار، وشتراوس، وجيرو، ٢٠٠٧)، ٥٥٨.

(٢) يتوفر هذا الخطاب على مسحة عميقة من مناقشات جرت في أوساط استبدادية في الحقبة الماركسية وفيما بعدها عن «الاستبداد الشرقي» و«أساليب الإنتاج الآسيوية».

(٣) بودهوريتز، **الحرب العالمية الرابعة**، ٢١٧.

(٤) المرجع نفسه، ص. ١٤؛ أو كما أدرجها ناقد قضايا الإرهاب ستيفن إيمرسون في أحد أكثر كتبه التي كتبها عن الإرهاب رواجًا، وصدر عقب هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول مباشرة، «هذه أهم معركة في عصرنا على الإطلاق» ستيفن غيمرسون، **الجهاد الأميركي** (نيويورك: الصحافة الحرة، ٢٠٠٢)، ٢٥.

أخيرًا إلى رؤية الإسلام بوصفه العدو الشديد الخطر، يرى أن التهديد الناجم عن الإسلام أشد سوءًا من ذاك الذي تمخّضت عنه الشيوعية؛ لأن الشيوعيين كانوا يعارضون السياسة الغربية فقط، فيما الإسلاميون «يحتقرون أسلوب الحياة الغربية برمته»[1].

ومدرسة «الفاشية الإسلامية» (التي تضم بين ظهرانيها أيضًا دونالد رامسفيلد، وديفيد هورويتز، وبيل أورايلي، وباميلا غيلر) تعامل العالم الإسلامي بوصفه الشيوعية العالمية الحديثة، حيث تتعاون حكومات عربية مع إسلاميين متشددين في الخفاء تعاونًا وثيقًا.

ما كان غائبًا عن فهم وإدراك أصحاب هذه المدرسة هو أن الحكومات السورية، والمصرية، والعربية السعودية، شن كل منها من جانبه هجمات على الإسلام الراديكالي. لقد تلاشت في خلاّط أصحاب هذه المدرسة الشمولية كل الانقسامات الحادة بين النظام الإيراني وحركة طالبان، وبين الحكومة الأردنية والفلسطينيين، وبين الشيعة والسنة في العراق، وحتى فيما بين الأكراد؛ تلاشى كل ذلك تمامًا كما فشل المناهضون للشيوعيين على وجه العموم في التمييز بين الشيوعي المتشدد ليونيد بريجنيف، والإصلاحي الشيوعي ميخائيل غورباتشوف. ويتجاوز سوء الفهم الجوهري هذا، للأسف، اليمين المتطرّف.

ليبراليو الجهاد:

كان المحافظون والليبراليون ذات يوم يشنّون الحرب الباردة معًا، فقد تحالف ديمقراطيون مثل هاري ترومان، وجون فيتز جرالد كينيدي، وليندون

---

(١) دانيال بايبس، **الإسلام المقاتل يصل إلى أميركا**، ٨٩. ويوجد آخرون مثل السكرتير المساعد لوزير الخارجية لحقوق الإنسان والشؤون الإنسانية، ريتشارد شيفتر، وسّعوا دائرة هذا التهديد «الشمولي» الثالث الذي يجابه الولايات المتحدة ليشمل «تحالف الأمر الواقع غير الرسمي للفاشيين الجدد والشيوعيين الجدد، وهو حلف يؤلف بين محمد أحمدي نجاد وهوغو شافيز». ريتشارد شيفتر، «صدام الإيديولوجيات».
http://www.jewishlawyers.org/media/user/documents/Schifter_keynote_address_042009-20-.pdf.

جونسون مع زملائهم المحافظين لمواصلة احتواء الاتحاد السوفياتي، والصين، ولصد التهديدات الملحوظة في كوريا وفيتنام، ولإقرار الزيادات الضخمة في ميزانيات البنتاغون ودوائر الاستخبارات. ثم فصمت إخفاقات حرب فيتنام عرى هذا التوافق الليبرالي - المحافظ، حيث شرع الليبراليون يعارضون الحرب، فيما بدأ اليمين المتشدد يتشكك في تورّط السياسة الواقعية لريتشارد نيكسون وهنري كيسنجر مع الشيوعية الروسية والصينية. ومن رحم انفراط عقد هذا التوافق انبثقت حركة المحافظين الجدد، التي ألفت بين الصقور الديمقراطيين والجمهوريين، الذين كرهوا الانفراج في حدة العلاقات الدولية وقيود «متلازمة فيتنام» على قوة الولايات المتحدة.

سعى بعض الليبراليين أيضًا في نهاية المطاف إلى طرد أشباح فيتنام عبر محاولة استرداد «الروح القتالية» لترومان؛ فأيدوا التدخلات الإنسانية إبان عهد كلينتون، بغية إلحاق الهزيمة بمعتدين مثل سلوبودان ميلوشيفيتش في صربيا، وأمراء الحرب في الصومال. وبعد أحداث ٩/١١، اعتاد الكاتب مايكل إغناتيف على تسمية هذه الليبرالية القوية الجديدة «الإمبراطورية لايت»؛ لأنها تعتمد على القوة العسكرية الأميركية الساحقة لا لإنشاء مستعمرات تابعة لها، بل لبناء أمم جديدة؛ انتشالاً من الفوضى ولإنقاذ سكان مهددين من براثن الإبادة الجماعية[١]. هؤلاء الليبراليون أصحاب الوصمة المجددة، أيد كثير منهم غزو الولايات المتحدة للعراق عام ٢٠٠٣؛ لأنه خلع طاغيًا حقيقيًا، وكرّس الكفاح لمقارعة الظلم بالوسائل العسكرية متى لزم الأمر، وهذا التوجه متأصل في صلب تفكيرهم. وبما أن نهج هذه الإمبراطورية «اللايت» يتوافق مع الكفاح الخارجي لجهاد الإسلام الأصغر(لكي لا يختلط الأمر مع الجهاد الأكبر الذي يتطلب بذل المرء جهدًا ذاتيًا داخليًا للتحكم في رغباته)، فإن أفضل ما يمكن أن يوصف به إغناتيف والمفكرون الذين هم على شاكلته هو: ليبراليو الجهاد.

(١) مايكل إغناتيف، إمبراطورية لايت (نيويورك: فينتج، ٢٠٠٣).

لنستعرض حالة بيتر بينارت وهو محرر سابق في مجلة **الجمهورية الجديدة**. لقد كان كتابه الذي نشره عام ٢٠٠٦ تحت عنوان **القتال الصالح** دعوة فعلية لتعبئة الليبراليين والتقدميين واستعدادهم للقتال، وعبر استشهاده بالجيل الأقدم من ليبراليي الحرب الباردة، الذين صاغوا فلسفتهم القوية في الكفاح ضد الشيوعية، حثّ بينارت زملاءه الليبراليين (الذين باتوا في غفلة عن الأخطار المحدقة بل هم حتى انعزاليون في غرائزهم) على الانضمام إلى الحرب ضد «الحركة الشمولية» لـ«الإرهاب الجهادي»[١]. وإن كان العدوان الصربي في البوسنة في تسعينيات القرن العشرين، قد برر طغيان المقاومة التقدمية التقليدية لتدخل الولايات المتحدة العسكري، فإن حركة طالبان والسلفيين طرحوا أسبابًا أقوى للقتال في القرن الحادي والعشرين[٢]. وقد دفع هذا التهديد بينارت إلى دعم غزو الولايات المتحدة للعراق وإلى قتال «الفاشية» الإسلامية الأشد ضراوة والأوسع نطاقًا. جاء فيما كتبه بينارت: «في الرؤية الليبرالية، لا يوجد تناقض بين الإقرار بأن أعداءنا ليسوا أشرارًا في جوهرهم، والإقرار بأنه يجب أن يُحَاربوا، تمامًا كما إنه لا يوجد تناقض بين الاعتراف بأنه على الرغم من كوننا غير طيبين في جوهرنا، فإنه لايزال تتعين علينا المواظبة على محاربتهم»[٣].

بالنسبة لليبرالي جهاد آخر مثل بول بيرمان، يعد العدو في الواقع شريرًا في جوهره. لقد عرض بيرمان في كتابيه **الإرهاب والليبرالية** (الذي نشر عام ٢٠٠٣)، و**هجرة المفكرين** (الذي نشر عام ٢٠١٠) شرحًا عامًا لأصل الشر، بدءًا من تعاون المسلمين مع النازيين ومنفذي التفجيرات الانتحارية الفلسطينيين، مرورًا بطغيان جنون العظمة على صدام حسين وإعجاب تنظيم القاعدة الشديد بالقتل والموت[٤]. وحقيقة أن لا صلة بين صدام حسين وتنظيم القاعدة، وأن حلم تنظيم

(١) بيتر بينارت، **المعركة الخيرة** (نيويورك: هاربر كولينز، ٢٠٠٦).، xii.

(٢) لم يرتكب بينارت الخطأ الذي ارتكبه بعض المحافظين المعارضين «للفاشية الإسلامية» من حيث كونه مَيَّزَ بين ضروب مختلفة من الإسلام السياسي.

(٣) بينارت، **المعركة الخيرة**، ١٩٤.

(٤) بول بيرمان، **الإرهاب والليبرالية** (نيويورك: نورتون، ٢٠٠٣)، ١٣ و٤.

القاعدة في إقامة الخلافة، لا ينسجم مع الدولة الفلسطينية التي شيدت من قبل حماس، وحقيقة أن المملكة العربية السعودية تخشى ابن لادن بقدر ما تخشاه الولايات المتحدة، لم يكن شيء من هذا أكثر أهمية عند ليبراليي الجهاد من الاختلافات العَقدِيَّةِ التي كانت قائمة بين موسكو وبيجين عند محاربي الحرب الباردة المتشددين، حيث إن الشر المتأصل في كل عنصر من العناصر تؤهله للاندراج في فئة بيرمان الكشكولية الخاصة بـ«الفاشية» الإسلامية، التي يعرفها بأنها نقيض القيم الليبرالية[1].

وفي نظرية بيرمان اللاهوتية، لا يأتي الشيطان ملتفًّا بسحابة جهنمية ملوّحًا بمذراة تهديدًا ووعيدًا مرتديًا سفرة انتحارية، بل المستهدف بأعتى هجمات بيرمان التي لا تكل ولا تمل هو الباحث المسلم المولود في سويسرا طارق رمضان، وهو رجل حضاري مهذب، وأكاديمي، ويرتدي بزة. ونظرًا لعدم وضوح تمثيل رمضان لـ«الفاشية» الإسلامية، كان لزامًا على بيرمان بذل قصارى الجهد لفضحه والتعريض به. لقد نبش ماضي رمضان وفكّكه ليثبت (على الرغم من كل شيء) أن هذا الباحث يجسد أسوأ السمات جميعها في دينه: العنف، والغدر، والطموح الإمبريالي. ولأن والد رمضان وجده لأبيه كانا فاعلين ومؤثّرين في تأسيس حركة الإخوان المسلمين، فلا بد من أن ينسب رمضان أيضًا على مستوى جوهري إلى المنظومة العَقَدِيةِ ذاتها. وهذا أمر صعب إلى حد ما؛ نظرًا لإدانة رمضان الصريحة للإرهاب، لذا أجرى بيرمان قياسًا منطقيًّا علَّه يفي بالمعايير العالية لتحقيقه التعسّفي، وكان على النسق الآتي:

«١-رمضان يدين الإرهاب.

---

(١) يوجد ليبراليو جهاد آخرون اقتفوا أثر بيرمان. جاء فيما كتبه مارتن أميس عن هذا الموضوع: «شأنه شأن اليهودية الأصولية والمسيحية في العصور الوسطى، الإسلام استبدادي شمولي، أي إنه يهيمن على الفرد هيمنة شاملة». هنا يقيد أميس شمولية اليهودية والمسيحية - فقط بعض نسخ هذا الدين شمولية - إلا أنه يسقط حكمه على دين الإسلام بأكمله، وينعته بالشمولي. مارتن أميس، الطائرة الثانية، ٧٧.

٢- هو يريد أن يفهم الإرهاب، على الرغم من أن رغبته في فهمه لا تهدف إلى تبريره.

٣- يتفهّم الإرهاب بمزيد من الود إلى حد جعل الأمر ينتهي به إلى تبريره.

٤- لقد برّر الإرهاب تبريرًا مطلقًا إلى حد جعل الأمر ينتهي به إلى الدفاع عنه»[١].

لقد تجاهل بيرمان ببساطة تنديدات رمضان بمعاداة السامية. وعندما يفشل في العثور على دليل يدعم أيًا من مزاعمه التي يدّعي فيها أن رمضان متطرّف لا يبوح بتطرّفه، يتمادى بيرمان في افتراضه المحض:

«إن مزيج هذه النغمات المتعددة من شخص فاقد للشعور ويميز غيظًا يجعلك تتساءل من جديد(يجعلني أنا على الأقل أتساءل)، إن كان ثمة شيء من المراوغة في تفكيره لم يحجب عن الأنظار. هل يمكن أن يكون هذا الشيء المحجوب نظرية عن اليهود التآمرين؟ أم بعض الفِكَرِ المتعلقة بالإرهاب؟»[٢]. يا له من عالم يعاقب الناس على فكرهم وآرائهم، كما هي الحال مع الصحافي ستيفان ساليزبوري الذي يقول: «إن غياب الدليل هو دليل بحد ذاته»[٣]. لا يهم ما يقوله المسلمون لأنهم (وفقًا للخرافة الصليبية القديمة) بطبيعتهم ليسوا أهلاً للثقة. ووفقاً لما يراه الكاتب آرون كوندناني: «مهما تكن الحجج التي يسوقها الإسلامي معتدلة، فإن الناتج يبقى دومًا هو هو دعم لحماس، ما لم يكن دعمًا للقاعدة»[٤].

---

(١) بول بيرمان، رحلة المثقفين (نيويورك: ملفيل هاوس، ٢٠١٠)، ٢٠١. للوقوف على تحليل دقيق لأغلاط بيرمان، انظر ماليس روثفن، «الصالحون والطالحون»، نيويورك ريفيو أوف بوكس، ١٩ أغسطس/ آب، ٢٠١٠.

(٢) المرجع نفسه، ١٥٥.

(٣) ستيفان سالزبوري، أشباح محمد (نيويورك: نشن بوكس، ٢٠١٠)، ٦.

(٤) آرون كوندناني «الإسلام وجذور الغضب الليبرالي»، العرق والدرجة، أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٨، ٥٢.

مثلهم مثل أبناء عمومتهم من المحافظين المتطرفين، ليبراليو الجهاد هم مجموعة من الأصوليين العلمانيين الذين لا يلقون بالاً إلى الفروقات الدقيقة؛ فهم يستغنون عن التسامح في المجال الاجتماعي بقدر استغناء بيرمان وبينارت عن الحذر في ميدان السياسة الخارجية. جاء في بعض ما كتب سام هاريس(وهو مؤلف لعدة كتب تشجّع على الإلحاد): «نحن لا نشن حربًا على الإرهاب، بل نقاتل نظامًا لاهوتيًا مهلكًا، وتوقًا إلى الجنة»[1]. ريتشارد دوكنز ينهل من المشرب ذاته، فقد أطلق العنان لنفسه للخوض في إسلاموفوبيا مماثلة حين وصف الدين بأنه «شر مستطير»[2]. للأسف، بوسع العلمانيين أن يجسدوا الروح الصليبانية تجسيدًا تامًّا بقدر ما يستطيع فعل ذلك إخوتهم المتدينون، فهم مثل الصليبيين القدامى يصورون الإسلام بوصفه نظامًا العنف متأصل فيه، وهو غير قابل للتغيير، فهو نظام يهدد حضارتنا «نحن».

من المفارقات أن كل هذا النقاش المتعلق بـ«الفاشية» الإسلامية كان دائرًا في الوقت ذاته الذي كان فيه الإسلام السياسي يمر في مرحلة تحول دراماتيكية. بقدر ما كان ناشطو اليمين وليبراليو الجهاد يحاولون شيطنة الإسلام السياسي وتشويه صورته بوصفه شموليًا ويعاني جمودًا، كان مبعث أسوأ مخاوفهم يتطور أسرع مما توقعه أحد من الناس.

تحديث الإسلام:

في عام ١٩٨٩، انتشرت الثورات عبر أوروبا الشرقية وخلعت أنظمة الحكم الشيوعية. وهبّت رياح التغيير ذاتها فأزاحت نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، وشجعت ناشطين في الصين على التجمع في ميدان تيان آن مين.

---

(١) سام هاريس، «الليبراليو دفن الرؤوس في الرمال»، لوس أنجلوس تايمز، ١٨ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٦.
http://www.samharris.org/site/full_text/the-end-of-liberalism/.

(٢) «ريتشارد دوكينز عن الإسلام»، ٢٦ سبتمبر/ أيلول ٢٠١٠.
http://www.faithfreedom.org/videos-features/richard-dawkins-on-islam/./

ولم يكن العالم الإسلامي محصّنًا ضد هذه التطورات. وتجنّبًا لمجابهة مطالب جذرية أكثر، سمح العاهل الأردني الملك حسين بإجراء أول انتخابات شبه حرة في البلاد عام ١٩٨٩، قبل انهيار جدار برلين بأيام فقط. لقد أحسن الإسلاميون صنعًا، وصولاً إلى انضمامهم إلى مجلس الوزراء. وبعد ثلاث سنوات أجاز البرلمان تشكيل الأحزاب السياسية بقانون. بيد أن الملك حسين تراجع بعد ذلك عن الإصلاحات الديمقراطية؛ فتعطلت الأردن وعجزت عن التقدم سياسيًّا منذ ذلك الحين. زعمت جبهة العمل الإسلامي وهي جبهة المعارضة الرئيسة في البلاد أن الحكومة زورت الانتخابات عام ٢٠٠٧، وقاطعت هذه الجبهة الانتخابات التي أجريت عام ٢٠١٠ [١].

العائلة المالكة الأردنية (شأنها شأن حكام مستبدين آخرين في المنطقة) كان القلق يساورها حيال سيناريو سياسي آخر كان مضماره الشرق الأوسط بعد عام ١٩٨٩ : الجزائر. فاز حزب إسلامي في انتخابات محلية أجريت في الجزائر عام ١٩٩٢ حاصدًا ٦٢٪ من أصوات الناخبين. وفي الانتخابات الوطنية التي أجريت في العام اللاحق، حصد الحزب الجديد للجبهة الإسلامية للإنقاذ مقاعد أكثر من أي حزب آخر. نظرت الحكومة بعين العداء إلى هذا التطور الديمقراطي؛ فحظرت (مستعينةً بدعم فرنسي) الحزب الجديد، وألقت بزعمائه في السجن، وأرسلت آلاف النشطاء إلى معسكرات اعتقال في الصحراء الكبرى، ثم تلت ذلك حرب أهلية خلفت أكثر من مائة ألف قتيل[٢].

الانقلاب على انتخابات الذي يستتبع انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان يتمخّض عادةً عن إدانة قوية من واشنطن. أذعنت بدلاً من ذلك الولايات

---

(١) يولاند نِل، «ديمقراطية الأردن في برنامج تلفزيوني»، شبكة بي بي سي الإخبارية، ٨ نوفمبر/ تشرين الثاني، ٢٠١٠.

http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-11702306.

(٢) نوح فيلدمان، بعد الجهاد (نيويورك: فرار، شتراوس، وجيروكس، 1993)، 3-5.

المتحدة للتغييرات، تماماً كما فعلت قبل سنتين عندما أقصى «انقلاب ناعم» نفذه الجيش التركي في عام ١٩٩٧ رئيس وزراء إسلاميًا. وتجنبًا لتوجيه اتهامات لهم بتحيز مناهض للإسلام، صاغ مسؤولون أميركان «استثناءهم الإسلامي» بلغة عالمية المدى، حيث اعترضت حكومة الولايات المتحدة على ما أسمته: «شخص واحد، صوت واحد، مرة واحدة»[١]. ترجم هذا بلغة مشتركة إلى خوف من أن تعتلي أحزاب إسلامية سدة الحكم عبر وسائل ديمقراطية ثم تنقلب على الديمقراطية بعد ذلك. لقد قمعت حكومات استبدادية في المنطقة الأحزاب الإسلامية المعارضة لها؛ لعلمها الأكيد بأن «الاستثناء الإسلامي» سوف يحميها، لكنها لم تلجأ عادةً إلى القضاء عليها قضاءً مبرمًا؛ لأن الإبقاء على بعض الإسلاميين تحت التصرف يذكر واشنطن بأخطار الضغط الشديد الذي يرمي إلى إحداث إصلاحات ديمقراطية.

التصور الذهني الراسخ الموحي بأن الإسلاميين هم المشكلة، لا أنظمة الحكم الاستبدادي التي تسرع وتيرة إجهاد البلدان الشرق أوسطية، يدين بكثير من الفضل إلى الفكرة الاستشراقية القائلة إن الإسلام يعيق التنمية الاقتصادية والسياسية.

ووفقًا لباحثين مثل برنارد لويس، من المحتمل أن يكون الإسلام قد شجّع الابتكار في العصور الوسطى، عندما كان الغرب غارقًا في خضم همجيته الأولى، إلا أن الإسلام في العصر الحديث بات سقفًا زجاجيًا يحول دون نهوض رجال الأعمال والديمقراطيين على حد سواء[٢].

مهما كان هذا الزعم مفتقرًا إلى الصحة والدقة في غابر الأيام، فمن الواضح أنه ضرب من الهراء والحماقة في زمن الحملة الصليبية الجديدة.

---

(١) إدوارد جرجيان، الخطر والفرصة (نيويورك: سايمون وشستر، ٢٠٠٨)، ٢٢.

(٢) الأنثروبولوجي كلود ليفي شتراوس يوفر مثالاً آخر بكتاباته: تريست تروبيك، حيث يقول: «إن الإسلام هو دين التعصب والاعتزال، استنادًا إلى عدم القدرة على إقامة روابط مع العالم الخارجي». كلود ليفي شتراوس، تريست تروبيك (نيويورك: مطبعة واشنطن سكوير، ١٩٧٧)، ٤٦٠.

لقد برزت تركيا بوصفها دولة ديمقراطية نابضة بالحياة ولاعبًا رئيسًا في مجال السياسة الخارجية. وإندونيسيا الأكثر كثافة سكانية عالميًا بالسكان المسلمين، هي حاليًا أكبر اقتصاد في جنوب شرق آسيا، وتحتل المرتبة الثامنة عشرة عالميًا من حيث كبر حجم اقتصادها. في كلتا الحالتين، لعبت الأحزاب المتأثرة بالإسلام أدوارًا رئيسةً في التحول. وعندما فازوا في الانتخابات الديمقراطية لم ينقلبوا عليها مخيبين بذلك بعض الناس الذين خافوا من ذلك. لقد التزموا بقواعد اللعبة الديمقراطية أثناء الانتخابات، وتقيدوا بمقتضاها وهم في السلطة.

ورد في ما كتبه فيليب هوارد تحت عنوان **الأصول الرقمية للدكتاتورية والديمقراطية**:

«منذ مطلع تسعينيات القرن العشرين، أحدث ثلاثة وعشرون بلدًا مسلمًا مزيدًا من المؤسسات الديمقراطية، أو أجرت هذه البلدان انتخابات شرعية خاضتها أحزاب سياسية متنافسة وناشطة، أو منحت قدرًا أكبر من الحريات المدنية، أو منحت الصحافيين حصانات قانونية أفضل»[1].

حتى المنظمات التي واظبت الولايات المتحدة على إدراجها في قائمة الإرهاب الخاصة بها(مثل حزب الله وحماس) قررت الانخراط في العملية السياسية. وقد لعبت كلتا المنظمتين دورًا رئيسًا في تنظيم المجتمع المدني في لبنان وغزة. ونأت كلتاهما بنفسيهما في نهاية المطاف عن الإرهاب، وركزتا اهتمامهما عوضًا عن ذلك على المشاركة في العملية السياسية. وقد أوفد حزب الله بدايةً مرشحين من قبله للمشاركة في المعترك السياسي منذ عام ١٩٩٢، وأصبح له تمثيل في البرلمان منذ ذلك التاريخ وحتى الآن، وشغل ممثلون عنه حقائب وزارية عديدة في الحكومة اللبنانية في أوقات متعددة. فيما فازت حماس في الانتخابات البرلمانية التي انعقدت عام ٢٠٠٦، وتولت مهام الحكم في غزة،

---

(١) فيليب هوارد، **الأصول الرقمية للدكتاتورية والديمقراطية** (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠١٠)، ٣٧.

وجوبهت من فورها بمقاطعة سياسية من قبل إسرائيل والولايات المتحدة. لقد ثابرت على الإبقاء على جناح عسكري، إلا أنها أوقفت إلى حد بعيد التفجيرات الانتحارية التي كانت تشنها سابقًا، ووفقًا لما قاله الباحث الإسرائيلي رؤوفين باز: «بات ٩٠٪ من عملها تقريبًا مقتصرًا على الأنشطة الاجتماعية، والخيرية، والثقافية، والتعليمية»[1]. مثلهما مثل منظمات عديدة مصنفة على أنها إرهابية (الجيش الجمهوري الإيرلندي، والكونغرس الوطني الإفريقي) حماس وحزب الله كلاهما توسلا العنف لتحقيق أهدافهما، إلا أنهما تحولا إلى كيانين سياسيين عندما أتيحت لهما فرصة حقيقية للقيام بذلك. وبحسب وصف جيولا كوهين(وهو عضو سابق في منظمة «ليهي» اليهودية الإرهابية): «إن كل حركة كانت تنشد الحرية عبر التاريخ اضطرت إلى استخدام وسائل القوة والسلاح وما إلى ذلك؛ لأن الأقلية لا يسعها محاربة الحكومة وجهًا لوجه»[2]. «ليهي» التي كانت تعرف باسم عصابة شتيرن أضحت في نهاية المطاف جزءًا من قوات الدفاع الإسرائيلية.

منظمة الإخوان المسلمين(التي قد تكون أكثر المنظمات الإسلامية تأثيرًا ولها فروع في جميع أنحاء العالم) حققت تحولاً مماثلاً بنبذها العنف الذي كانت تؤديه سابقًا. يقول الكاتبان روبرت لايكن وستيفن بروك في مقال عن السياسة الخارجية نشراه عام ٢٠٠٧: «إن جماعة الإخوان المسلمين تشمل ضروبًا مختلفة عديدة من الجماعات». ويستدركان قائلين: «بيد أنها جميعًا ترفض الجهاد العالمي في الوقت الذي تؤمن فيه بالانتخابات وبالمقومات الديمقراطية الأخرى»[3]. كذلك ورد في نص مبادرة جماعة الإخوان المسلمين

---

(١) نقلاً عن «حماس». مجلس العلاقات الخارجية.
http://www.cfr.org/ israel/hamas/p8968#p6

(٢) نقلاً عن ريسي إرليخ، نقاشات مع إرهابيين (مطبعة بوليبوينت، ٢٠١٠)، ٤٤.

(٣) روبرت ليكن وستيفن بروك، «حركة الإخوان المسلمين المعتدلة»، الشؤون الخارجية، مارس/ آذار -أبريل/ نيسان ٢٠٠٧، ١٠٨.

المصرية للإصلاح عام ٢٠٠٤ الآتي: «لا يمكن أن يتحقق الإصلاح الشامل إلا عبر تحقيق الديمقراطية، التي نؤمن بها، والتي نلزم أنفسنا بالأسس التي بنيت عليها»[١]. ويعقد الباحث الفرنسي جيل كيبيل مقارنة ملائمة بين جماعة الإخوان المسلمين وبين الشيوعيين الأوروبيين، في حقبة السبعينيات، الذين انشقوا عن العقيدة السوفياتية بغية مشاركتهم في انتخابات ديمقراطية، وليعلنوا صراحة عن انتهاج سياسة خارجية مبنية على مزيد من الحياد[٢].

أولئك الذين يعملون في المجتمعات المسلمة شديدو الوضوح حيال التميز بين الإسلام السياسي وبين المقاتلين الذين يتوسلون العنف. في مثال معبّر تجدر الإشارة إليه، عملت السلطات البريطانية مع جمعية بريطانيا الإسلامية، وهي فرع غربي من فروع جماعة الإخوان المسلمين، على استعادة مسجد فينسبري بارك من سيطرة أتباع «أبو حمزة»، وهو رجل دين مصري متطرّف. ويعتقد روبرت لامبرت (الرئيس السابق لوحدة الاتصال بالمسلمين في شرطة العاصمة لندن، وأحد العقول المدبرة لسيطرة جمعية بريطانيا الإسلامية على مسجد فينسبري بارك) أن «جماعات مثل جمعية بريطانيا الإسلامية وحتى السلفيين الذين ينبذون العنف، هم وحدهم القادرون على التصرف بأسلوب يقبله جيل الشباب في تحديهم للرواية التي يتبناها تنظيم القاعدة، وفي التأثير في المسلمين الشباب»[٣].

لقد شهد الإسلام السياسي، بعبارة أخرى، تحولاً رئيسًا. وعلى الرغم من أن عددًا أصغر من المقاتلين ما انفكوا يعتنقون الإرهاب فكرًا، إلا أن كل القوى الإسلامية الرئيسة تحركت في الاتجاه المعاكس. في غضون ذلك، وفقًا لما

---

(١) لورنزو فيدينو، حركة الإخوان المسلمين الجديدة في الغرب (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ٢٠١٠)، ٥٩.

(٢) المرجع نفسه، ١١١.

(٣) المرجع نفسه، ٢١٩.

يراه المحلل آليستير كروك: دمج «فاشيي الإسلام» القاعدة وحركات الإسلام السياسي هذه في بوتقة واحدة، وهما تشكيلان لهما أهداف متناقضة، أفاد فقط في تقوية أولئك الذين يريدون تدمير النظام»[1].

وثار اهتياج أيضًا داخل أروقة الدين، إذ تحدى علماء وباحثون مثل طه حسين، وأمين الخولي، وأحمد خلف الله فكرة أن القرآن هو كلام الله الحرفي[2]. أسهمت كذلك نساء مسلمات هن: الإمام أمينة ودود، والأستاذة الجامعية والناشطة إنغريد ماتسون، وزينة أنور المنتسبة إلى المجموعة الماليزية للأخوات في الإسلام؛ أسهمن في النظر إلى ممارسة الإسلام من منظور نسوي. جون إسبوزيتو(المتخصص في الإسلام الذي كان سابقًا في المعهد اللاهوتي الكاثوليكي) يعقد مقارنة بين التغييرات التي تحدث داخل الإسلام، وبين التحولات داخل المذهب الكاثوليكي التي توجت في المجمع الفاتيكاني الثاني بين عامي ١٩٦٢ و١٩٦٥. يذكرنا إسبوزيتو بأن ذاك المجمع كان طليعة الإصلاحيين الذين أحدثوا فارقًا. ويقول: «في العالم الإسلامي، ثمة مجموعة تنمو وتتسع بسرعة، هي مجموعة مهمة إلا أنها ما تزال طليعة للإصلاحيين الدينيين المسلمين. ولم يعد الأمر مقتصرًا على شخصيات بارزة من الجيل الأقدم عهدًا، بل تعداه إلى جيل الشباب الأحدث عهدًا؛ أولئك الذين تلقوا تعليمهم داخل بلدانهم أو في البلاد الغربية، حيث أُنعِمَ النظر كثيرًا واستمر التفكير طويلاً بشأن التعددية الدينية»[3].

وفي الحقل الاقتصادي، أيضًا يتغير العالم الإسلامي بسرعة. ففي تركيا، على سبيل المثال، لم يكن الإسلام فقط عنصرًا مهمًّا في التغيير السياسي، بل

---

(١) آلآستر كروك، المقاومة (لندن: بلوتو، ٢٠٠٩)، ٨١.

(٢) مجلس هولندا العلمي للسياسة الحكومية، دينامية النشاط الإسلامي (أمستردام: مطبعة جامعة أمستردام، ٢٠٠٦)، ٣٧.

(٣) مقابلة مع جون إسبوزيتو، ٢١ يناير/ كانون الثاني ٢٠١١ (عبر الهاتف).
http://www.fpif.org/articles/interview_with_john_esposito.

كان أيضًا في صميم الطفرة الاقتصادية التي تشهدها البلاد في مطلع القرن الحادي والعشرين. لقد أصبحت اسطنبول مركزًا للنشاط البشري، والتفكير، وإيجاد طبقة اتجهت في آن معًا غربًا نحو أوروبا والولايات المتحدة، وشرقًا نحو الشرق الأوسط وآسيا الوسطى. منطقة وسط الأناضول ومدينتها الرئيسة، قيصري، التي كانت تعد فيما مضى منطقة متخلفة ومنعزلة، أضحت مركزًا حيويًا للتصنيع. ووفقًا لتقرير مبادرة الاستقرار الأوروبية المؤثر الصادر عن تركيا عام ٢٠٠٥، فإنه «بينما بقيت الأناضول محافظة اجتماعيًا ومجتمعًا دينيًا، فهي إلى ذلك تجتاز مرحلة إصلاح إسلامي صامت. ويعزو عدد من كبار أرباب الأعمال في قيصري نجاحهم الاقتصادي إلى شعورهم القوي بالمسؤولية»[١].

لقد اقترنت هذه التغيرات السياسية والاقتصادية بالثورة التكنولوجية وتلقت منها الدعم والمساندة. يعدل المسلمون أجهزة استقبال البث الفضائي بحيث يصبح بوسعهم مشاهدة برامج تلفزيون الجزيرة؛ للحصول على طائفة أوسع من الأخبار والتعليقات مما كان متاحًا تقليديًا.

والدعاة الذين يطلون على المشاهدين عبر شاشات التلفاز (مثل: أحمد الشقيري في المملكة العربية السعودية، وعمرو خالد في مصر، وآجيم في إندونيسيا) استقطبوا أعدادًا هائلة من المعجبين والمتابعين والمناصرين تبعًا للرسالات المعتدلة الوسطية التي يبثونها[٢]. ويفوق معدل النمو السنوي

---

(١) الكالفينون الإسلاميون، «مبادرة الاستقرار الأوروبية»، ١٩ سبتمبر/ أيلول٢٠٠٥.
http://www.esiweb.org/index.php?lang=en&id=156&document_ID=69.

(٢) روبرت وورث، «التبشير بالإسلام المعتدل والتحول إلى نجم تلفزيوني»، نيويورك تايمز، ٢يناير/ كانون الثاني، ٢٠٠٩.
http://www.nytimes.com/200903/01//world/middleeast/03preacher.html?_r=1&pagewanted=all;
انخفضت شعبية جيم عندما تزوج للمرة الثانية في عام ٢٠٠٦ نوفمبر/ تشرين الثاني، إلا أنه واظب على بذل الجهود الرامية إلى استعادة أنصاره. انظر جيمس بي وستري، Aa Gym داخل أندونيسيا أكتوبر/ تشرين الأول - نوفمبر / تشرين الثاني ٢٠٠٧.
http://www.insideindonesia.org/edition-90/aa-gym.

لاستخدام الإنترنت في العالم الإسلامي مثيله في البلدان النامية الأخرى، حيث ما برح متوسط عدد المستخدمين يتضاعف مرة كل ثمانية أشهر منذ عام ٢٠٠٠ وحتى الآن[١]. وأصبح تويتر وفيس بوك أداتين أساسيتين للمشاركة المدنية؛ مشاركة وصلت إلى حد الإسهام في الإطاحة بأنظمة حكم استبدادية، كما أثبت بوضوح الربيع العربي[٢].

الهوس الاكتئابي:

في منتصف ثمانينيات القرن العشرين، لم تستجب الولايات المتحدة من فورها للتغيرات التي كانت تحدث في الاتحاد السوفياتي في ظل قيادة ميخائيل غورباتشوف. لقد كان من الصعوبة بمكان على صانعي السياسات، الذين أمضوا جل أعمارهم في ظل الخرافات التي كانت تنسج عن النزعة التوسعية للاتحاد السوفياتي، وتنفسوا هواء تلك الخرافات، أن يعترفوا بأن غورباتشوف ربما كان يحقق إنجازًا رائعًا عبر برنامجه المتعلق بالغلاسنوست والبريسترويكا. ففي وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، أحيا روبرت غيتس النزاعات مع وزارة الخارجية الأميركية؛ بسبب نزوعه إلى الشك حيال الطبيعة الحقيقية لإصلاحات غورباتشوف[٣]. لقد افترض جهاز السياسة الخارجية المحافظ أن غورباتشوف كان يمارس خداعًا، محاولاً إغراء الولايات المتحدة لجعلها تتهاون وترضى عن ذاتها رضى مصحوبًا بغفلة عن الأخطار المحدقة بها، قبل أن تستأنف جهودها الرامية إلى بسط نفوذها وتعزيز قوتها[٤].

---

(١) «بين عامي ٢٠٠٠ - ٢٠١٠، بلغ معدل النمو السنوي المركب لمستخدمي الإنترنت ٣٢٪، مقارنة مع ٢٤٪ لباقي أرجاء العالم النامي». فيليب هوارد، الأصول الرقمية للدكتاتورية والديمقراطية، ٣٢، ٣٧.

(٢) نوح فيلدمان، بعد الجهاد، ٨.

(٣) فريد كبلان، «المحترف» مجلة نيويورك تايمز، ١٠ فبراير/ شباط٢٠٠٨.
http://www.nytimes.com/200810/02//magazine/10gates-t.html?_r=2&pagewanted=all.

(٤) تم اكتشاف هذه الديناميات عند جون فيفر، في ما وراء الانفراج (نيويورك: مطبعة نونداي، ١٩٩٠)، ١١٦-٢٩.

ويستمر هذا الهوس الاكتئابي في إصابة واشنطن بمرض يجعلها ترى أن الحركة الإسلامية حلت محل الشيوعية. ويقاوم صانعو السياسة النظر إلى تطور الإسلام السياسي، ويخفقون في التمييز بين الأطياف المختلفة. وفي سيناريو الحالات الأشد سوءًا يعزون سمات «شمولية» إلى ما أثبت أنه قوة دمقرطة حيوية في العالم الإسلامي. إن المفاهيم المغلوط فيها لليبراليي الجهاد وحلفائهم من اليمين المتطرف، تعكس نهج تنظيم القاعدة في جمع كل القوى المختلفة للغرب الكافر في بوتقة واحدة دونما تمييز. فالحال الآن هي كما كانت عليه إبان الحرب الباردة، حيث يشد المتشددون بعضهم أزر بعض.

إن استمرار الخرافات الصليبية وانتقالها إلى نطاق حرب باردة يساعدان في تفسير سبب بقاء الغرب عاجزًا عن فهم الإسلام بصورة جوهرية. هذه الخرافات القديمة والقادرة على الصمود طويلاً لا تشرح، في أية حال، شرحًا وافيًا سبب الازدياد الكبير المفاجئ، في الآونة الأخيرة، في كراهية الإسلام في الولايات المتحدة بعد عدة سنوات من الهدوء النسبي. لفهم هذا الأمر، تتعين علينا العودة إلى الحرب الثالثة التي لمّا تضع أوزارها بعد: الحرب العالمية على الإرهاب التي شنها جورج بوش الابن بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر.

الفصل الثالث

إطلاق الحرب الصليبية الثانية

عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول مباشرةً، بدا الأمر كما لو كانت الحروب الصليبية تنطلق من جديد، بكل ما في الكلام من معنى. ففي خطابه الذي ألقاه يوم الأحد الذي أعقب الهجوم، أطّر الرئيس الأميركي جورج بوش الابن الصراع بين الولايات المتحدة وأعدائها بوصفه حرب الخير ضد الشر، ثم تلفّظ بعبارة جعلت حلفاءه الأوروبيين والمسلمين حول العالم ينكمشون ذعرًا، إذ قال الرئيس: «هذه الحملة الصليبية، هذه الحرب على الإرهاب سوف تستغرق بعض الوقت». وقال صهيب بن شيخ كبير في جامع مرسيليا في فرنسا وقد تملكه الأسى تعقيبًا على ذلك: «لقد كانت عبارة حملة صليبية مؤسفةً للغاية، فهي تعيد إلى الأذهان صور العمليات العسكرية الوحشية والظالمة ضد العالم الإسلامي»[1]. إنها تذكر أيضًا بخطاب تنظيم القاعدة وحلفائه الذين استهدفوا بجهادهم اليهود والصليبيين في عام ١٩٩٨ [2].

---

(١) بيتر فورد، «أوروبا تتملق لحملة بوش «الصليبية» ضد الإرهاب»، كريستشن ساينس مونيتور، ١٩ سبتمبر/ أيلول ٢٠١٠.
http://www.csmonitor.com/20010919//p12s2-woeu.html.

(٢) «الجهاد ضد اليهود والصليبيين»، الجبهة الإسلامية العالمية فبراير/ شباط ٢٣، ١٩٩٨.
http://www.fas.org/irp/world/para/docs/980223-fatwa.htm.

اعتذرت إدارة بوش من فورها عن الإشارة إلى الحملة الصليبية، ثم استخدم الرئيس العبارة ذاتها مرةً أخرى في كلمة ألقاها أمام القوات الأميركية والكندية في ألاسكا، محاكيًا عبارةً كان قد استخدمها أيزنهاور: «حملة صليبية دفاعًا عن الحرية». إلا أن تلك الكلمة وضعت نهايةً للحديث المباشر والصريح عن الحملة الصليبية[1]. في الواقع تخلى البنتاغون عن الاسم الرمزي الذي أطلق على عمليات غزو الولايات المتحدة لأفغانستان في أكتوبر/ تشرين الأول من عام ٢٠٠١، -عملية عدالة بلا حدود- مخافة الإساءة إلى جماهير المسلمين عبر الإيحاء بأن قوات الولايات المتحدة الأميركية المسلحة، بدلاً من الله وحده، بوسعها أن تقيم عدالة مطلقة من هذا القبيل[2].

لقد تجاوز الرئيس هذه الإيماءات الرمزية؛ ففي خطاباته التي ألقاها في الأيام الأولى، بذل قصارى جهده للتمييز بين الإسلام وبين الأعمال التي تقوم بها القاعدة. وقال في خطاب ألقاه في الكونغرس في العشرين من سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠١: «إن ممارسات الإرهابيين نموذج متشدد ومتصلّب من التطرف الإسلامي مرفوضة ومنبوذة من قبل العلماء المسلمين، والغالبية الساحقة من رجال الدين المسلمين؛ وهي نتائج حركة مغالية في التصلّب تحرّف التعاليم السمحة للدين الإسلامي»[3].

هذا التمييز بين الإسلام بوصفه دينًا، وبين تصرفات بعض المسلمين حذا حذو النموذج الذي أنشأته إدارة كلينتون في تسعينيات القرن العشرين[4].

---

(١) الرئيس يحشد القوات في ألاسكا، البيت الأبيض، ١٦ فبراير/ شباط ٢٠٠٢.
http://georgewbush-whitehouse.archives.gov/news/releases/20021-20020216/02/.html.

(٢) «البنتاغون في صدد تغييراسم العملية»، مركوري نيوز، ٢٠ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١.
http://wwrn.org/articles/5019/.

(٣) «نص كلمة الرئيس بوش»، سي إن إن، ٢١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١.
http://articles.cnn.com/200120-09-/us/gen.bush. transcript_1_joint-session-national-anthem-citizens/2?_s=PM:US. .

(٤) بعد الغارات الجوية الانتقامية التي استهدفت السودان وأفغانستان في أعقاب تفجير السفارتين عام ١٩٩٨، «بذل الرئيس كليتون جهودًا خاصة للتمييز بين الإسلام والإرهاب، وبين إيمان المسلمين وتشويه هذا الإيمان من قبل أولئك الذين يرتكبون أعمالاً إرهابية باسم الإسلام». جون إسبوزيتو، التهديد الإسلامي (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٩)، ٢٧٧.

وفي الوقت ذاته، كانت المشاعر المعادية للإسلام تتصاعد على نحو خطير، ففي اليوم اللاحق للحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، أكدت اللجنة الأميركية- العربية لمناهضة التمييز صحة ثلاثين تقريرًا عن مضايقات اتسمت بالعنف[1]. وكان مكتب التحقيقات الفيدرالي الأميركي قد فتح أربعين تحقيقًا في جرائم كراهية استهدفت أميركيين عربًا. كما أبلغ مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية عن حدوث ثلاثمائة وخمسين هجومًا في الأسبوع الذي أعقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول[2]. كما ارتكب ما لا يقل عن خمس جرائم تتعلق بالتحيز بُعَيْدَ وقوع الأحداث مباشرةً[3].

وفي تحرك مهم، زار الرئيس مسجدًا في واشنطن العاصمة يوم الاثنين اللاحق للهجمات، وأعلن بوضوح شديد عن مناهضته للإرهاب الموجه ضد الأميركيين المسلمين حين قال: «أولئك الذين يشعرون أن في وسعهم تخويف إخواننا المواطنين تنفيسًا عن غضبهم، لا يمثلون أفضل من في أميركا، بل هم يمثلون أسوأ بني البشر، وينبغي أن يتملكهم الخجل من هذا الضرب من

---

(١) جانيل براون، «المشاعر المعادية للعرب تجتاح الولايات المتحدة»، سالون، ١٣ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١.

http://www.salon.com/news/feature/20013/09//backlash.

(٢) دانا ميلبانك وإميلي واكس، «بوش يزورمسجدًا في مبادرة لإحباط جرائم الكراهية»، واشنطن بوست، ١٨ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١.

http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn?pagename=article&node=nation/specials/attacked&contentId=A468322001-Sep17&notFound=true.

(٣) بالبير سينغ سودى في ميسا، أريزونا، في الخامس عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١؛ وقار حسن في دالاس، تكساس، في الخامس عشر سبتمبر/ أيلول٢٠٠١؛ عادل كاراس في سان غابرييل، كاليفورنيا، في الخامس عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١؛ علي المنصوب في ديترويت، ميشيغان، في الحادي والعشرين من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١؛ وفاسوديف باتيل في المسكيت، تكساس، في الرابع من أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠١. انظر نادين نبر، «انظر، محمد، الإرهابي قادم» عند أماني جمال ونادين النبر، ناشرتان. العرق والعرب الأميركيون بعد الحادي عشر من أيلول (سيراكيوس، نيويورك: مطبعة جامعة سيراكيوس، ٢٠٠٨)، ٢٨٩

السلوك»[1]. لقد كان لهذا الخطاب ولهذا التدبير أكثر من مجرد قيمة رمزية؛ إذ أخبر ممثل المنظمة القومية الرئيسة للدفاع عن العرب الأميركيين الباحثين آني بكليان ومهدي بزرجمهر أن «ظهور الرئيس بوش في المسجد أنقذ حياة كثير من الناس»[2]. كما أخبر مستشار رئاسي الباحثين عن تأثيره في الرئيس بوش قائلاً، قلت له: «ينبغي أن يزور الرئيس مسجدًا، ويتعين عليك أن تقول: كنائس، ومعابد يهودية، ومساجد. وعندما يقولون: يهو-مسيحية، عليك أن تقول: مسيحيون، ومسلمون، ويهود، وهكذا إن لاحظتما، بدأ بوش يستخدم هذا الأسلوب»[3].

ومضت الإدارة الأميركية حتى إلى ما هو أبعد من ذلك في خطب ود المسلمين وإظهار اهتمامها بهم. فقد أجرى مسؤولو الولايات المتحدة مقابلات عبر قناة الجزيرة في الشهرين اللذين أعقبا هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول أكثر من تلك التي أجروها معها طوال سنوات وجود الشبكة في واشنطن[4]. وفي أكتوبر/ تشرين الأول من عام ٢٠٠١، طلبت وزارة الخارجية من المدير الإعلاني التنفيذي شارلوت بيرز، أن يقود مبادرة جديدة تذهب إلى أبعد ما يمكن، وتخاطب العالم الإسلامي بوصف ذلك جزءًا من جهد يرمي إلى كسب «قلوب المسلمين وعقولهم» على الصعيد العالمي.

إلا أن كل هذه الجهود المتميزة الرامية إلى خطب ود «المسلمين الصالحين» وعزل «المسلمين الطالحين»، تمخّضت في نهاية الأمر عن صعوبات واجهتها أكبر حملة استراتيجية نفذتها إدارة بوش؛ فتنفيذ هذه الحملة أساء أيّما إساءة إلى مسلمين من كل الأطياف والأنواع دونما تمييز. من ذلك أن

---

(١) «بوش ينتقد الهجمات على الأميركيين العرب» شبكة ايه بي سي الإخبارية، ١٧ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١.
http://abcnews.go.com/US/story?id=92486&page=1.

(٢) آني باكاليان ومهدي بزرجمهر، رد فعل عنيف ١١/ ٩ (باركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٩)، ١٧٣.

(٣) المرجع نفسه، ١٨١

(٤) آر. اس. زهارنه، معارك للجسور (نيويورك: بالغريف ماكميلان، ٢٠١٠)، ٣٠.

قوات التحالف أقدمت، بعد سقوط حركة طالبان في أفغانستان، على ضرب طوق حول مسلمين يشتبه بأنهم مقاتلون، كانوا من التنوع ومن انعدام احتمال أن يكونوا مقاتلين إلى حد وجود فتىً تشادي بينهم يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، ورجل أفغاني في السبعين من عمره قد وهن العظم منه. حتى عندما كان الرئيس يعمل على استرضاء المسلمين الأميركيين، عبر خطاباته وزياراته للمسجد، كان مستشاروه وكتبة خطاباته يشرعون في تأطير الصراع الناشئ بوصفه أكثر من مجرد معركة ضد منظمة إرهابية صغيرة، أو ضد حكومة أفغانستان التي وفرت ملاذاً لها. وفي الخطاب ذاته الذي ألقاه في الكونغرس وأشاد فيه بالإسلام بوصفه دين سلام، أطلق الرئيس التحذير الآتي: «على كل أمة، في كل بقعة من بقاع الأرض أن تحزم أمرها، الآن، وتتخذ قرارها، فإما أن تكونوا معنا، أو مع الإرهابيين». تقسيم العالم هذا إلى أسود وأبيض أعاد إلى الأذهان الثنائية القطبية في حقبة الحرب الباردة، والثوابت اللاهوتية للحروب الصليبية. ولم يترك الرئيس أي مجال للمسلمين أو لأي أحد آخر لاتخاذ موقف وسط. إذ لا مكان (فيما يرى) لأحد يدين هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، لكنه يعارض كذلك العسكرة المتزايدة لسياسة الولايات المتحدة الخارجية.

كان في وسع إدارة بوش أن تعامل هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول بوصفها جريمةً ارتكبت من قبل مجموعة مكافئة في إجرامها لعصابة مافيوية، إلا أنها ذهبت بدلاً من ذلك إلى الحرب. تلك الحروب دارت رحاها في بلاد مسلمة. وعلاوة على ذلك، لم تكن الخطة مقتصرةً على معاقبة حركة طالبان لإيوائها تنظيم القاعدة. وحتى خلع صدام حسين، الذي لم تكن ثمة علاقة تربطه بأحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، لم يكن سوى هدف وسيط. وكان لدى نائب الرئيس ديك تشيني، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، وغيرهما من المحافظين الجدد العاملين في الإدارة، الذين أمضوا عقودًا عديدة وهم يترقبون هذه الفرصة بغية إحداث تغيير جذري، كانت لديهم خطة أكثر طموحًا بكثير: خطة ترمي إلى إعادة رسم خارطة الشرق الأوسط. فقد كانوا

يأملون، عبر إسقاط الديكتاتور في العراق (ومن ثم الانتقال إلى نظامي الحكم في إيران وسوريا) في إحداث موجة من الديمقراطية في المنطقة، وفي تعزيز موقع إسرائيل في ما يتعلق بالعلاقة مع جيرانها ومع الفلسطينيين. لقد كان تصميمهم على هذه الخطة شديدًا إلى الحد الذي جعلهم لا يلقون بالاً إلى احتمال أن تفضي الانتخابات في المنطقة (كما حصل في الجزائر عام ١٩٩١) إلى منح حق الاقتراع إلى الإسلاميين الذين يخشونهم[١].

ثمة أمور كثيرة مشتركة بين صليبيي العصر الراهن ونظرائهم من صليبيي الحملة الصليبية الأولى، حيث إن ما يقومون به من أعمال مؤطر باللاهوت المانوي. وخصومهم من المسلمين، وحلفاؤهم مسيحيون في المقام الأول. وهدفهم تحويل منطقة الشرق الأوسط، وتكتيكاتهم عسكرية. وقد تبين أن أهدافهم الجوهرية ليست تلك المعلن عنها. وربما الأمر الأكثر أهمية هو أن رهانات الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية كلتيهما هي الأعلى على الإطلاق. فالحضارة ذاتها عرضة للخطر، ولا شيء سوى «حرب عالمية على الإرهاب» ضد «محور الشر» يمكن أن ينقذ الغرب.

إيجاد سابقة:

تأخر ظهور الولايات المتحدة كثيرًا بوصفها طرفًا في الحروب الصليبية. وقد كانت إحدى مزايا العالم الجديد النسبية القطيعة التامة، التي وعدت بها، مع حروب العالم القديم وتعصّبه الديني. وفي أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، وفيما كانت حكومة الولايات المتحدة تجمع الأجزاء المختلفة لحرب عالمية أُريدَ منها استهداف المسلمين في الوطن وخارجه، كان

---

(١) نصح بعض المهتمين، مثل ريويل مارك جيرشت، صناع السياسة في الولايات المتحدة بعقد سلام مع الإسلامويين. قد يقض مضاجع كثير من الإسرائيليين ومؤيديهم الأميركيين توقع استبدال الديكتاتوريين على اتفاقيات سلام مع إسرائيل بأصوليين يحتمل أن يؤسسوا جزئيًا لإجماع ديمقراطي مناهض للصهيونية. لكن تحت هذا المجاز الصعب تقبع نهاية للبن لادنية ولشبح مدينة أميركية هوجمت بأسلحة دمار شامل، حسبما جاء في كتاب لجيرشت تحت عنوان المفارقة الإسلامية (واشنطن: مطبعة معهد المؤسسة الأميركية، ٢٠٠٤)، ٥٨.

المدافعون عن هذا الجهد المبذول يسارعون إلى إيجاد أمثلة عن انحياز أميركا الموالي للمسلمين. فالأب المؤسس توماس جيفرسون كان يحتفظ بنسخة من القرآن، وأظهر كل ما يوحي بأنه قرأها. ومضت إدارة كليتون إلى الحرب لتحمي المسلمين البوسنيين والكوسوفيين. وكان مسلمو أميركا، في الوقت ذاته، يتمتعون بالحرية الدينية، ودخل الأسرة عند مسلمي أميركا مساوٍ لمعدل دخل الأسرة الأميركية أو أعلى منه قليلاً، وحصولهم على شهادات جامعية يبلغ ضعف المعدل القومي[1]. وأولئك الذين يحاولون الوصول إلى قلوب المسلمين وعقولهم عملوا جاهدين على خلق انطباع بأن الولايات المتحدة صديقة للمسلمين في كل مكان، وقد كانت دومًا كذلك.

إلا أن ثمة قصةً مضادةً روّج لها وعّاظ وساسة ونقّاد، أصرّت على أمر مختلف تمامًا، وهو أن اكتشاف أميركا تمخّض عن باعث مناوئ للمسلمين، وأن المؤسسات العسكرية المركزية للبلد انبثقت عن معارك نشبت ضد المسلمين، وأن الحرب على الإرهاب لم تكن انحرافًا في تاريخ الولايات المتحدة، بل استمرارية لهذا التاريخ. فواعظ العنصرية رود بارسلي، على سبيل المثال، أعلن أن «أميركا إنما أُسِّستْ، في جانب منها، بغية رؤية الدين المضلِّل [الإسلام] قد قضي عليه»[2]. ولم يكن هذا مجرد تهديد من منبر الوعظ. فكولمبوس الذي تصادف «اكتشافه» مع طرد اليهود ومن ثَمَّ المسلمين من إسبانيا التي اتخذها موطنًا له، أراد حقًّا أن يستعمل الأرباح الناتجة عن تجارة التوابل لمحاربة الإسلام في الهند، وللحصول في نهاية المطاف على ضالة الحروب الصليبية المنشودة المقدسة، وهي إعادة غزو القدس[3].

---

(١) لورينزو فيدينو، حركة الإخوان المسلمين الجديدة في الغرب، ٦.

(٢) أخبر أحمد، رحلة في أميركا (واشنطن العاصمة: معهد بروكينغز، ٢٠١٠)، ٤٣٥.

(٣) في نهاية رحلته الأولى، كتب كولومبوس أن هدفه كان «غزو العالم، ونشر العقيدة المسيحية، واستعادة الأراضي المقدسة والحرم القدسي الشريف». فؤاد شعبان، من أجل صهيون (لندن: بلوتو ٢٠٠٥)، ٢٢. عدوه اللدود، فاسكو دي جاما، أطلق أيضارحلاته الاستكشافية في اتجاه معاكس إلى المحيط الهندي لـ«هزيمة الإسلام وتوحيد المسيحيين شرقًا وغربًا». انظر نايجل كليف، الحرب المقدسة (نيويورك: هاربر كولينز، ٢٠١١).

ومفتاح الزعم الثاني المتعلق بمناهضة مؤسسات الولايات المتحدة العسكرية لنسب المسلمين، يمكن الوقوف عليه في ترنيمة مشاة البحرية ومطلعها: «من قاعات مونتيزوما إلى شواطئ طرابلس». لقد مضت الولايات المتحدة، في عام ١٨٠١، إلى الحرب ضد دول شمال إفريقيا البربرية المسلمة (طرابلس، والجزائر، وتونس)؛ لأن قراصنتها استولوا على سفن أميركية واحتجزوا بحارتها واتخذوهم رهائن.

وأثناء هذه الحرب التي شنت ضد القراصنة البرابرة ودامت أربع سنوات، نجحت قوات مشاة البحرية الأميركية في شن غارة جريئة على ميناء درنة الطرابلسي. وقد استحث التمهيد للحرب أيضًا أول إنفاقات رئيسة من حكومة الولايات المتحدة على سلاح البحرية الخاص بأعالي البحار الذي كان يحتمل أن يخوض حروبًا في أماكن بعيدة[١]. وبالنسبة لمؤرخين مثل روبرت كاغان، فقد استهلت الحروب البربرية ما سمي لاحقًا تاريخًا مميزًا للإمبراطورية، وهو بذلك عقد مقارنة تكشف عن فروقات صارخة مع الحكمة التقليدية القائلة: إن الولايات المتحدة اضطرت إلى السيطرة على دول أخرى وهي كارهة لذلك[٢].

يرى بعضهم أن الحروب البربرية سابقة مفيدة ومثال يحتذى بالنسبة لبلد على وشك الشروع بشن «حرب خيرة» ضد مسلمين أشرار. فبعد حدوث هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول بوقت قصير، استشهد أستاذ القانون جوناثان ترلي في جلسة استماع للكونغرس بالحرب التي شنت على القراصنة البرابرة؛ تبريرًا لانتقام الولايات المتحدة من الإرهابيين المسلمين[٣]. كما أشار المؤرخ توماس جيويت، والصحافي المحافظ جوشوا لندن، والمدير التنفيذي للائتلاف المسيحي في ولاية واشنطن ريك فورسيه، جميعهم إلى أولئك

---

(١) المرجع نفسه ٧٩-٨٠.

(٢) روبرت كاغان، الأمة الخطيرة (نيويورك: كنويف، ٢٠٠٦).

(٣) ريتشارد ليبي، «إرهابيون باسم آخر» واشنطن بوست، ١٥ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠١.
http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A597202001-Oct14?language=printer.

القراصنة بوصفهم راديكاليين بصورة استباقية؛ للتأكيد على استحالة إجراء مفاوضات، ولضرورة الجنوح للحرب، آنذاك (زمن الحرب ضد القراصنة البرابرة) وفي الوقت الراهن على حد سواء[1].

في الواقع، كان الدور الذي لعبه الدين في مواجهة الولايات المتحدة للقراصنة البرابرة ضعيفًا، حيث كان الصراع يتمحور إلى حد بعيد حول تأمين حركة حرة للتجارة[2]؛ فالقراصنة (الذين كانوا مهتمين بالغنائم قبل كل شيء) من الصعوبة بمكان أن يُعدُّوا إرهابيين، وما كان أضعف ممارساتهم المتعلقة بالاسترقاق إذا ما قورنت بممارسات الولايات المتحدة في ذلك العصر. وفي النهاية، لم تصلح الحروب البربرية بوصفها سابقة تُحْتَذى، ويبنى عليها في الأعمال الانتقامية التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول.

على أية حال، ثمة حالة مماثلة مثيرة للاهتمام: إنها استعمال التفجير الانتحاري. بيد أن من استهلت استعمال هذا التكتيك هي الولايات المتحدة في الرابع من سبتمبر/ أيلول من عام ١٨٠٤. كان سلاح الولايات المتحدة البحري شديد الحاجة إلى اختراق دفاعات العدو في طرابلس؛ فاختار العميد البحري إدوارد بريبل (الذي كان يقود أسطول المتوسط الثالث) خدعة حربية غير عادية: إرسال مركب مفخخ تابع لقوات البحرية الأميركية إلى خليج طرابلس؛ لتدمير أكبر عدد ممكن من سفن العدو. وقد حمله بحارة الولايات المتحدة عشرة آلاف رطل من البارود إضافةً إلى مائة وخمسين قذيفة، ثم تطوعوا بتفجير أنفسهم مع القارب كي لا يقعوا في الأسر؛ مخافة أن يخسروا بارودًا ثمينًا جدًّا

---

(١) توماس جوييت «الإرهاب في باكورة أميركا» مراجعة لأميركا في البدايات، شتاء/ ربيع ٢٠٠٢.
http://www.earlyamerica.com/review/2002_wintespring/terrorism.htm,
جوشوا لندن «إرهابيو أميركا المغرقون في القدم» المراجعة القومية، ١٦ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٥.
http://www.nationalreview.com/ comment/london200512160955.asp;
فورسيرنقلاً عن فرانك لامبرت، الحروب البربرية، ٨.

(٢) فرانك لامبرت، الحروب البربرية (نيويورك: هيل وانغ، ٢٠٠٥).

ويكسبه العدو. وفي النهاية، لم ينجم عن الانفجار أذى كبير؛ إذ غرقت سفينة طرابلسية واحدة في الحد الأقصى. بيد أن أفراد الطاقم قتلوا من غير ريب، تمامًا كما إن مقتل الرجلين اللذين فجّرا قاربًا غاصًّا بالمتفجرات في المدمرة كول التابعة لسلاح البحرية الأميركية في خليج عدن بعد مائتي عام لا ريب فيه أيضًا. وعلى الرغم من فشل المهمة، تلقى بريبل سيلاً من الثناء على استراتيجياته، حتى من البابا الذي قال فيه: «القائد الأميركي قدم للمسيحية، بقوة صغيرة وفي زمن ضيق، أكثر مما قدم لها أكثر أمم العالم المسيحي قوةً على مدى عصور!»[1]. بهذا العمل الأوحد، أثبتت الولايات المتحدة أن في وسعها أن تضاهي الأوروبيين في اللعبة الصليبية.

ولم تستشهد إدارة بوش بالحروب البربرية استشهادًا مباشرًا أثناء توليها أمر شن الحملة الصليبية الجديدة[2]؛ فالجمهور الأميركي استجاب بمزيد من الإيجابية «للحروب الخيّرة» حديثة العهد في الذاكرة، مثل الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة. بيد أن الإدارة فهمت الطبيعة التاريخية للفرصة التي سنحت لها فهمًا راسخًا، شأنها في ذلك شأن الساسة الأميركيين الأوائل الذين أسسوا سلاح الولايات المتحدة البحري الحديث، ومرروا الميزانية العسكرية لدعمه. لقد أفادت هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول بوصفها فرصةً تعبويةً(مثلها في ذلك مثل القراصنة البرابرة، أو استيلاء السلاجقة على القدس في القرن الحادي عشر)، سانحة للإدارة الأميركية للمضي قدمًا في تنفيذ أجندة سياستها الخارجية الرامية إلى تغيير نظام الحكم، وتعزيز الديمقراطية، وإقرار

---

(١) مايكل كتزن، طرابلس والولايات المتحدة في حالة حرب (جيفرسون، نيويورك: ماك فارلاند، ١٩٩٣).

(٢) لم يذكر الرئيس القراصنة في الإشارة إلى السياسية الشرق أوسطية العامة. انظر، على سبيل المثال، «ملاحظات الرئيس جورج دبليو. بوش لمنتدى سابان»، هآرتز، ٨ ديسمبر/ كانون الأول، ٢٠٠٦.
http://www.haaretz.com/news/president-george-w-bush-s-remarks-to-the-saban-forum- 1.258930.

زيادات في الإنفاق العسكري، واستخراج الموارد الطبيعية. وكانت هذه حملة صليبية في الواقع، وإن لم تكن اسميًا كذلك.

الحرب العالمية على الإرهاب ومفاهيمها الخاطئة:

يؤدي الخوف إلى تعطيل التفكير العقلاني. في كتابه طرفة عين، يشرح مالكوم غلادول كيف تشوه ضربات القلب المتسارعة وتدفق الأدرينالين السريع التصورات الفورية للناس الخائفين، فإذا بهم يرتكبون أخطاء، ويرون بنادق حيث لا توجد بنادق، ويسيئون فهم تعابير الوجوه، ويتوصلون إلى استنتاجات خاطئة[1].

بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، فهمت إدارة بوش استخدامات الخوف. وقد تمكن مهندسو سياسة الإدارة المناهضة للإرهاب، عبر جعل البلاد تعيش حالة خوف استغرقت زمنًا طويلاً جدًا، من إحراز تقدم جوهري على صعيد الأجندة التي تفتقر إلى العقلانية. ونتيجة لذلك، أخطأت أميركا في تحديد هوية الإرهابيين؛ فشاهدت أسلحة دمار شامل حيث لا وجود لها، وساندت إشهارًا سريعًا للحلول العسكرية، في الوقت الذي كانت فيه الحلول الدبلوماسية أكثر ملاءمةً. لقد عطّل الخوف التفكير العقلاني للناخبين الأميركيين الذين قبلوا بالاستنتاجات الخاطئة لصانعي السياسة في واشنطن.

بالنسبة لإدارة بوش، أدام جنون الارتياب القابع خلف حملتها المناهضة للإرهاب حملةً صليبية غير محدودة النطاق والزمن، حملةً صليبيةً أكثر تصلّبًا حتى من سياسة كبح جماح الاتحاد السوفياتي إبّان الحرب الباردة. وعلى الرغم من كل شيء، على رغم أجواء الخوف التي أدامتها مناهضة الشيوعية، تفاوضت الولايات المتحدة مع البعبع السوفياتي، إلا أن إدارة بوش التزمت خطًّا أكثر لاهوتيةً.

---

(١) مالكولم غلادويل، طرفة عين (نيويورك: ليتل، براون، 2005).

وقد اشتهر عن نائب الرئيس ديك تشيني قوله: «نحن لا نتفاوض مع الشرير، بل نهزم الشرير»[1]. في نضال من هذا القبيل ضد «الشر»، كل الوسائل يمكن أن تكون مبررة، كما كانت إبّان الحروب الصليبية وفي حقبة محاكم التفتيش. عبر زرع «الخوف من الشيطان» في حقل الرأي العام الأميركي، حصلت إدارة بوش على تفويض مطلق لإحداث تحول لا يقتصر على بعض سياسات الولايات المتحدة، بل يشمل بنية صنع السياسة برمتها.

وتعيد حرب الولايات المتحدة على الإرهاب إلى الذاكرة المواقف الأكثر تطرّفًا التي كانت سائدة إبّان حقبة الحرب الباردة. فصقور السياسة في واشنطن الذين صاغوا التقرير ٦٨ المتعلق بمجلس الأمن القومي، والتفصيل الذي تضمّنه عن حالة الأمن القومي، لم يكونوا راضين بمجرد كبح جماح الشيوعية وفقًا لاستراتيجية جورج كينان التي اتسمت بالحكمة[2]؛ إذ إنهم كانوا يريدون دحر العدو (في أوروبا الشرقية، كوبا، وفي كوريا الشمالية، والصين)، ولم يثنهم في نهاية المطاف عن عزمهم هذا إلا القدرات العسكرية التقليدية والنووية للخصوم الشيوعيين. وعلى النقيض من ذلك، كان جورج بوش الأب محاربًا تقليديًّا في الحرب الباردة، وذلك عبر سياسته التي رمت إلى كبح جماح صدام حسين في حرب الخليج الأولى بدلاً من دحره. أما ابنه وعدد من المستشارين من حوله، فلم يرق لهم هذا النهج مطلقًا؛ فصمّموا الحرب على الإرهاب لتكون انتقامًا وارتدادًا. أطاحوا بحركة طالبان، وأخيرًا تخلصوا من صدام حسين، ثم استأنفوا تحركهم ضد أعضاء آخرين في «محور الشر»، قبل الشروع بالهجوم على مزيد من البلدان المدرجة في القائمة مثل سوريا. لقد كانت هذه حربًا يمكن أن تستمر لتستغرق أجيالاً، وفقًا لما أوحت به الإدارة. لقد كانت حربًا يمكن أن تنشب في

(١) هاميش ماكدونالد، «محادثات تشيني القاسية تحرف مسار المفاوضات مع كوريا الشمالية»، سيدني مورنينغ هيرالد، ٢٢ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٣.

(٢) انظر جون لويس غاديس، استراتيجيات الاحتواء (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٢)، ٨٩ إف إف.

أي مكان ضد أي إنسان ليس «معنا». ومن هذه النواحي، هذه الحرب أقل شبهًا بحرب محددة المعالم، مثل الصراع الذي كان قائمًا في فيتنام، منها بالحروب الصليبية التي دارت في العصور الوسطى والحرب الباردة. واستغرقت الحروب في كلتا الحالتين أجيالاً، وامتدت رقعتها لتشمل أماكن نائية عديدة، واستهدفت مجموعة شديدة التنوع من الخصوم والأعداء الذين لم يكونوا «معنا».

وأخفقت الإدارة، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، في استثمار النوايا الدولية الطيبة التي وجهت إلى واشنطن. أخفقت في استثمارها لإيجاد جهد واسع النطاق ومتعدد الأطراف لمناهضة الإرهاب. حتى إيران قدمت مساعدة للهجوم على حركة طالبان في أفغانستان، وتعاونت سوريا بتقديم معلومات استخباراتية عن المتطرفين الإسلاميين. واستنكر كل من جماعة الإخوان المسلمين وحماس الأعمال الإرهابية. كما أدان مجلس علماء الدين في الأردن ما عدَّهُ «جريمة نكراء»[1]. وأفتى أيضًا الشيخ المصري يوسف القرضاوي وأربعة من علماء الدين الآخرين الموقعين على فتواه بوجوب إحالة مرتكبي جرائم هجمات سبتمبر/ أيلول إلى المحاكمة[2]. وأعلنت منظمة المؤتمر الإسلامي مرارًا وتكرارًا موقفها المناهض للإرهاب بصراحة ووضوح (وليس في هذا ما يثير الاستغراب؛ إذ إن عددًا كبيرًا من الأعمال الإرهابية استهدف أعضاء في المؤتمر)[3]. وفي الداخل أيضًا، أدانت كل المنظمات الإسلامية في الولايات المتحدة تقريبًا هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول. فقد جاء في جزء من بيان من مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية أن «المسلمين

---

(١) آر. إس زهارنه، معارك للجسور، ١٢.

(٢) الإمام فيصل عبد الرؤوف، ما هو الحق مع الإسلام (هاربر- سان فرانسيسكو، ٢٠٠٤)، ١٢٦.

(٣) على سبيل المثال: «منظمة المؤتمر الإسلامي هي الصوت الجماعي للعالم الإسلامي، وواظبت دومًا على الوقوف ضد العنف والتطرف والإرهاب، ومابرحت تعرب عن إدانتها لكل هذه الممارسات التي ترتكب باسم الدين «مكافحة المتطرفين»، مجلة منظمة المؤتمر الإسلامي، سبتمبر/ أيلول، ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٩، ٣.

الأميركيين يدينون بشدة ما بدا جليًا أنه أعمال إرهابية وحشية وجبانة استهدفت مدنيين أبرياء»[1].

وتجاهلت الولايات المتحدة هذا التوافق في الآراء في إطلاقها الحملة الصليبية الجديدة. ورفضت عروضًا واقتراحات من خصوم قديمي العهد في خصومتهم، ورفضت مشورة من كانوا سابقًا حلفاء حميمين. ورسخت سوابق خطيرة سوف تطارد السياسة الخارجية للولايات المتحدة على مدى عقود قادمة. لقد سوّغت إدارة بوش استخدام التعذيب والتسليم السري، وأشرفت على ارتكاب انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان في سجن أبو غريب في العراق، وفي معسكر باغرام في أفغانستان، وفي معسكر دلتا في غوانتانامو في كوبا، وفي سلسلة من مواقع التسليم السري في أوروبا، وفي أماكن أخرى. وقد خرقت الإدارة الأميركية القانون الدولي في سعيها إلى شن حرب وقائية ضد العراق، وفي إجازتها لتنفيذ اغتيالات مستهدفة.

إن تأطير الصراع الدائر مع القاعدة ومؤيديها بوصفه «حربًا» (بدلاً من كونه حملة ترمي إلى تحقيق العدالة الجنائية)، شكل فهمًا تكتيكيًا معينًا لدى إدارة بوش. لم يكن ممكنًا بالطبع استخدام «مناوشات» أو «عمل بوليسي» لحشد القوات، أو إطلاق سياسة خارجية عدوانية جديدة، أو تقييد حريات مدنية على نطاق واسع.

و«الحرب» على كل حال هي ما رغبت فيه القاعدة على وجه الدقة؛ لأنها تنسجم مع اتهام أسامة بن لادن للولايات المتحدة وحلفائها بأنهم صليبيون. إن إعلان الحرب على القاعدة سبك تعابيرها بلغة حضارية ارتقت بالمتطرفين إلى مصاف المحاربين في معركة ذات أبعاد توراتية حقًا. والحروب المحددة التي

(١) للاطلاع على بيان مجلس العلاقات الإسلامية الأميركية وعلى مجموعة بيانات مصنفة مماثلة له صادرة عن منظمات إسلامية أخرى، انظر حملات مجلس العلاقات الإسلامية الأميركية المناهضة للإرهاب:

http:// www.cair.com/AmericanMuslims/AntiTerrorism.aspx.

أعقبت الحرب على القاعدة (في أفغانستان، والعراق، وباكستان)، كانت بمثابة فرص عززت موقع المتطرفين. لقد اكتسب المجاهدون، تدريجيًّا، سمعة عالمية من جراء إلحاقهم هزيمة مدوية بالسوفيات في أفغانستان. كما عززوا سمعتهم في أوساط معينة عبر جرأتهم في مجابهة الصليبيين المعاصرين، والمساعدة في محاربتهم وصولاً بهم إلى أوضاع مأزقية وطرق مسدودة.

وتعاني القاعدة هوسًا بالعظمة، إلا أنها أضحت حركة هامشية في نهاية المطاف، وازدادت تهميشًا بعد اغتيال أسامة بن لادن في عام ٢٠١١. وتعد القاعدة من الضآلة بمكان إذا ما قورنت بالخصم السوفياتي. وقد جاء فيما كتبه المتخصص في شؤون الشرق الأوسط فواز جرجس: «يتراوح عدد الأعضاء المنضوين تحت لواء القاعدة في الحد الأعلى بين ثلاثة آلاف مقاتل وأربعة آلاف. ولا توجد ألوية عسكرية، ولا طائرات مقاتلة، ولا دبابات ثقيلة. وما يوجد في ترسانتها أقل بكثير من أن يكون أسلحة دمار شامل»[1]. لقد خسرت القاعدة، في الواقع، معركتها حتى قبل الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول. وعلى الرغم من كل الألم والمعاناة التي سببتها الهجمات الإرهابية للأميركيين، فإن مهمة القاعدة لم تكن مركّزة على الولايات المتحدة، بل على تحويل العالم الإسلامي. لكن العالم الإسلامي لم يكن يلقي السمع. وكان لجوء القاعدة إلى المشهد الدراماتيكي تكتيكًا ألمعيًّا وجهدًا يائسًا لتعزيز حظوظها في آن معًا، فتحلق بعض العالم الإسلامي حول القاعدة بُريهةً من الزمن، وكان ذلك لمجرد الاعتراض على سياسات الاحتلال الأميركية (أولاً، وجود جنود الولايات المتحدة في المملكة العربية السعودية، ثم في أفغانستان والعراق) لا لإقامة الخلافة العالمية. ووفقًا لمركز أبحاث بيو لقياس المواقف العالمية، تراجع دعم أسامة بن لادن في العالم الإسلامي على نحو مطرد من عام ٢٠٠٣ إلى سنة

(١) فواز جرجس، صعود القاعدة وانحدارها، ١٤.

٢٠١١ [١]. إن استخدام التفجيرات الانتحارية للنهوض بأهداف القاعدة (شأنها شأن جهود اللحظة الأخيرة اليائسة التي بذلها الطيارون الانتحاريون اليابانيون) لم تسفر إلا عن تأكيد هامشية الحركة.

وإن الولايات المتحدة وردها ذا التخطيط والتصميم الرديئين على أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول أداما ذيوع صيت القاعدة، فأسامة بن لادن أراد من الولايات المتحدة أن تستجيب بحملة صليبية، ويعود الفضل لها في إنفاذ إرادته. وإن تغييرًا في سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط (انسحاب كامل وشامل من العراق وأفغانستان، ودعم الحركات الديمقراطية في المنطقة، وقبول الدور الذي يلعبه الإسلاميون في السياسة الديمقراطية، والتوسط في إبرام اتفاق سلام بين إسرائيل والفلسطينيين)، من شأنه أن يحرم تنظيم القاعدة من رموزه التعبوية.

ولم تقتصر مشكلات هزيمة الذات، المتأتية من الحرب على الإرهاب، على أفغانستان والعراق. ففي الصومال، على سبيل المثال، ساعدت معارضة الإدارة الأميركية لاتحاد المحاكم الإسلامية ودعمها للغزو الإثيوبي للبلد عام ٢٠٠٦ في الإبقاء على الصومال دولةً فاشلةً، ومكانًا أكثر ملاءمةً لاختباء الإرهابيين وتواريهم عن الأنظار. وعملت الهجمات التي تقودها وكالة الاستخبارات الأميركية في باكستان باستخدام طائرات مُسَيَّرَة (بدون طيار)، إضافةً إلى انتهاكها قوانين الحظر الأميركية ضد الاغتيالات المستهدفة، على ردكلة السكان في المناطق الحدودية المتاخمة لأفغانستان. كما أدى فتح «جبهة ثانية» ضد المتطرفين المسلمين في جنوب شرق آسيا إلى زيادة الإنفاق

(١) «تراجع حاد وعلى نطاق واسع لمصداقية أسامة بن لادن في أوساط الجماهير الإسلامية في السنوات الأخيرة»، مركز بيو للأبحاث، الثاني من مايو/ أيار، ٢٠١١.
http://www.pewglobal.org/201102/05//osama-bin-laden-largely-discredited-among-muslim- publics-in-recent-years/

العسكري في المنطقة، دون أن يسفر عن تحقيق قدر أكبر من الاستقرار، بخاصة في المناطق المضطربة الواقعة جنوبي الفيليبين وجنوبي تايلاند.

وعلى خلفية هذه الحروب والحملات التي غالبًا ما كانت تستهدف مسلمين، باء الجهد الذي بذلته إدارة بوش لكسب «القلوب والعقول» بفشل ذريع. أطلقت الإدارة محطة إذاعية تبث باللغة العربية على مدار الساعة (راديو سوا)، ومحطة تلفزيونية تبث باللغة العربية على مدار الساعة (الحرة)، ومجلة لامعة (مرحبا)، وقد استهدفت بها جميعًا المراهقين. وعلقت على ذلك المتخصصة بالدبلوماسية العامة آر إس زهارنة بقولها: «لم يحدث من قبل قط أن كانت برامج أميركا الإعلامية الموجهة إلى الخارج قادرة على إنتاج مثل هذا الكم الهائل من المعلومات، ونشره بسرعة فائقة ليصل إلى هذا الجمهور الهائل»[1]. لكن لم تستطع السرعة ولا الكم أن يغطيا على رداءة المقاربة وصممها. أخفقت المجلة في غضون عامين، وعلى الرغم من استثمارات بمئات ملايين الدولارات، حسب **الواشنطن بوست**: «تعتبر (قناة الحرة) فاشلة إلى حد بعيد في العالم العربي، حيث سعت لجذب المشاهدين والتغلب على تشكيكهم في رسالتها»[2]. أما راديو سوا، فقد كان أفضل أداءً في الوصول إلى الشريحة الديموغرافية التي استهدفها، لكن فقط عبر تركيزه على الموسيقى لا السياسة.

وإن أي حملة دعائية كانت ستفشل حتمًا حتى إن بلغت حد الكمال؛ نظرًا للتأثيرات الملموسة لسياسة الولايات المتحدة الخارجية وسياستها الدفاعية، تمامًا كما إنه لا يمكن أن تعوض الحملة الإعلامية الممتازة عن رداءة منتج غير مستساغ أساسًا. ولم تستطع الولايات المتحدة أن تفوز بقلوب الناس وعقولهم؛

---

(١) آر. إس. زهارنة، معارك للجسور، ٤٤.

(٢) كريغ ويتلوك، «شبكة الولايات المتحدة تتداعى في مهمة الشرق الأوسط»، واشنطن بوست، ٢٣ يونيو/ حزيران ٢٠٠٨.

http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/200822/06//AR2008062201228.html.

لأنها (إما عمدًا أو عن غير قصد) قتلت أعدادًا كبيرة جدًّا من المسلمين. وعلاوة على ذلك، ساعدت الثقافة المتساهلة في عرض هذه المساعي والجهود (الموسيقا والترويج للقيم الاستهلاكية، والتباهي بالقيم التقليدية) في ردكلة جيل سابق من المتطرفين المسلمين، وتعهدت بردكلة جيل آخر أيضًا[1]. إن كثيرًا من التكتيكات التي أجدت نفعًا بالنسبة للولايات المتحدة إبّان الحرب الباردة يحتمل أن يكون لها تأثير عكسي على المغالين في الدين.

وفي الداخل الأميركي أيضًا، كانت سياسات إدارة بوش تخسرُ كثيرًا من قلوب المسلمين وعقولهم؛ نتيجةً لإنتاجها في القرن الحادي والعشرين نسخًا معدلة من إثارة المخاوف من الشيوعيين التي أعقبت كلتا الحربين العالميتين الأولى والثانية في القرن العشرين. وبإقرار قانون باتريوت في الولايات المتحدة، الذي وافق عليه الكونغرس بالإجماع تقريبًا ووقعه الرئيس بوش في ٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر عام ٢٠٠١ إيذانًا بإنفاذه، كانت الإدارة قد استخدمت الأمن القومي بوصفه ورقة رابحة بغية توسيع دائرة مراقبة الولايات المتحدة لمواطنيها توسيعًا كبيرًا، ومن أجل تقييد حرياتهم المدنية. غير أن التركيز كان منصبًّا على مسلمي أميركا وعلى العرب الأميركيين. فقد أودعت سلطات الولايات المتحدة السجن أكثر من خمسة آلاف إنسان من الرعايا الأجانب، وأخضعت ثمانين ألفًا من المهاجرين العرب والمسلمين للتبصيم والتسجيل، وعكفت على إرسال ثلاثين ألف «رسالة أمن قومي» سنويًّا إلى شركات أميركية تطلب منها عبرها تزويدها بمعلومات عن زبائنها والمتعاملين معها، وسوّغت لنفسها التنصّت على المواطنين دونما مبرر ومن غير الحصول على إذن (من القضاء)[2]. كما أنكرت حقوق المعتقلين الأميركيين وغير الأميركيين في

(١) أُذهل سيد قطب على سبيل المثال من جراء ما رآه في الولايات المتحدة عبر زمن إقامته التي دامت سنتين فيها في أربعينيات القرن العشرين، وكان ذاك الذي رآه يعد أليفًا جدًّا بالمعايير الراهنة.

(٢) ديفيد كول، «هل نحن أكثر أمنًا؟» مراجعة نيويورك للكتب، التاسع من مارس/ آذار ٢٠٠٦.

المثول أمام القضاء. وعندما جعلت أخيرًا بعض المعتقلين يمثلون أمام محاكم عسكرية، واظبت على تقييد حقوقهم القانونية وإلى ذلك اعتقلت أو احتجزت أو استجوبت أو رحلت ألف إمام مسجد، وأخضعت مساجد للمراقبة ودست فيها عملاء سريين للتجسس عليها[1].

ولم تتمخّض هذه السياسات عن إثارة المخاوف من الإسلام، بل شجّعت تشكل تيار وجداني قوي مناهض لتيار المشاعر المعادية للمسلمين والعرب، الذي ما انفك ينمو على مدى حقبة طويلة من الزمن في الولايات المتحدة الأميركية.

صعود الإسلاموفوبيا:

في الحادي عشر من أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٩٨٥، كان ألكس عودة يفتح باب مكتبه، في مقر اللجنة العربية الأميركية لمناهضة التمييز في سانتا آنا - كاليفورنيا. كان عودة أستاذًا جامعيًا يبلغ من العمر واحدًا وأربعين عامًا، يدرس مادتي اللغة العربية وتاريخ الشرق الأوسط، وهو مسيحي كاثوليكي أميركي الجنسية فلسطيني الأصل، ومناصر قوي للحوار بين الأديان.

كان عودة قد ظهر مؤخرًا عبر شاشات القنوات الفضائية الإخبارية. فقد ظهر ذات ليلة عبر شبكة «السي إن إن» وعبر الـ«إيه بي سي» في الليلة التي سبقتها. كان ذلك زمن اختطاف السفينة السياحية أليكي لاورو من قبل عناصر تابعين لجبهة تحرير فلسطين، وقتلهم الراكب المعوق ليون كلينغوفر، وكان عودة مستاءً من عملية الاختطاف ومن جريمة القتل، وقرر أن يعبر عن رأيه جهارًا وبوضوح. إلا أن تصريحاته المتلفزة التي تدين الإرهاب تمّ حذفها، وفي النهاية اقتصر ما بُثَّ من مقابلته على إظهار مديحه لدور رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات في التخفيف من حدة قضية الرهينة الذي قتل[2].

---

(١) ستيفان سالزبوري، أشباح محمد (نيويورك: كتب الأمة، ٢٠١٠)، ٢١.

(٢) مايكل بون، اختطاف أكيلي لورو (دالاس، فرجينيا: براسي، ٢٠٠٤) ٣٥-٣٨.

كان عودة (دون أدنى شك) قد خطّط لتوضيح آرائه عبر حديث مبرمج في كنيس محلي تلك الأمسية، غير أنه لم يُعْطَ الفرصة قط. كان أحدهم قد فخّخ باب مكتب اللجنة العربية الأميركية لمناهضة التمييز بقنبلة. وقد أودى الانفجار بحياة عودة، وأسفر عن إصابة سبعة أشخاص آخرين بجراح. وأعلن مكتب التحقيقات الفدرالي أن الجاني المحتمل هو عصبة الدفاع اليهودية، وهي منظمة متطرّفة أسست عام ١٩٦٨. وأعلن زعيم عصبة الدفاع اليهودية إيرق روبين أن عودة «سخيف وبذيء وشنيع»، وحتى العصبة ذاتها قالت: «إن عودة قد نال، بالضبط، ما يستحقه»[١]. وسيق روبين لاحقًا إلى السجن في ديسمبر/ كانون الأول من عام ٢٠٠١ على خلفية تورطه في مؤامرة تهدف إلى تفجير مسجد الملك فهد في كلفر سيتي، والمكتب الميداني لعضو الكونغرس أميركي الجنسية عربي الأصل داريل عيسى، ثم انتحر لاحقًا في مرفق الاحتجاز، وبقيت قضية عودة من غير حل حتى يومنا هذا[٢].

إن جريمة قتل عودة كانت مثالاً واحدًا فقط عن جرائم ارتكبت قبل الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول مستهدفة عربًا ومسلمين. وزرع إرهابيون، في السنة التي قتل فيها، قنبلةً في مكتب اللجنة العربية الأميركية لمناهضة التمييز في بوسطن، وأضرموا النار في مكتبها في واشنطن. كما أضرم مشعلو الحرائق عمدًا النار في مسجد في هيوستن، وفي مكتب الاستغاثة الفلسطينية المتحدة في

(١) غريغ كريكوريان، «ظهور دليل في قضية القتل٨٥ سانتا آنا»، لوس أنجلس تايمز، ١١ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٧.

http://articles.latimes.com/2007/ oct/11/local/me-odeh11

من أجل الاطلاع على بيان رابطة الدفاع اليهودية، انظر «جذور القضية: رابطة الدفاع اليهودية»:
http://www.adl.org/extremism/jdl_chron.asp

(٢) «أعلن زعيم رابطة الدفاع اليهودية أن موت بريان كان بسبب الانتحار»، نيويورك تايمز، ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٢.

http://select.nytimes.com/gst/abstract.ht ml?res=FA0C1FF9395A0C768CDDA80994 DA404482.

واشنطن. إلى ذلك، استهدف مخربون مسجدًا في بوتومال في ولاية مريلاند، ومعهدًا إسلاميًا في ديربورن، في ولاية ميتشيغان[١].

لم تكن هذه أعمالاً معزولة، إذ إن تقليد الإسلاموفوبيا يعود إلى القرن التاسع عشر، حيث كان (بحسب المؤرخ إدوارد كورتيس) ما يزال ينظر إلى العَالم المسلم بوصفه عنيفًا ومتعصبًا وجنسانيًا، وذلك من قبل كثير من الأميركيين[٢]. وقد أسهم اتجاهان في التأجيج الحاد للمشاعر المعادية للإسلام والعرب في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. ففي عام ١٩٦٠، أطلقت البلدان المنتجة للنفط منظمة الدول المصدرة للنفط «أوبك»، وعلى الرغم من إنشائها من قبل دول عديدة غير عربية مثل فنزويلا، إلا أن منظمة «أوبك» ارتبطت في أذهان الجماهير مع مشيخات شرقأوسطية مثل المملكة العربية السعودية ودبي، بخاصة بعدما فرضت دول عربية حظرًا على النفط إبّان حرب يوم الغفران في عام ١٩٧٣؛ ردًّا على الدعم الغربي لإسرائيل.

أما الاتجاه الثاني فقد كان ولادة الحركة الفلسطينية من أجل تقرير المصير. الفلسطينيون الذين طردوا من بلدهم من جراء قيام «دولة إسرائيل» عام ١٩٤٨، انتهى بهم الأمر إلى العيش مشردين مشتتين في بلدان عربية عديدة ومختلفة، كانوا يأملون منها أن تحقق لهم مصالحهم. وعندما لم يحدث ذلك، أسست حركة فتح في عام ١٩٥٧ من قبل وطنيين محبطين.

لقد أبدى مقاتلون فلسطينيون شديدو الشبه بالجمهوريين الإيرلنديين في شمالي إيرلندا، والانفصاليين الباسك في إسبانيا، اهتمامًا كبيرًا بتكتيكات إرهابية لتحقيق هدفهم المتمثّل في إقامة دولة مستقلة. فيما تبنّت جماعات عربية أخرى

---

(١) انظر «نحن لسنا العدو»، هيومن رايتس ووتش، ١٤، رقم. ٦ (نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٢)، ١١.

(٢) إدوارد كورتيس، المسلمون في أميركا (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠٠٩)، ٢٩. ويشير كورتيس أيضًا إلى أنه كان يوجد جانب مختلف في الموضوع: «إذ أضحى يفهم على نحو متزايد بأنه رومانسي وينطوي على مغامرة، وبالنسبة لليبراليين المتدينين روحاني بالفطرة».

مثل حزب الله تكتيكات إرهابية أيضًا لضرب أهداف للولايات المتحدة في لبنان، مثل ثكنات قوات المارينز في بيروت عام ١٩٨٣.

أمست صور شيوخ العرب الجشعين والإرهابيين العرب عديمي الرحمة الصور النمطية السائدة عن العرب لدى الأميركيين في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته. ففي أفلام هوليود، تنافس العرب مع الشيوعيين الروس في لعب أدوار الأشرار الدائمين. و«العرب دومًا تقريبًا أهداف سهلة في أفلام الحرب»، كما يقول جاك شاهين في ختام كتابه العرب الأشرار في السينما، وهو دراسة مستفيضة حول الصورة النمطية للعرب في أفلام هوليوود[1]. كما إن احتجاز الرهائن الأميركيين عقب الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ جعل اسم «آية الله» مصطلحًا محليا يرمز إلى الإساءة، وأضاف مزيدًا من التشوّش الذهني حيال هذه الصور النمطية السائدة. وأوضح رجل الإطفاء الأميركي من أصول عربية دون يونس هذا الوضع بقوله: «لقد اندلعت حرب عام ١٩٧٣ (العربية الإسرائيلية)، ثم فرض الحظر على النفط، وفجأة وجدنا أنفسنا قد حُمِّلْنا مسؤولية أمور لا علاقة لنا بها ولا سلطان لنا عليها، وربما هي أمور لم تلق منّا دعمًا في المقام الأول»[2]. ووفقًا لاستطلاع للرأي أجري عام ١٩٨١، أعربت نسب كبيرة من الأميركيين المستطلعة آراؤهم عن اعتقادها بأن العرب «همجيون»، و«متوحشون»، و«خونة»، و«مولعون بالحروب»، و«متعطشون للدماء»[3]. جرى هذا الاستطلاع بعد مرور عقد من الزمن على إنتاج الشركة المصنعة لـ«دمى الشخص الصغير» لعبةً تمثل بدويًّا يرتدي برنسًا ويوصف بالمنبوذ، وطرحت في الأسواق مشفوعة بشعار: «لا يوجد بلد يمكن أن يقبل هذا الإرهابي عديم الرحمة»[4].

---

(١) جاك شاهين، صور نمطية للعرب السيئين (نيويورك: مطبعة أوليف برانش، ٢٠٠١)، ١٦.

(٢) نقلاً عن ديفيد لام «الولاء في موضع الشك»، لوس أنجلس تايمز، ١٣ مارس/ آذار ١٩٨٧.
http://articles.latimes.com/print/198713-03-/news/ mn-5585_1_arab-identity.

(٣) لويس كنكار، انعدام الأمن الداخلي (نيويورك: مؤسسة سيج، ٢٠٠٩)، ٨٨.

(٤) أنتوني توث، «عن العرب والإسلام»، تقرير واشنطن عن الشؤون الشرقأوسطية، يناير/ كانون الثاني ١٩٨٧.

http://wrmea.com/backissues/018787010012/.html

ولم تتحسن هذه المواقف في تسعينيات القرن العشرين. لقد وضعت الحرب الباردة أوزارها، ولم يعد الاتحاد السوفياتي موجودًا. ونتيجة لغزوه الكويت وللنتائج التي تمخّضت عنها حرب الخليج الأولى، كان صدام حسين عدو الشعب الأول في واشنطن. هذا وقد تزامنت حرب الخليج الأولى مع ازدياد كبير في عدد جرائم الكراهية ضد الأميركيين العرب والمسلمين. وحتى في أثناء الزمن القصير الفاصل بين تفجير أوكلاهوما سيتي، وبين اعتقال الإرهابي المناهض للحكومة تيموثي ماكفي، والذي تفشّت فيه شائعات تتحدث عن تورط مسلمين في الحادث، جَدْوَلَ مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية ارتكاب أكثر من مائتين وعشرين جريمة كراهية ضد مسلمين[1]. ووفقًا لاستطلاع للرأي أجرته محطة «إيه بي سي» سنة ١٩٩١، ربط٥٩٪ من الأميركيين المستطلعة آراؤهم مصطلح «إرهابيين» بالعرب، فيما ربط ٥٦٪ منهم تعبير «متعصبين دينيًا» بهم[2]. واستهدفت السلطات الاتحادية، طوال هذا الوقت، عربًا ومسلمين. إذ استخدم مكتب التحقيقات الفيدرالي عميلاً سريًّا مأجورًا في مجموعة التشهير للتجسس على منظمات عربية أميركية، كما استخدمت دائرة الهجرة والتجنيس الأدلة السرية في محاولة منها لترحيل عرب ومسلمين ترحيلاً قسريًّا[3].

وتفاقمت الأوضاع سوءًا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، ومضت من سيئ إلى أسوأ. وفجأة غدت الأمور كما لو أن كل المسلمين

---

(١) فرحان حق، «الجرائم التي تستهدف المسلمين ازدادت عما كانت عليه إبان حقبة حرب الخليج»، خدمة الطباعة والنشر الداخلية، ٢٤ مايو/ أيار ١٩٩٥.

(٢) لويس كنكار، انعدام الأمن الداخلي، ٦٩. وفي عام ١٩٩٣، بعد تفجير مركز التجارة العالمي، توصل استطلاع للرأي أجرته مؤسسة غالوب إلى أن ٣٢٪ من الأميركيين لديهم آراء سلبية حيال العرب. جيفري جونز، «يشعر الأميركان بعدم ارتياح حيال العرب حتى قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول»، خدمة مؤسسة غالوب الإخبارية، ٢٨سبتمبر/ أيلول، ٢٠٠١.
http://www.gallup.com/poll/4939/Americans-Felt-Uneasy-Toward-Arabs-Even-Before-September.aspx.

(٣) سوزان أكرم وكيفن آر.، «العرق والحقوق المدنية قبل الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١»، في كتاب نشرته الين هاغوبيان، عنوانه الحقوق المدنية في خطر (شيكاغو: هايماركت للكتب، ٢٠٠٤)، ٢١ و١٣.

والمسلمات في أميركا كانوا قد ألصقوا على ظهورهم ملصقات مثيرة للسخرية، ومنهم أولئك المدانون فقط لأن «سيماهم توحي بأنهم مسلمون» مثل السيخيين المعممين. فرانك روك الذي تباهى في حانة قائلاً: «إنه راغب في قتل المعممين بأسمال بالية المسؤولين عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول» قتل سيخيًا يعمل في محطة بنزين[1]. وقال مارك سترومان الذي قتل شخصين وأعمى ثالثًا واصفًا فعلته: «نحن في حالة حرب. لقد فعلت ما يجب علي فعله. فعلت هذا ثأرًا وانتقامًا». وتضاعفت محاولات الاعتداء، فقد أحرق مراهقون معبدًا سيخيًا أتت النيران عليه فدمرته اعتقادًا منهم أن مرتاديه هم أنصار تنظيم القاعدة. وفي بريد جيفيو من ولاية إلينوي، تجمع حشد من الغوغاء بلغ عديدهم ثلاثمائة شخص قرب المسجد المحلي، وهم يهتفون مرددين شعارات مناهضة للعرب ومعادية للمسلمين. وأعلن مكتب التحقيقات الفيدرالي عن حدوث موجة عارمة من جرائم الكراهية، حيث ارتفع عددها من ٢٨ جريمة عام ٢٠٠٠ إلى ٤٨١ جريمة عام ٢٠٠١ [2]. وازدادت الشكاوى المتعلقة بالتمييز في العمل، ومن معاملة السلطات الأمنية في المطارات للناس معاملة المشتبه بهم من منطلق عنصري (تبعًا للعرق ولون البشرة..)[3]. وعمدت سلطات الهجرة إلى تعقب المسلمين والعرب، وألقي بمئات المعتقلين في مراكز احتجاز أشهرًا عديدة أضنتهم وجعلتهم مفعمين بالأسى. وكتب الصحافي ستيفان سالزبوري في وصف أحوالهم الآتي: «كان أولئك المعتقلون في البداية على الأقل يعتقدون أن في وسعهم أن يستمدوا بعض العزاء من دينهم، إلا أن صلواتهم كانت تقابل بصيحات الاستهزاء والسخرية من قبل حراسهم»[4].

---

(١) نحن لسنا العدو، هيومن رايتس ووتش، ١٧.

(٢) مكتب التحقيقات الفيدرالي، إحصاءات جرائم الكراهية، ٢٠٠١.
http://www.fbi.gov/about-us/cjis/ucr/hate-crime/2001.

(٣) نحن لسنا العدو، هيومن رايتس ووتش، ١٧.

(٤) ستيفان سالزبوري، أشباح محمد، ١٠٤.

وعلى الرغم من سمعة أميركا بوصفها ملاذًا لأولئك الساعين إلى الحصول على حق حرية العبادة، فإن التعصب الديني هو تقليد قديم العهد في هذا البلد. حيث عُبِّئ سكان نيويورك للاحتجاج على إقامة أول كنيسة كاثوليكية في عام ١٨٧٥ [١]. خصت الحركة الأهلانية (حركة تقوم سياستها على تقديم مصالح أهل البلد الأصليين على مصالح المهاجرين) الكاثوليك بوصفهم أناسًا «يكرهون جمهوريتنا، ويحاولون تخريبها وإسقاطها»، وهم كذلك «يكرهون الضمير الحر والصحافة الحرة والخطاب الحر»[٢]. وفكرة أن الكاثوليك هم في نهاية المطاف ازدواجيون ويدينون بالولاء للفاتيكان، لا لواشنطن، ظلت تشغل بال المجتمع البروتستانتي الأميركي إلى أن أفضت الانتخابات الرئاسية التي أجريت عام ١٩٦٠ إلى تحقيق الكاثوليكي جون إف. كندي انتصارًا نهائيًّا، إلا أنه انتصار أحرز بشق النفس. كما إن التعصب الأعمى ضد اليهود كان أيضًا جزءًا دائمًا من التقاليد الأميركية، وهذا يتضمن: الإعدامات شنقًا من غير محاكمات قانونية والاعتداءات والتفجيرات، والأصوات الانتخابية وشيوع الفِكَر النمطية المبتذلة والمنحرفة وإنكار وجود محرقة اليهود: كانت جرائم الكراهية التي تستهدف يهودًا والتعصب الأعمى ضدهم على حد سواء يندرجان بقوة في أجندة حركة (الكوكوس كلان) العنصرية المتطرفة، وفي صلب (كتابات هنري فورد). وباستثناء عام ٢٠٠١، ظلت جرائم الكراهية ضد اليهود تفوق عددًا حوادث جرائم الكراهية المناهضة للمسلمين، وذلك بحسب بيانات مكتب المباحث الفيدرالي[٣].

(١) بول فيتللو «في معارضة شرسة للمركز الإسلامي، أصداء معركة قديمة»، نيويورك تايمز، ٨ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٠، A ١٩.

(٢) لويس كنكار، انعدام الأمن الداخلي، ٢٣٧.

(٣) وفقًا لإحصاءات مكتب التحقيقات الفدرالي لجرائم الكراهية لسنة ٢٠٠٨، بلغت نسبة جرائم الكراهية المعادية لليهود ٦٩٪ من جميع الجرائم ذات الدوافع الدينية، مقارنة مع ٧,٥٪ من الجرائم التي ارتكبت بحق مسلمين.

لكن تبقى في الوقت الراهن الحملة الصليبية المناهضة للمسلمين في الولايات المتحدة هي أسلوب التمييز الوحيد المقبول سياسيًا. أما الكاثوليك فقد أضحوا مندمجين في ثقافة الولايات المتحدة إلى حد جعلهم الآن يمثلون أغلبية القضاة في محكمة الولايات المتحدة العليا. ويوجد ثلاثة عشر عضوًا يهوديًا في مجلس الشيوخ، وواحد وثلاثون عضوًا من اليهود في مجلس النواب. وعلى الرغم من أن الجالية المسلمة في الولايات المتحدة تشكل نسبة مئوية مماثلة لنسبة اليهود فيها، ليس لها سوى ممثلين اثنين في الكونغرس. ونادرًا ما يسمع خبر عبر وسائل الإعلام عن المشاعر العنصرية المعادية للكاثوليك واليهود، ومجرد التفوه بخبر من هذا القبيل يثير دومًا تقريبًا ضجةً، وغالبًا ما يجهز على مسيرة القائمين على نشر الخبر العملية وعلى النجاحات التي حققوها. لكن من ناحية أخرى، غالبًا ما يمضي أمر المشاعر المعادية للعرب والمسلمين دون أن يعلن عنها.

وفي برنامج إذاعي بُثَّ عام ٢٠٠٤ عقب موت رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، دارت بين مضيف البرنامج دو إيموس وبين شريكه عبر الأثير، سيد روسنبرغ المدَاوَلةُ الآتية [١]:

دون إيموس (المضيف): إنهم (الفلسطينيين) يأكلون الأوساخ، بينما تعيش تلك الزوجة الخنزيرة البدينة (سهى عرفات) في باريس.

روسنبرغ: جميعهم ذوو أدمغة مغسولة. تلكم هي حالهم. وبادئ ذي بدء هم حمقى، أما الآن فهم مغسولو الأدمغة. إنهم حيوانات نتنة. يجب إلقاء القنبلة حيث هم، وينبغي قتلهم جميعًا الآن.

---

(١) «أيموس أنكر عن الفلسطينيين: حيوانات نتنة. يجب إسقاط القنبلة في أماكن وجودهم وقتلهم في الحال». ميديا ماترز، ١٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٤.
http://mediamatters.org/research/200411190009

وعلى الرغم من أن هذه التصريحات أثارت بعض الجدل، إلا أن إيموس لم يُرْغَمْ على الاستقالة إلا بعد مضي ثلاث سنوات عندما أدلى علنًا بتعليقات عنصرية وجنسانية صريحة تتعلق بفريق روتجرز النسائي لكرة السلة.

وباختصار، تبقى إثارة المخاوف من الإسلام قوة قوية في المجتمع الأميركي بالنسبة للتأجيج الموسمي للأوضاع، بقدر ما هي قوية على صعيد وجودها الكلي غير الملحوظ في جميع الأزمنة والأمكنة الأميركية. هذه المشاعر التي تحركها إثارة المخاوف من الإسلام تفسر جزئيًا سبب رؤية جماهير الشعب الأميركي الحرب العالمية على الإرهاب من زاوية دينية، تفتقر إلى النضج على الرغم من التصريحات الرئاسية التي لا تسلك هذا المسلك.

هذه، إذن، هي حروب الغرب الثلاث غير المنجزة التي يشنها ضد الآخرين. وتستمر الحروب الصليبية في تأطير الطريقة التي يعرف بها الغرب تصرفات المسلمين وطبيعة الإسلام. وتسهم الحرب الباردة في تأمين إطار لليبراليين والمحافظين ليصوغوا على غراره توافقًا جديدًا يتمحور حول الحاجة إلى شن «حرب خيّرة» جديدة ضد العدو «الاستبدادي الشمولي». والحرب العالمية على الإرهاب التي استهدفت بلادًا ذات أغلبيات مسلمة، وأدت إلى قتل وإصابة عدد لا يحصى من المسلمين، خلقت جوًّا من الخوف انبثت عبره المخاوف الكامنة من الإسلام في الداخل الأميركي، وآل إلى زرع بذور معاداة الولايات المتحدة في الخارج.

في عام ٢٠٠٨، انتخب الأميركيون رئيسًا جديدًا وعد بإعادة ترتيب علاقات الولايات المتحدة مع المجتمع الدولي، بما فيه العالم الإسلامي. وقد جمع بين مؤيديه ومنتقديه توقهم إلى اكتشاف إذا ما كان الرئيس أوباما راغبًا بالفعل في وضع حد للحملة الصليبية الجديدة.

الفصل الرابع

الحرب الصليبية تستمر

كان الرئيس أوباما حريصًا على صقل صورته غير الإسلامية أثناء خوضه غمار السباق الرئاسي في عام ٢٠٠٨. شوهد مرارًا وتكرارًا وهو يصلي في الكنائس، ودأب على اجتناب ارتياد المساجد. لم يحضر أي لقاء أثناء حملته الانتخابية إلى جانب شخصيات بارزة من العرب أو المسلمين، وتحدث عن «علاقته الشخصية» مع يسوع المسيح. وفي اليوم اللاحق لانتزاعه ترشيح الحزب الديمقراطي له في يونيو/حزيران، ألقى خطابًا موجهًا إلى لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (إيباك)، أكد فيه أنه «صديق صادق الولاء لإسرائيل»[١]. وعلى الرغم من أنه يذكر أحيانًا أقاربه المسلمين والزمن الذي أمضاه طفلاً في إندونيسيا، فقد بذل أوباما كل ما في وسعه للتأكيد على اثنتين من الديانات التوحيدية الكبرى الثلاث، على حساب الثالثة.

أما خصومه فقد عمدوا إلى فعل عكس ذلك تمامًا، حيث تعمدوا الخطأ في لفظ اسمه الأخير حيث جعلوه أسامة بدلاً من أوباما. وأكدوا

(١) خطاب أوباما أمام لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (إيباك)، إن بي آر، ٤ يونيو/حزيران٢٠٠٨.

http://www.npr.org/templates/story/story.php?storyId=91150432.

اسمه الأوسط حسين[1]، وشككوا في صحة سجلات ميلاده، ووزعوا تقارير مزورة تفيد بأنه درس في مدرسة راديكالية عندما كان طفلاً في إندونيسيا[2]. ونشروا صورةً ظهر فيها أوباما مُعْتمًا في زيارة قام بها إلى كينيا «ليثبتوا» أنه مسلم[3]، وأكدوا أنه كان وثيق الصلة بالقضية الفلسطينية. وحاول المدون اليميني المثير للجدل، ديبي شلوسل، بقوة وحزم الربط بين أوباما وكل من لويس فرخان قائد جماعة أمة الإسلام، والباحث والناشط الفلسطيني إدوارد سعيد[4]. وفي يوليو/ تموز من عام ٢٠٠٨، بعدما عيّن أوباما مازن الأصبحي مستشارًا له للتواصل مع الجالية المسلمة، أطلق المحافظون حملة ترمي إلى تشويه سمعة الأصبحي عبر الادعاء زيفًا بأنه مرتبط بأئمة متطرفين. كانت ادعاءاتهم كاذبة، إلا أن الأصبحي استقال على جناح السرعة تجنبًا لإضعاف حملة أوباما الانتخابية[5].

---

(١) ماكين ينكر إدلاءه بملاحظات نسبت له عن «حسين أوباما»، المؤتمر الحزبي، ٢٦ فبراير/ شباط ٢٠٠٨.

http://thecaucus.blogs.nytimes.com/200826/02//mccain-repudiates-hussein-obama-remarks/.

(٢) ألكس كوبلمان، «ما هو السبب الذي يجعل القصص التي تنسج عن شهادة ميلاد أوباما لا تموت مطلقًا؟»، سالون، ٥ ديسمبر/ كانون الأول، ٢٠٠٨.

http://www.salon.com/news/ feature/200805/12//birth_certificate/.

(٣) جيم كوهين «صورة أوباما في العمامة، رداء يثير ضجة»، هوفينغتون بوست، ٢٥ فبراير/ شباط٢٠٠٨.

http://www.huffingtonpost.com/200825/02//obama-photo-in-turban-rob_n_88272.html.

(٤) أعضاء مجلس إدارة أمة إسلام أوباما وإدوارد سعيد واليهود المتصلبون يسببون صراعًا في الشرق الأوسط: أحد المقربين من أوباما يكشف النقاب عن باراك الحقيقي، ٣٠ يناير/ كانون الثاني، ٢٠٠٨.

http://www.debbieschlussel.com/3356/exclusiveobamasnation-of-islam-staffers-edward-said-inflexible-jews-causingmideast-conflict-an-obama-insider-reveals-the-real-barack/.

(٥) جيمس زغبي، «ياله من عار يستحق اللعنة»، هفينغتون بوست، أغسطس/ آب ٨، ٢٠٠٨.
http://www.huffingtonpost.com/james-zogby/its-a-damn-shame_b_117839.html; Esposito, 20

وفي شهر سبتمبر/ أيلول من عام ٢٠٠٨، فتح القراء على امتداد الولايات المتحدة صحفهم الصادرة يوم الأحد، ليجد كل منهم ضمن الصحيفة قرصًا رقميًا مضغوطًا (دي في دي) وزع مجانًا، وهو يحتوي على فيلم سينمائي بعنوان: «الهوس: حرب الإسلام الراديكالي مع الغرب». الفيلم منتج قبل عدة سنوات، إلا أن صندوق كلاريون (منظمة موالية لإسرائيل على صلة بحملة جون ماكين الانتخابية) قرر توزيع الأقراص الرقمية المضغوطة في الولايات المتأرجحة (انتخابيًا) قبل إجراء انتخابات عام ٢٠٠٨. لم يربط الفيلم ربطًا مباشرًا بين الديمقراطيين والإسلام الراديكالي، لكنه ولد انطباعًا بأن الساسة الذين هم على شاكلة أوباما راغبون في استرضاء أسامة بن لادن وعصبته.

كانت الأجواء المواكبة للحملة المناهضة لأوباما توحي بأنها مستقاة من روح القرن الثالث عشر، إذ إنها كانت شبيهة بالشائعات التي سرت بواسطة جيل سابق حول فريدريك الثاني، بوصفه رئيسًا للإمبراطورية الرومانية المقدسة في القرن الثالث عشر. كان فريدريك يتكلم العربية، ومواظبًا على التشاور مع العلماء المسلمين، وشديد الإعجاب بالثقافة العربية الإسلامية المشرقية، إلى حد جعله يشيد ضربًا من مدينة ذات طابع إسلامي في بلدة حصن لوسيرا في إيطاليا[1]. وحتى عندما ترأس الإمبراطور الحملة الصليبية السادسة، كانت تدور أحاديث وتتواصل عن دوافعه عميقة الجذور. أما سياسته القائمة على التعاون السلمي مع أعداء العالم المسيحي(التي نجح عبرها في تحقيق غايته المتمثلة باستعادة القدس من خلال إبرام معاهدة عام ١٢٢٩) كانت ببساطة مزيدًا من الإثبات لردته. مقتضين بالبابا غريغوري التاسع، كان المسيحيون الرؤيويون يعتقدون أن الإمبراطور هو المسيح الدجال.

(١) كارين أرمسترونغ، الحرب المقدسة، ٤١٨-١٩.

حاله حال فريدريك الثاني، كان لأوباما شيء من الاتصالات مع الإسلام في ماضيه، عبر عائلة أبيه وإبّان الوقت الذي قضاه طفلاً في إندونيسيا. وعلى الرغم من أنه من الوضوح بمكان أن الرئيس مسيحي بقدر ما كان الإمبراطور الروماني المقدس مسيحيًّا، لم يكن أوباما قادرًا على إقناع أكثر المنتقدين تطرفًا لتقديمه أوراق اعتماده بوصفه صليبيًّا، حتى بعدما أصبح القائد العام للقوات المسلحة الأميركية في أفغانستان والعراق، وفي بلدان أخرى ذات أغلبيات مسلمة. وقد أدى تفضيل أوباما المعلن للدبلوماسية إلى تحديد الموقف بصورة نهائية. فمنذ دخوله المكتب البيضوي، أصبح أوباما فعليًّا المسيح الدجال لدى الجمهور المبغض للإسلام. في الواقع(وفقًا لاستطلاع هاريس للرأي الذي أجري في مارس/ آذار من عام (٢٠١٠) أعرب ٢٤٪ من أنصار «حزب الشاي» عن موافقتهم على التعبير الذي يقول إن أوباما «قد يكون هو المسيح الدجال»[(١)].

هل غدا المرشح أوباما بمجرد تسلمه مهام الرئاسة «أول المهادنين والمسترضين» لأعدائه اتقاءً لشرهم، كما صورته هذه الحملة اليمينية؟ لا شك أن أوباما، بوصفه رئيسًا، وضع حدًّا للسياسات التي كانت تنتهجها إدارة بوش حيال العالم الإسلامي في عدد من القضايا؛ إذ مضى قدمًا في خطته الرامية إلى سحب القوات الأميركية المقاتلة من العراق (مع الإبقاء على بعض الاستثناءات المهمة)، ووعد بإغلاق معتقل غوانتانامو (ليتم حظره من قبل الكونغرس فقط)، وضغط على حكومة رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو من أجل وقف التوسع في إنشاء المستوطنات في الأراضي الفلسطينية المحتلة، ومن أجل التفاوض بحسن نية (على الرغم من أن الضغط كان

---

(١) «الثالث شعبية، وبين أعضائه ثلاثة من خمسة من الجمهوريين يدعم حركة حزب الشاي ويعارضها الربع تقريبًا»، استطلاع للرأي أجرته مؤسسة هاريس في ٣١ مارس/ آذار، ٢٠١٠.
http://www.harrisinteractive.com/vault/Harris_Interactive_Poll_Tea_Party_Opposition_2010_03.pdf.

محدودًا). وأبدى شيئًا من الاستعداد للتفاوض مع حركة طالبان بغية إنهاء الحرب في أفغانستان[1]. وفي خطاب حظي بتغطية إعلامية مكثفة ألقاه في القاهرة في شهر يونيو/ حزيران من عام ٢٠٠٩، أبدى بأسلوب بلاغي اهتمامه بالعالم الإسلامي خاطبًا وده، في وقت كان عاكفًا فيه على استئصال التعبير الشهير: «الحرب العالمية على الإرهاب» من مفردات الحكومة، وعلى اعتماد تعابير أخرى بدلاً منه مثل: «الحرب ضد شبكة الكراهية والعنف واسعة النطاق»[2].

وفقًا لما يراه كارهو الإسلام ومثيرو المخاوف منه، دلَّ كل عمل قام به أوباما على عواطفه الكامنة، ومن أعماله هذه قراره بإجراء أول مقابلة تلفزيونية بوصفه رئيسًا مع قناة العربية، وهي شبكة إخبارية عربية. وفي السنة الأولى التي تقلد فيها مهام منصبه، بذل الرئيس «كل ما في وسعه لخطب ود العالمين العربي والإسلامي» على حساب إسرائيل، وفقًا لما كتبه ميتشل بارد، وهو عضو سابق في جماعة الضغط في لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية، وقد كتب ذلك متغاضيًا عن الدعم الاقتصادي والعسكري الهائل الذي ما انفك أوباما يجود به بسخاء على حليف الولايات المتحدة الرئيس في الشرق الأوسط[3]. وفي الوقت ذاته تواصلت الافتراءات الحقيقية، إذ شنت رابطة الأسرة الأميركية حملةً ضد الرئيس لأمره منح هبة «لإعادة إعمار مساجد المسلمين حول العالم»، مع أن هذه الهبة ليست في واقع الحال سوى نفقات معتادة تصرفها وزارة الخارجية بغية

---

(١) أودري جيلان، «أوباما سيرحب بعقد محادثات مع معتدلين من حركة طالبان»، الغارديان، ٨ مارس/ آذار، ٢٠٠٩.

http://www.guardian.co.uk/world/2009/mar/08/barack-obama-talks-taliban-afghanistan..

(٢) «استراتيجية الأمن القومي»، البيت الأبيض، مايو/ أيار ٢٠١٠، ٤.

http://www. whitehouse.gov/sites/default/files/rss_viewer/national_security_strategy.pdf.

(٣) ميتشل بارد، اللوبي العربي (نيويورك: هاربر كولينز، ٢٠١٠)، x.

صيانة الأماكن التاريخية والمحافظة عليها[1]. وأعلن المحافظ اليميني المتطرف فرانك جافني (الذي كان فيما مضى من غلاة المتطرفين في إدارة ريغان) في يونيو/ حزيران من عام ٢٠٠٩ عبر صحيفة الواشنطن تايمز أن «ثمة أدلة متزايدة على أن الرئيس (أوباما) لا يكتفي بالتماهي مع المسلمين، لكن في الواقع قد يكون هو نفسه ما يزال مسلمًا». حتى بعدما تحدث الرئيس وأنصاره مفصلاً بصبر وأناة عن خلفيته المسيحية، وقرن الأقوال بأفعال على هذا الصعيد[2]. إن الجدل الذي دار متمحورًا حول التعاطفات الجديدة للرئيس حجب واقعًا أشد إزعاجًا؛ إذ إن الذين أيدوا سياسة الرئيس الرامية إلى خطب ود العالم الإسلامي وأولئك الذين اتهموا الرئيس بالغدر، على حد سواء، تجاهلوا حقيقة أن السياسة الخارجية والعسكرية للولايات المتحدة حيال العالم الإسلامي استمرت إلى حد بعيد، دون أن يمسها شيء من التغيير منذ عهد بوش. وعلى الرغم من خطاب الرئيس البلاغي الذي جنح إلى الدبلوماسية، وتحرر من الارتباك خلافًا لما كانت عليه خطابات سلفه، فإن الحملة الصليبية الجديدة استمرت، في واقع الأمر، في عهد أوباما.

الحرب العالمية على الإرهاب بأي اسم آخر:

تخيل للحظة أنك مسلم تعيش في القاهرة، وأنك سمعت خطاب رئيس الولايات المتحدة الجديد، في الرابع من يونيو/ حزيران من عام ٢٠٠٩ في مدينتك، وقد تضمن حديثًا على معاملة دينك باحترام، وأنك سمعت الرئيس يقول: «إن الحضارة مدينة للإسلام». إنه خطاب قوي، وفي لحظة تخللت

---

(١) تيم وايلدمون، «أوباما يكرس دولاراتكم المتحصلة من الضرائب لإعادة بناء مساجد المسلمين حول العالم»، مطبعة كندا الحرة، ٢٦ أغسطس/ آب، ٢٠١٠.
http:// canadafreepress.com/index.php/article/26990

(٢) فرانك جافني، «هل هو أول رئيس مسلم لأميركا؟»، الواشنطن تايمز، ٩ يونيو/ حزيران ٢٠٠٩.
http://www.washingtontimes.com/news/2009/jun/09/americas-first-muslim-president/.

الخطاب علا صوت بين الجماهير هاتفًا: «باراك أوباما، نحن نحبك!»[1]. لو تخيلت هذا لكانت تملكتك آمال كبيرة بأن الرئيس أوباما سوف يغير جوهريًا الطريقة التي تتعامل بها الولايات المتحدة من العالم(وبخاصة العالم الإسلامي)، ولكان هذا الخطاب عزز آمالك أكثر فأكثر.

ولكن عندما تفتح الصحيفة أو تشاهد أخبار التلفزيون أو تنخرط في نقاش منعقد في مقهاك المفضل، سوف يواجهك واقع مختلف. يصدر كل يوم تقريبًا تقرير آخر عن هجمات أميركية تشنها طائرات من غير طيارين، وقد تصاعدت وتيرتها بسرعة على المناطق الحدودية الباكستانية[2]. وفي هذا السياق قدم الممثل الخاص للأمم المتحدة المكلف برصد عمليات القتل التي تجري خارج نطاق القانون تقريرًا في شهر يونيو/ حزيران من عام (٢٠١٠)، حدد فيه مشكلات تقنية وقانونية وأخلاقية عديدة ناجمة عن الهجمات التي تشنها وكالة المخابرات المركزية الأميركية في باكستان، مستخدمة طائرات من غير طيارين لهذا الغرض. وجاء في التقرير الذي أعده فيليب ألستون:

«بينت الشهادات التي أدلى بها شهود وأفراد من أسر الضحايا أن القوات الدولية كانت (في أحوال كثيرة جدًا) إما غير مطلعة على الممارسات المحلية الجارية على الأرض، أو كانت مغرقة في السذاجة في تفسير المعلومات التي تتوفر عليها، لكي تكون قادرة على التوصل إلى فهم يمكن أن يعتمد عليه للموقف».

(١) «ملاحظات أبداها الرئيس بشأن بداية جديدة»، البيت الأبيض، ٤ يونيو/ حزيران ٢٠٠٩.
http://www.whitehouse.gov/the_press_office/Remarks-by-the-President-at-Cairo-University-609-04-/

(٢) غريغ ميلر، «وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية تزيد من غاراتها التي تنفذها باستخدام طائرات بدون طيارين في باكستان، وسط مخاوف من ارتكاب تنظيم القاعدة أعمالاً إرهابية في أوروبا»، الواشنطن بوست، ٢٩ أيلول/ سبتمبر، ٢٠١٠.
http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2010/ 2809/ /
AR2010092806841.html.

وأضاف التقرير:

«غالبًا ما كانت القوات الدولية تستند إلى معلومات استخباراتية مغلوط فيها في تنفيذ ضرباتها الجوية، وشن غاراتها على أماكن مأهولة بالسكان؛ الأمر الذي أسفر عن عمليات قتل مدنيين»[1].

ونتيجة لهذه المعلومات التي توصل إليها، أوصى ألستون بأن تمارس الولايات المتحدة قدرًا أكبر من ضبط النفس[2]. فما كان من إدارة أوباما إلا أن شرعت في القيام بعكس المطلوب تمامًا؛ حيث ازدادت هجمات الطائرات من غير طيارين إلى أكثر من الضعف في عام (٢٠١٠) عمّا كانت عليه في عام (٢٠٠٩)، ومعظم هذه الزيادة تحقق بعد التحذير الذي أطلقته الأمم المتحدة[3]. وتصعب معرفة أعداد المدنيين الذين قضوا نحبهم من جراء هذه الهجمات التي تستهدف قادة القاعدة وحركة طالبان. وتقدر «المؤسسة الأميركية الجديدة» أن ربع مجموع الإصابات كانت في صفوف المدنيين، ويقدر عددها الإجمالي بالمئات[4].

---

(١) فيليب ألستون، «تقرير للمقرر الخاص عن ملخص خارج إطار القضاء أو إجراءات تنفيذية اعتباطية»، الجمعية العمومية للأمم المتحدة، مجلس حقوق الإنسان، ٢٨مايو/ أيار، ٢٠١٠، ٢٥.

http://www2.ohchr.org/english/ bodies/hrcouncil/docs/14session/A.HRC.14.24.Add6.pdf.

(٢) تشارلي سافيج، «تقرير للامم المتحدة ينتقد بشدة الهجمات الأميركية باستخدام طائرات بدون طيارين»، نيويورك تايمز، ٢ يونيو/ حزيران ٢٠١٠.

http://www.nytimes.com/201003/06//world/03drones.html.

(٣) سبنسر أكرمان، «اعتداءات غير مسبوقة باستخدام طائرة بدون طيار»، ١٧ ديسمبر/ كانون الثاني ٢٠١٠.

http://www.wired.com/dangerroom/201012//unprecedented-drone-strikes-hit-pakistan-in-late-2010/

(٤) «عام الطائرة بدون طيار»، مؤسسة أميركا الجديدة.

http:// counterterrorism.newamerica.net/drones.

ولم يقتصر الأمر على شن غارات باستخدام طائرات من غير طيارين، حيث سعت الولايات المتحدة إلى تحقيق أكبر تأثير ممكن من جراء عملياتها في أفغانستان. وتعمل قوات الولايات المتحدة الخاصة حاليًا في خمسة وسبعين بلدًا؛ أي بنسبة زادت ٢٠ ٪ عما كانت عليه في عهد بوش[١]. وظل إلى ذلك معتقل غوانتانامو مفتوحًا، وما انفكت الولايات المتحدة تمارس التسليم الاستثنائي (تسليم السجناء والمعتقلين إلى دول أخرى)، وما برح الاغتيال يشكل مكونًا فاعلاً في حملة أدوات واشنطن.

لم تكن (بوصفك مسلمًا) مؤيدًا لأسامة بن لادن أو نصيرًا للمقتدي به في التعصب الديني أنور العولقي في اليمن. ويعد قتل تنظيم القاعدة مدنيين انتهاكًا لتعاليم القرآن، وقد استهدف المتطرفون مسلمين بقدر استهدافهم لغير المسلمين. لكن مع ذلك أنت معنيّ لأن استهداف هؤلاء الأشخاص وغيرهم اغتيالاً يعد انتهاكًا للسيادة الوطنية وللقانون الدولي. وقد يكون الواقع الأكثر إشعارًا بالضيق وعدم الارتياح، هو أن الولايات المتحدة لطالما دعمت الرئيس المصري (إلى الأبد) حسني مبارك الذي تعارضه أنت وجميع أصدقائك، ولم تتحول إدارة أوباما عن مساندته إلا بعدما حشر في الزاوية وعزل[٢].

---

(١) كارين دي يونغ وغريغ جافي، «حرب الولايات المتحدة السرية تتوسع عالميًا، فيما تضطلع قوات العمليات الخاصة بدور أكبر»، الواشنطن بوست، ٤ يونيو/ حزيران ٢٠١٠.
http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/201003/06//AR2010060304965.html.

(٢) أدرج هنا نتائج استطلاع الرأي لدعم هذه الصورة المركبة للرأي العام المصري، وفقًا لمشروع بيو لقياس المواقف العالمية، أعرب ١٨٪ فقط من المصريين عن دعمهم لجهود الولايات المتحدة الأميركية لمكافحة الإرهاب، ويعتقد ١٥٪ منهم فقط أنه ينبغي على القوات المسلحة الأميركية البقاء في أفغانستان. كما إن ٢٠٪ منهم فقط ينظرون إلى ابن لادن نظرة إيجابية، و٢٠٪ منهم فقط أيضًا يؤيدون التفجيرات الانتحارية. «شعبية أوباما في الخارج أكبر منها في الداخل: صورة الولايات المتحدة العالمية تواظب على تحقيق مكاسب»، مشروع بيو لقياس المواقف العالمية، ١٧ يونيو/ حزيران، ٢٠١٠.
http://pewglobal.org/201017/06// obama-more-popular-abroad-than-at-home/.

إن غالبية المدنيين الذين قتلوا في عمليات الطوارئ الخارجية هذه مسلمون، ومعظم الذين اعتقلوا واستجوبوا مسلمون. والمصريون الذين عانوا في ظل قمع نظام مبارك جُلُّهم من المسلمين أيضًا. وأكثر الأبنية التي نسفت ودمرت كانت أملاكًا لمسلمين. وإذا ما شنت الولايات المتحدة أو إسرائيل هجمات على إيران(وإن أطلقت شائعات مكثفة تروج لهجمات من هذا القبيل على مدى نحو عقد من الزمن) فسوف يكون الضحايا من المسلمين في المقام الأول.

أنت (بوصفك مصريًا أو مسلمًا) غاضب بسبب كل الخسائر في صفوف المدنيين. غاضب أنت بقدر ما كان الأميركيون غاضبين عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، أو بقدر ما كان البريطانيون مفعمين بالغضب بُعَيْدَ التفجيرات التي شهدتها لندن في السابع من يوليو/ تموز. وغضبك ليس موجهًا إلى عدد ضئيل من الأفراد أو إلى مجموعة ثانوية من المتطرفين، بل أنت غاضب بفعل السياسات الرسمية لأقوى دولة في العالم ولحلفائها. وربما تستنتج (وتكون قد أصبت إن أنت فعلت) أن خطاب أوباما الذي ألقاه في شهر يونيو/ حزيران من عام ٢٠٠٩ لم يكن إلا مجرد كلام. لم يستهوِكَ تنظيم القاعدة قط، إلا أن الخطاب الحماسي الذي تستخدمه القاعدة عن «الصليبيين والإمبرياليين» يبدو أكثر فأكثر خليقًا بوصفهم. لقد كانت مصر هدفًا لحروب صليبية عديدة في العصور الوسطى، وعانت بسبب السياسات الاستعمارية العثمانية والفرنسية والبريطانية. ويبدو لك في الوقت الراهن أن الولايات المتحدة قد تبنت سياسة إمبريالية صليبانية، حتى إن كان شعبها غير مدرك لذلك إلى حد بعيد.

لا عجب إذن أن نرى مستوى شعبية الولايات المتحدة في مصر الذي ارتفع من فوره بُعَيْدَ خطاب القاهرة، قد عانى انخفاضًا لاحقًا وصولاً إلى درك أدنى من الذي كان فيه قبل الخطاب. ففي عام ٢٠٠٩ بلغت شعبية الولايات المتحدة ٢٧ ٪، وما لبثت أن انخفضت في عام ٢٠١٠ إلى ١٧٪، وهو

أدنى معدل سجلته مؤسسة بيو لقياس الرأي[1]. والرأي العام المصري ليس متفردًا في رؤيته السلبية، إذ أجرت مؤسستا بروكينغز وزغبي الدولية دراسات استقصائية في ست دول شرق أوسطية قبل خطاب القاهرة وبعده، أفضت إلى أن نسبة المتفائلين بنهج الرئيس في المنطقة عانت انخفاضًا حادًّا من ٥١ ٪ إلى ١٦ ٪ [2]. ويحاجج خوان كول بوصفه محللاً في أن: «مئات الملايين من المسلمين يعانون توق أميركا الشديد إلى تحقيق غاية بعينها، فهم يعتقدون أن هذه الدولة العظمى تسعى إلى تقويض هويتهم الدينية وتدميرها، وإلى السيطرة على مواردهم»[3].

أنت مسلم، لذلك أنت مستاء من سياسات الولايات المتحدة التي يبدو أنها تستهدف مسلمين، إلا أن استجابتك هذه ليست وظيفة يمليها عليك دينك، تمامًا كما إن الغضب الكاثوليكي الأيرلندي من سياسات الاحتلال البريطاني في أيرلندا الشمالية لم يكن لاهوتيًا؛ فالقضية في أيرلندا (كما هي في سائر أرجاء العالم الإسلامي) تتمحور حول السيادة وحول سياسات قوة الاحتلال. إن حروب الولايات المتحدة واحتلالاتها وغاراتها وضرباتها الجوية المتكررة تمخضت عن كثير من هذا الاستياء. كما نجم عنها وفقًا لحجج شديدة التماسك ساقها العالم بالسياسة روبرت بيت، معظم التفجيرات الانتحارية التي استهدفت قوات غربية وأهدافًا غربية أيضًا[4]. هذا كلام يندرج في خانة الانتقام لا في خانة الدين، وهي حال شبيهة تمامًا بحال الأميركيين عقب أحداث الحادي عشر من

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) عامر مدهني، «هل تجاوز أوباما المدى في تعامله مع المسلمين يجدي نفعًا؟» ناشونال جرنال، ٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٠.

http://nationaljournal.com/whitehouse/is-obama-s-outreach-to-muslims-working—20101109

(٣) خوان كول، الانخراط في العالم الإسلامي، ٢٣٧.

(٤) روبرت بيب، «ما الذي يثير منفذ التفجير الانتحاري؟» لوس أنجلوس تايمز، ٢٢ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٠.

http://articles.latimes.com/2010/oct/22/opinion/la-oe-pape-fgn-occupation-20101022..

سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١؛ حال أشار إليها بذكاء المعلق إم. جنيد ليفسك علام في سؤال صاغه على النحو الآتي: «عندما اندفعت ثلاث طائرات بعنف وارتطمت بأبنية تمثل رموزًا قومية، هل تأجل ازدياد الغضب والكراهية في قلوب الأميركيين إلى ما بعد الرجوع إلى آيات من الكتاب المقدس استشارةً واسترشادًا؟»[١].

وأنت لست مستاءً لأنك (كما قال الرئيس بوش) تكره أسلوب الحياة الأميركي. ولك (كما لأصدقائك وأسرتك) تطلعات ليست شديدة الاختلاف عن تطلعات غير المسلمين في جميع أرجاء العالم. وكتب مستطلع الآراء ستيفن كول في هذا الصدد الآتي: «إن استطلاعات الرأي العديدة التي أجريناها، فضلاً عن استطلاعات أخرى أجرتها مؤسسة مسح القيم العالمية، وتغيرات الرأي العام العربي، أظهرت وجود دعم قوي في العالم الإسلامي للديمقراطية ولحقوق الإنسان، وللنظام العالمي المستند إلى قانون دولي وإلى أمم متحدة قوية»[٢]. فيما أظهر معهد غالوب لقياس الرأي وجود دعم قوي في العالم الإسلامي لحرية التعبير وللمساواة في الحقوق الجندرية[٣]. إن الاحتجاجات التي زلزلت العالم الإسلامي في عام ٢٠١١، والتي انطلقت من تونس وامتدت إلى مصر وبلغت اليمن

---

(١) إم. جنيد عالم لوفيسك، «روبرت رايت والقرآن»، السياسة الخارجية تحت المجهر، ١٥ سبتمبر/ أيلول ٢٠١٠.

http://www.fpif.org/blog/robert_wright_and_the_Qur'an_grappling_with_the_wrong_religion.

(٢) ستيفن كول، «المسلمون وأميركا: تذويت صدام الحضارات»، الرأي العام العالمي، ٧ يونيو/ حزيران ٢٠١٠.

http://www.worldpublicopinion.org/pipa/articles/brmiddleeastnafricara/663.php?nid=&id=&pnt=663&lb=

(٣) وفقًا لاستطلاع للرأي أجراه معهد غالوب، الأغلبيات الساحقة في كل الدول التي استطلعت آراء شعوبها تقريبًا (٩٥٪ في بوركينا فاسو، ٩٤٪ في مصر، ٩٣٪ في إيران، ٩٠٪ في إندونيسيا)، عدت حرية الرأي مضمونة في حال وضع مسودة دستور. وقالت أغلبيات كبيرة ساحقة مماثلة تقريبًا ينبغي أن تتمتع النساء بحقوق الرجال ذاتها، وكانت نسب أصحاب هذا الرأي: ٨٥٪ في إيران، وكانت في حدود ٩٠٪ في كل من إندونيسيا وبنغلاديش وتركيا ولبنان؛وبلغت ٧٧٪ في باكستان؛ ٦١٪ في المملكة العربية السعودية. جون إسبوسيتو وداليا مجاهد، من يتحدث باسم الإسلام؟، ٤٧، ٥١.

ووصلت إلى أماكن أخرى، تظهر تعطش كثير من المسلمين إلى قدر أكبر من الديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

والحملة الصليبية الجديدة ليست حربًا مقدسة إلا ربما في خيالات المسيحانيين المسكونة بأسفار الرؤيا. إلا أن الحملات العسكرية للحملة الصليبية الجديدة، بخاصة في تزامنها مع موجة كراهية الإسلام في الولايات المتحدة وأوروبا، تضفي على سياسات الولايات المتحدة وحلفائها مظاهر نضال حضاري. واستعاضة إدارة أوباما عن اسم الحرب العالمية على الإرهاب باسم مختلف، لم تلطف من حدة الأهداف الرئيسة للحملة الصليبية الجديدة. وعلى الرغم من أن فريق الإدارة الجديد في واشنطن كان أدقَّ إعدادًا وأكثر حذرًا في تعريفه للإسلام بأنه دين سلام، وفي عمله على خطب ود العالم الإسلامي، فإن المسلمين ببساطة لا يؤمنون بصدقية هذا السلوك.

إساءة فهم الربيع العربي:

تجمع المتظاهرون بالآلاف مطالبين سلميًا بإنهاء الديكتاتوريات: ما العيب في هذا؟ إلا أن الربيع العربي لم يرُقْ لكل الناس. الربيع العربي الذي أسقط الطغاة في تونس ومصر عام ٢٠١١، وأدى إلى نشوب حرب أهلية في ليبيا أسفرت في نهاية المطاف عن الإطاحة بمعمر القذافي، وهددت أنظمة حكم استبدادي في كل من اليمن وسوريا وفي أماكن أخرى.

بذلت المرشحة الجمهورية للرئاسة ميشيل باخمان جهدًا خاصًا في توجيه اللوم إلى الرئيس أوباما في ما يتعلق بالربيع العربي. فقد سألت جمهورها في حفل أقيم في نيوهامبشاير لجمع التبرعات قائلة: «هل تودون أن تعرفوا لماذا لدينا ربيع عربي؟ ذلك لأن باراك أوباما أفسح في المجال أمام الربيع العربي عبر إظهاره ضعفًا من قبل الولايات المتحدة الأميركية»[١].

(١) جامي نوفوغرود، «باخمان يدين الربيع العربي، ويلوم أوباما بشأنه»، إم إس إن بي سي، ٢٩ سبتمبر/ أيلول ٢٠١١.
http://firstread.msnbc.msn.com/_news/20118038856-/29/09/bachmann-condemns-arab-spring- blames-it-on-obama.

إن انزعاج باخمان من الربيع العربي ينبع من ربطها بين القادة الأقوياء وبين الوقاية من التطرف الإسلامي. وفي نسخة محدثة من ترشيد الحرب الباردة الكلاسيكية، يقول المناهضون للجهاديين: يجب على الولايات المتحدة أن تدعم الحكام المستبدين حول العالم في حروبهم ضد العدو الأكبر والأكثر وجوديةً. وفي عالم باخمان السياسي، كان يجب على الولايات المتحدة أن تساند مبارك تمامًا، كما يتعين عليها أن تدعم شاه إيران القمعي ضد التظاهرات التي اندلعت في طول البلاد وعرضها عام ١٩٧٩، وكل ذلك من أجل محاربة الإسلام السياسي.

لكن ليس مسيحيو اليمين المتطرف، مثل باخمان، أكثر من نهضوا بهذه الأطروحة، فقد جاء في مجلة الإيكونوميست «أن ليبراليين عديدين مازالوا يعتقدون أن الإسلامويين، مهما بدوا معتدلين في الوقت الراهن، مصممون على الاستيلاء على الحكم في المدى البعيد، وسوف يتخلون عن الديمقراطية بمجرد وصولهم إلى السلطة، وسوف يعمدون إلى استخدام كل أنواع المغالطات والعنف لتحقيق هدفهم. والليبراليون الذين يكرهون ديكتاتورية بشار الأسد في سوريا يخافون أن يظهر الإسلاميون بوصفهم معارضته الرئيسة. ولا يزال عدد كبير من الليبراليين يشككون في صدقية الحكومة التركية، التي يطرحها الإسلامويون العرب على نطاق واسع نموذجًا ممتازًا لساسة مسلمين أتقياء يراعون قواعد الديمقراطية الحديثة»[1].

ووفقًا للنهج الليبرالي المناهض للجهاد، الإسلاميون شبيهون بالشيوعيين الغادرين إبّان الحرب الباردة، فهم يتظاهرون بأنهم معتدلون فقط من أجل خداع السذّج القابلين للانخداع. وورد في ما كتبه راي تاكية من مجلس العلاقات الخارجية في هذا السياق: «إن الاعتدال الذي أبدته هذه المجموعات في العقود

(١) «الإسلام والديمقراطية: عشيران مضطربان»، الإيكونوميست، ٦ أغسطس/ آب ٢٠١١.
http://www.economist.com/node/21525410.

القليلة الماضية في أماكن مثل مصر، كان ضربًا من البراغماتية التي ولدت من رحم الضرورة، لا نوعًا من التطور الفكري. وإذا ما تحررت هذه المجموعات من قيود الدول البوليسية العربية، سوف تغدو حرةً طليقةً في المضي قدمًا في تنفيذ أجنداتها المناوئة لليبرالية والمناهضة للغرب»[1]. إن هذا التقويم لا ينسحب على تجربة الإخوان المسلمين وغيرها من المنظمات التي جمعت بين الإسلام والسياسة. لقد شاركت هذه الجماعات والمنظمات بروح ديمقراطية كاملة في إعادة تكوين كل من مصر وتونس. وإن استعداد الإخوان المسلمين الطوعي هذا للانخراط في عالم السياسة الحديثة لم يثر غضب أحد، باستثناء تنظيم القاعدة الذي يرفض مقاربات إصلاحية من هذا القبيل[2].

ومع ذلك يبقى تنظيم القاعدة شبحًا يراه كارهو الإسلام ومثيرو المخاوف منه في أي اجتماع يجمع أكثر من ثلاثة مسلمين معًا.

لنلق نظرة على كيفية تصوير المتمردين الليبيين:

المجاز المشترك في التغطية الإعلامية (في اليمين واليسار وحتى في الديلي شو) كان منعقدًا على النظر إلى أولئك الذين يقاتلون للإطاحة بمعمر القذافي، بوصفهم مكافئين للمجاهدين الذين حاربوا في أفغانستان وتحولوا

---

(١) راي تاكيه، «يجب على الولايات المتحدة أن تعرب عن دعمها للربيع العربي لكي تبقيه بمنأى عن هيمنة الإسلاميين»، الواشنطن بوست، ٢٣ آذار ٢٠١١.
http://www.washingtonpost.com/opinions/us-must-take-sides-to-keep-the-arabspringfrom-islamist-takeover/201123/03//ABNhl2KB_story.html.

(٢) بوصفه ضابطًا سابقًا في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، جاء فيما كتبه بروس ريدل: «بدأ قائدا القاعدة أسامة بن لادن وأيمن الظواهري حياتهما السياسية منتسبين تابعين لحركة الإخوان المسلمين، إلا أن الرجلين كليهما أنكر عليها لين عريكتها، وسهولة قيادها عبر عقود من الزمن، وكونها أداة بيد مبارك وأميركا؛ فلا تخافوا من حركة الإخوان المسلمين في مصر»، الديلي بيست، ٢٧ يناير/ كانون الثاني ٢٠١١.
http://www.thedailybeast.com/articles/2011/01/27/muslim-brotherhood-could-win-in-egypt-protests-and-why-obama-shouldnt-worry.html.

إلى القاعدة[1]. وحقيقة أن مقاتلين أفغانًا سابقين عديدين ومعتقلين سابقين في معتقل غوانتانامو كانوا بين المقاتلين المتمردين، عززت بالتأكيد فكرة الربط بين هؤلاء وهؤلاء. لكن وكما أشارت صحيفة الوول ستريت جورنال في أبريل/ نيسان ٢٠١١: «يمثل القادة الإسلاميون والوحدات التابعة لهم أقلية صغيرة نسبيًّا ضمن حركة المتمردين»[2]. والمجلس الوطني الانتقالي الذي حل محل نظام القذافي يضم بعض الإسلامويين، ودعا رئيس المجلس إلى جعل الشريعة الإسلامية مصدرًا رئيسًا للتشريع، إلا أن الدساتير في كل من أفغانستان والعراق هي أيضًا مستمدة من الشريعة الإسلامية، والإسلامويون في ليبيا رفضوا، على وجه العموم، التطرف لمصلحة التعددية الديمقراطية[3].

---

(١) عن اليسار، انظر روبرت درايفوس، «ثلاثة أسئلة عن مغامرة أوباما الليبية الكبرى»، نيشن، ٣١ أغسطس/ آب ٢٠١١.

http://www.thenation.com/blog/163070/three-questions-obamas-great-libyan-adventure

عن اليمين، انظر بيل غيرتز، «الجهاديون يتآمرون من أجل الهيمنة على ليبيا»، الواشنطن تايمز، ٤ سبتمبر/ أيلول، ٢٠١١.

http://www.washingtontimes.com/news/2011/sep/4/jihadists-plot-to-take-over-libya/?page=all;

وعن مقطع عبر الديلي شو من أداء جون ستيوارت، انظر بول وردن الإسلاموفوبيا - عبر الديلي شو «الحرب في السياق»، ٥ أبريل/ نيسان٢٠١١.

http://warincontext. org/201105/04//islamophobia-on-the-daily-sho/.

(٢) تشارلز ليفينسون، «المجاهدون السابقون ساعدوا في قيادة الثوار الليبيين»، وول ستريت جورنال، ٣ أبريل/ نيسان ٢٠١١.

http://online.wsj.com/article/SB100014240 52748703712504576237042432212406.html

(٣) رود نودلاند، «دبلوماسي أميركي رفيع المستوى في طرابلس يقول: الإسلاميون ليسوا تهديدًا»، نيويورك تايمز، ١٤ سبتمبر/ أيلول، ٢٠١١.

http://www.nytimes.com/201115/09//world/africa/senior-american-diplomat-in-tripoli-says-islamists-are-not-a-threat.html

وأبيجل هوسلفر، «ثورة ليبيا تنتج هجينًا جديدًا: إسلاميين موالين للغرب»، تايم، ١٦سبتمبر/ أيلول ٢٠١١.

http://www.time.com/time/world/article/0,8599,2093518,00.html

ولا يبدو أن القلق يساور الليبيين أنفسهم بشأن احتمال اختطاف ثورتهم من قبل الإسلام الراديكالي[1].

إن النظرية التي تذهب إلى أن الحركة الإسلامية سوف تختطف الربيع العربي تستند إلى صور نمطية صليبانية أقدم عهدًا، تتمحور حول المسلمين المشارقة غير الجديرين بالثقة، وحول افتراضات الحرب الباردة المتعلقة بالمخططات العدوانية السوفياتية الشائنة.

وتشير التجارب الأخيرة إلى أنه لن يحدث اختطاف؛ فقد استمرت الديمقراطية في تركيا في ظل حكم حزب متأثر بالإسلام، ولم يستولِ رجال الدين المسلمون على السلطة في إندونيسيا. وقد نجح الآن متظاهرو الربيع العربي في تبديد المعتقدات الخاطئة القائلة إن الديمقراطية لا تتعايش مع الدول الإسلامية، وإن المسلمين عنيفون بطبيعتهم. وفي الواقع، يشير أميتاب بال بوصفه صحافيًا إلى أن الجهود غير العنيفة التي تتحدى السلطة الإمبريالية أو الاستبدادية، كانت منذ زمن طويل ميزةً وسمةً في عالم الإسلام، منذ عهد الإسلاميين المسلمين نابذي العنف الذين تحالفوا مع غاندي، وصانعي السلام الصوفيين الذين نشطوا في جميع أرجاء العالم، وصولاً إلى المقاومة المدنية لألبان كوسوفو ضد صربيا، والناشطين الفلسطينيين المناهضين للاحتلال الإسرائيلي[2].

إن الأحزاب الإسلامية حقيقة واقعة في الشرق الأوسط، تمامًا كما إن الأحزاب ذات الدوافع الدينية حقيقة واقعة في أوروبا (الديمقراطيون المسيحيون)، أو في الهند (حزب بهارتيا جاناتا للهندوسي)، أو في إسرائيل

---

(١) كوري فلينتوف، «ما الدّور الذي سوف يلعبه الإسلاميون في ليبيا؟» الإذاعة الرسمية القومية، ٢١ سبتمبر/ أيلول ٢٠١١.

http://www.npr.org/2011140665324/21/09//what-role-will-islamists-play-in-libya.

(٢) أميتاب بال، «الإسلام» يعني السلام. على الرغم من ظهور الحركات العنيفة مؤخرًا في كل من كوسوفو والأراضي المحتلة، الجهود التي تنبذ العنف كانت أكثر رواجًا وشعبيةً بكثير نولها قاعدة واسعة وناجحة إلى حد ما.

(حزب شاس). لقد كانت حركة الإخوان المسلمين ومن لف لفها تلعب بالقواعد والأنظمة تمامًا كما كانت هذه الأحزاب الدينية الأخرى تلعب بها إلى حد بعيد[1]. فإن كنا ندعم الديمقراطية إذن علينا أن نعترف بخيار الشعب ونتقبله حتى عندما نختلف مع ذاك الخيار. أنا لا أقر حركة الإخوان المسلمين على نزعاتها المتمثلة بكراهيتها للمثلية الجنسية ومعاداتها للسامية، إلا أنني أحترم هذه الحركة لكفاحها ضد التطرف الديني، وضد النزعة الاستبدادية العلمانية عبر المنطقة. إن هذا جزء من التعددية الجديدة في الشرق الأوسط.

إن إدارة أوباما، على الرغم من توصيف باخمان، لا تزال تقف إلى جانب التابعين لها السائرين في فلكها في الشرق الأوسط، سواء أكان ذلك في البحرين أم في المملكة العربية السعودية، وذلك خوفًا ممن قد يحلون محلهم. فهي ما انفكت تخشى شبح الإسلام، باستثناء أولئك الإسلاميين الذين أثبتوا إبان الحرب الباردة فائدتهم على صعيد الإطاحة بقوميين عرب مثل القذافي. وما برحت هذه الإدارة تسيء فهم طبيعة الحياة السياسية في الشرق الأوسط. وفي استطلاع للرأي أجراه في عام ١٩٨٥ في العالم العربي الصحافي بيتر مانسفيلد تحت عنوان «العرب»، توصل هذا الصحافي في الفصل الأخير من استطلاعه إلى أنه: «ليس في وسع أحد أن يتنبأ بالحالة التي سوف تكون عليها المؤسسات

(١) غالبًا ما يحاجج مثيرو المخاوف من الإسلام في الولايات المتحدة في أن حركة الإخوان المسلمين تسيطر على كل المنظمات الإسلامية الرئيسة في الولايات المتحدة، بوصف ذلك جزءًا من مهمتها السرية (غير المعلنة) الرامية إلى إقامة الخلافة العالمية، وهم يشيرون في هذا الصدد إلى مذكرة بذاتها كتبها أحد أعضاء جماعة الإخوان المسلمين، وكشف النقاب عنها في قضية قضائية رفعت ضد منظمة إسلامية أميركية. وقال عن هذه القضية ناثان براون (وهو أستاذ جامعي يدرس مادة العلوم السياسية والشؤون الدولية، ويشغل منصب مدير معهد دراسات الشرق الأوسط في جامعة جورج تاون): «لم يقدّم أحد قطُّ أي دليل على أن الوثيقة كانت تعدو كونها شيئًا ناجمًا عن حلم يقظة حلم به أحد المتحمسين الغارقين في أحلام اليقظة، نرحب بكم في مصنع فبركة نظرية مؤامرة الشريعة». رسائل دينية موجهة، ٨ مارس/ آذار٢٠١١.
http://www.religiondispatches.org/archive/politics/4335/welcome_to_the_shari'ah_conspiracy_theory_industry

السياسية والاجتماعية، التي سوف يشكلها ويطورها الشعب العربي مع نهاية هذا القرن بالغ الخطورة والأهمية. وكل ما يمكن قوله على وجه اليقين هو أنه مهما يكن حجم ما يستقيه (العرب) من الحركات الأجنبية والفكرِ الأجنبية كبيرًا، سوف يكون لهم على وجه التحديد طابعهم العربي والإسلامي»[1]. وبعد مرور ثلاثين عامًا تقريبًا، ما زال يتعين على صانعي السياسة والعاملين في أمورها أن يتعلموا أن الإسلام مكون أساسي من مكونات الحياة العربية، وأن هذا الأمر يشمل السياسة.

كان الصقور إبان الحرب الباردة يعتقدون أن الشيوعية تقبع وراء كل حركة تقريبًا، من الحركات المكافحة من أجل تقرير المصير وتحقيق العدالة الاقتصادية، أو تلك المناهضة لقادة الاستبداد. كما كانوا يتصورون أن الشيوعيين كامنون خلف كل ركن في الولايات المتحدة أيضًا. لقد انسحب هذا الخوف من العدو في الداخل وفي الخارج على عالم الحملة الصليبية الجديدة أيضًا.

الحرب على الإرهاب في الداخل:

بعد انتخاب أوباما في نوفمبر/ تشرين الثاني من عام ٢٠٠٨، بدا أن المؤامرات الإرهابية أخذت تفرّخ من جديد في كل مكان من الولايات المتحدة. فقد ألقي القبض على أربعة رجال في نيوبورغ، نيويورك، كانوا يخططون لتفجير معبدين يهوديين، كان ذلك في شهر مايو/ أيار من عام ٢٠٠٩. وفي شهر أكتوبر/ تشرين الأول من عام ٢٠٠٩ أيضًا، أطلق مكتب التحقيقات الفيدرالي النار على إمام مسجد من ديترويت وأرداه قتيلاً، متهمًا إياه بإشعال فتيل ثورة ترمي إلى إقامة دولة إسلامية منفصلة في أميركا. وفي مدينة بورتلاند التابعة لولاية أوريغون، ألقى موظفو مكتب إنفاذ القانون الفيدرالي القبض على مراهق صومالي المولد في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني من عام ٢٠١٠، بتهمة التآمر لتفجير حفل لإضاءة شجرة ميلاد. وفي بالتيمور، خطّط عامل بناء شاب يبلغ

---

(١) بيتر مانسفيلد، العرب (لندن: بينغوين، ١٩٨٥)، ٥٠٧.

من العمر واحدًا وعشرين عامًا للهجوم على مركز للتجنيد العسكري في شهر ديسمبر/ كانون الأول من عام ٢٠١٠.

ولعب انتشار المؤامرات الإرهابية دورًا مهمًا في إقناع إدارة أوباما في شهر فبراير/ شباط من عام ٢٠١٠، للتوقيع على تمديد العمل بموجب قانون باتريوت لمدة سنة واحدة في الولايات المتحدة الأميركية، حتى على الرغم من وصف أوباما للقانون بأنه «رديء وخطر»، وذلك في استطلاع للرأي أجري عام ٢٠٠٣ عندما كان يخوض غمار معركة انتخابية في سياق الترشح للفوز بعضوية مجلس الشيوخ. كما حثّ على إجراء إصلاح جوهري في خطاب ألقاه في عام ٢٠٠٦ [١]. ومرّ قرار تمديد العمل بمقتضى قانون «باتريوت» لمدة سنة دون فرض قيود جديدة على التنصّت والاطلاع على السجلات والمراقبة، وجميع السياسات المثيرة للجدل التي كانت متبعة في عهد إدارة بوش[٢].

ومع ذلك، في عدد من المؤامرات الإرهابية، بما فيها تلك التي حاكها الرجال الأربعة وورد ذكرها آنفًا، لم يكن المتواطئ الرئيس فيها تنظيم القاعدة أو حركة طالبان، بل كان مكتب التحقيقات الفيدرالي؛ إذ لجأ المكتب إلى التجسس وإلى عملائه السريين من أجل إغراء الإرهابيين واستدراجهم من مخابئهم، وهذا أمر ينبغي أن يبعث على الطمأنينة. غير أن سياسة الولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب، سواء أكانت في الداخل الأميركي أم في الخارج، تعاني مشكلة الجزرة

(١) للاطلاع على إجابات عن سؤال المسح، انظر:

http://abcnews.go.com/images/politics/obama1_1.pdf

للاطلاع على الخطاب الذي ألقي عام ٢٠٠٦، انظر باراك أوباما، «خطاب الأرض للسناتور باراك أوباما: إجازة قانون باتريوت من جديد»، ١٦ فبراير/ شباط ٢٠٠٦.

http://obamaspeeches.com/053-Floor-Statement-S2271-PATRIOT-Act-Reauthorization-Obama- Speech.htm

(٢) مايكل فارل، «أوباما يوقع وثيقة لتمديد العمل بقانون باتريوت بدون إصلاحات»، كريستشن ساينس مونيتر، ١ مارس/ آذار، ٢٠١٠.

http://www.csmonitor.com/USA/Politics/20100301//Obama-signs-Patriot-Act-extension-without-reforms.

والعصا. فالعصيّ التي استخدمها البنتاغون ضد بلاد المسلمين أسهمت إسهامًا كبيرًا في تشجيع استشراء التآمر على الجبهة الداخلية، ومع ذلك تتظاهر واشنطن بأن الوضع خلاف ذلك. وأما الجزر الذي يرميه مكتب التحقيقات الفيدرالي عبر عملائه السريين وعملياته السرية، فيشير إلى أسلوبه في الاحتيال (إيقاع الإرهابيين في أشراكه).

لم يَطْرَبِ المسؤولون عن إنفاذ القانون لاتهامهم بالاحتيال، فبعد إلقاء القبض على محمد عثمان البالغ من العمر تسعة عشر عامًا، المدعى أنه مفجّر بورتلاند، قال النائب العام إيريك هولار: «لقد سنحت فرص عديدة للمتهم في هذه القضية؛ لكي يتراجع عن موقفه ولسلوك مسلك مختلف. إلا أنه كان في كل خطوة يختار الاستمرار»[1]. وكان موقف المحلفين متوافقًا أساسًا مع موقف الحكومة، وحتى الآن لم يؤدِ دفاع الاحتيال إلى صدور أي أحكام بالبراءة، ويمكن أن يتغير هذا الأمر على كل حال.

ووفقًا للمحكمة العليا، يقع جرم الاحتيال إذا انبثقت النية الجنائية من موظفي الحكومة، وزرعوا في ذهن شخص بريء ميلاً إلى ارتكاب مخالفة مزعومة واستمالوه وأغروه لارتكابها رغبةً منهم في محاكمته ومقاضاته[2]. وفي قضية بورتلاند، لم تكن هناك مؤامرة ولا متواطئون قبل أن يقرر مكتب التحقيقات الفيدرالي التدخل. وكان المكتب يتعقّب محمود منذ عام ٢٠٠٩ عندما اعترض رسائل إلكترونية متبادلة بينه وبين مجند إرهابي مشتبه فيه. ومن جميع الأدلة المتوفرة، كان يشعر بالتعاسة والتثبيط حيال أميركا، وربما كان

---

(١) اريك شميت وتشارلي سافيج، «في عمليات الولايات المتحدة السرية «الذكية»، مسائل الاحتيال»، نيويورك تايمز، 29 نوفمبر/ تشرين الثاني2010.
http://www.nytimes.com/2010/11/30/us/politics/30fbi.html?ref=mohamed_osman_mohamud.

(٢) ريتشارد بيرنستين، «الدفاع الذي يمكن أن يكون مهملاً»، نيويورك تايمز، ١ ديسمبر/ كانون الأول، ٢٠١٠.
http://www.nytimes.com/201002/12//us/02iht-letter.html?_r=1&ref=richard_bernstein

منجذبًا نحو الإرهاب. لم يكن بريئًا كليًا. ومن ناحية أخرى، بوصفه مراهقًا كان يمكن أن يُحالَ بينه وبين الانجذاب نحو الإرهاب بدلاً من تشجيعه على الاستجابة لأسوأ غرائزه من قِبَلِ مكتب التحقيقات الفيدرالي. وفي الوقت ذاته، وفيما كان مكتب التحقيقات الفيدرالي يركز على الشاب محمود، كان يتجاهل الشاب جاريد لوفنز الذي كان أداؤه في الجامعة وما ينشره عبر الإنترنت ينبغي أن يكونا قد وفرا تحذيرًا وافرًا من أنه كان مهيأً للإقدام على العنف. لكن لم يراقبه أحد لأن مظهره لم يلائم مظهر الإرهابي وفقًا لرؤية مكتب التحقيقات الفيدرالي، وأطلق لوفنز النار على عشرين شخصًا أردى خمسةً منهم قتلى، وأوشك أن يغتال غابرييل جيفورد عضو الكونغرس الديمقراطي عن ولاية أريزونا في شهر يناير/ كانون الثاني من عام ٢٠١١.

وعلى نحو مماثل، لم يأتِ رجال نيوبورغ الأربعة بفكرة خطة تفجير المعبدين اليهوديين وإسقاط طائرات عسكرية، إذ كانت الفكرة اقتراحًا قدمه شاهد حسين، المخبر لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي، الذي جال على المساجد بحثًا عن إرهابيين محتملين، ولوح لهم بمبالغ طائلة من المال إغراءً لينضموا إليه في «الجهاد». وعندما حاول أحد الأشخاص الأربعة ممن اعتنقوا الدين الإسلامي- وكلهم هامشيون معوزون من أصول أفريقية-الانسحاب من المشروع لأنه سيؤدي إلى قتل نساء وأطفال، ضغط عليه حسين للمواظبة، كما تشير سجلات المحكمة، وإلا فسيعرض سمعة المخبر للخطر[1]. كما سعى حسين إلى إثارة المشاعر المعادية لليهود لدى زملائه المفترضين، عبر إخبارهم بأن «اليهود هم المسؤولون عن الحروب التي شنتها الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وهم المسؤولون عن أعمال عنف أخرى استهدفت مسلمين»[2].

---

(١) تد كونوفر، «النيوبرغي (ضرب من الطعام مع النبيذ) الأربعة المثيرة للشفقة»، سليت، ٢٣ نوفمبر/ تشرين الثاني، ٢٠١٠.

http://www.slate.com/id/2275735/.

(٢) ستيفان سالزبوري، «تدبير مكائد الإرهاب»، توم ديسباتش، ٦ يوليو/ تموز، ٢٠١٠.
http://www.tomdispatch.com/post/175270/tomgram:_stephan_salisbury,_plotting_terrorism__/.

وشاهد حسين ليس المخبر المريب الوحيد الذي يعمل لمصلحة مكتب التحقيقات الفيدرالي. فقد واظب أسامة الداوودي على دفع متين سراج، وهو شاب باكستاني، من أجل المضي قدمًا في مؤامرة ترمي إلى تفجير محطة مترو أنفاق في هيرالدسكوير في نيويورك عام ٢٠٠٤، حتى على الرغم من أن سراج كان منزعجًا من فكرة إيذاء الناس، ورغب في الحصول على إذن من أمه أولاً[١]. وكان مخبر لم يكشف النقاب عن اسمه عرض على إمام مسجد ديترويت لقمان أمين عبد الله، الذي تعقبه مكتب التحقيقات الفيدرالي على مدى ثلاث سنوات، مبلغ خمسة آلاف دولار أميركي لقاء إقدامه على تنفيذ عمل من أعمال العنف أثناء إقامة بطولة للعبة البولنغ عام ٢٠٠٦. ورفض عبد الله «الانخراط في عمل يسبب أذى لأناس أبرياء دونما سبب»[٢]. واستمرت عملية مكتب التحقيقات الفيدرالي القائمة على المكيدة، وأسفرت عن إطلاق النار على الإمام في الظهر. وشأنه شأن شاهد حسين، توجه أيضًا الملفق الآثم كريج مونتليه إلى المساجد يدعو الناس للإرهاب. وورد في تقرير نشرته صحيفة الواشنطن بوست أن المسلمين في مركز إرفين الإسلامي في كاليفورنيا كانت تنتابهم حالة من الجزع الشديد، من جراء حديث أدلى به كريج ودعا فيه إلى الجهاد عبر توسل العنف، الأمر الذي حدا بهم إلى استصدار أمر باعتقاله[٣]. لقد كسب هؤلاء المخبرون أموالاً طائلةً لقاء عملهم المتمثل في الإيقاع بإرهابيين محتملين. وبدا عملهم شبيهًا على نحو مخيف بعمل صائدي الجوائز الحكومية في أفغانستان الذين كانوا يسلمون (عقب غزو أفغانستان في عام ٢٠٠١) سلطات الاحتلال أي شخص يشتبه بأن له صلات مع تنظيم القاعدة أو حركة طالبان. وأسفر ذاك التكتيك عن اعتقال مئات من المشتبه بهم الذين لا علاقة لهم بأي من المنظمتين.

---

(١) ستيفان سالزبوري، أشباح محمد، ١٨٢.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) جيري ماركون، «التوتر يتنامى بين مسلمي كاليفورنيا، مكاتب التحقيقات الفيدرالي بعد تلقيه معلومات يقتحم مسجدًا»، الواشنطن بوست، ٥ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠١٠.
http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/201004/12//AR2010120403710_pf.html.

سواء أتكشف الأمر في نهاية المطاف عن صلاحية هذا التكتيك الذي يتبعه مكتب التحقيقات الفيدرالي بوصفه احتيالاً أم لا، فإنه يؤدي إلى تسميم العلاقات مع الجالية المسلمة. ويقول في هذا الصدد أحد أعضاء المركز الإسلامي في إيرفين: «يرغب مكتب التحقيقات الفيدرالي في التعامل مع الجالية المسلمة بوصفها شريكًا في الوقت الذي يتعقبنا فيه ويستقصي أخبارنا خفيةً، ومن غير الممكن فعل الأمرين معًا»[١]. في الواقع، ينحرف نهج مكتب التحقيقات الفيدرالي انحرافًا خطيرًا مقتربًا من تنميط الجالية المسلمة بأسرها بوصفها نزّاعةً إلى الإرهاب، في وقت ربما كانت فيه تلك الجالية الذخر الأعظم لمكتب التحقيقات الفيدرالي في تحديد المتطرفين. ووفقًا لما ورد في تقرير صادر عن جامعة ديوك في هذا الشأن: «الأميركيون المسلمون مشاركون على أعلى مستوى في ضبط الأمن والقيام بمهام الشرطة الذاتية ضد الردكلة، الأمر الذي يمكن أن يساعد في تفسير سبب ندرة الأنشطة الإرهابية من قبل أميركيين مسلمين»[٢]. غير أن القيام بمهام الشرطة الذاتية إلى جانب «مشاركات الجالية» التي شجع عليها مكتب التحقيقات الفيدرالي تحققت لقاء تكبد ثمن: الرقابة الذاتية والخوف من تحدي سياسات الولايات المتحدة. وتوصل في هذا السياق آرون كوندناني إلى الاستنتاج الآتي: «كان من الممكن أن تكون حركة الحقوق المدنية أقل نجاحًا بكثير لو كان قائدها الوحيد مارتن لوثر كينغ الابن، ولم يكن ثمة متطرفون يلوحون في الأفق»[٣].

---

(١) كيلي فلاهوس، «توترات بين مكتب التحقيقات الفيدرالي والمسلمين بسبب تنامي التهم الموجهة للمكتب بالاحتيال»، منظمة التغيير، ٧ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠١٠.
http://criminaljustice.change.org/blog/view/tensions_between_fbi_and_muslims_over_entrapment_charges_growing

(٢) ديفيد شانزير، تشارلز كروزمان، وإبراهيم موسى، «دروس مناهضة للإرهاب من المسلمين الأميركيين»، ٦ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٠، ٢٢.
http://www.sanfordduke.edu/news/Schanzer_Kurzman_Moosa_Anti-Terror_Lessons.pd

(٣) آرون كوندناني، «مسلمو مكتب التحقيقات الفدرالي «الطيبون»»، نيشن، ١٩ سبتمبر/ أيلول، ٢٠١١، ٢٠.

كما جَرَّمتْ حكومة الولايات المتحدة أي إمداد بـ«دعم مادي» لجماعة إرهابية أجنبية، وهذا قانون أيدته المحكمة العليا صَيْفَ عام ٢٠١٠، واستخدمته ضد الجمعيات الخيرية الإسلامية والأفراد الذين يديرون شؤونها. وتلاحظ جنيفر ترنر من الاتحاد الأميركي للحريات المدنية أن «الترهيب واسع النطاق للجهات الإسلامية المانحة، والإدراج التعسفي لأسماء الجمعيات الخيرية في القائمة السوداء يسحقان باستعلاء ممارسة المسلمين الحرة لتعاليم دينهم، عبر عطاءاتهم الخيرية، ويخلقان أجواءً من الخوف وانعدام الثقة في إنفاذ القانون، ويقوّضان جهود أميركا الدبلوماسية في الدول الإسلامية»[١]. ويشير ديفيد كول بوصفه باحثًا قانونيًا إلى أن القانون يجرم أيضًا النيويورك تايمز والواشنطن بوست لنشرهما مقالات لأحد قادة حركة حماس؛ لأن هذا يُعد إمدادًا «بدعم مادي» لجماعة مصنفة على أنها إرهابية[٢]. إلا أن مكتب التحقيقات الفيدرالي لا يسعى وراء وسيلة إعلام رئيسة مسايرة للاتجاه السائد، بل يستهدف الجالية المسلمة[٣].

والأساس المنطقي لهذا الاستهداف ضعيف للغاية، فمنذ الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، كانت هناك إحدى عشرة حالة لمسلمين أميركيين غاضبين

---

(١) «بعد مرور عام على خطاب أوباما الذي ألقاه في القاهرة، سياسات الولايات المتحدة تثابر على استهداف المسلمين جورًا وظلمًا»، اتحاد الحريات المدنية، ٤ يونيو/ حزيران ٢٠١٠.

(٢) نقلاً عن «من يعدون إرهابيين تحريضيين»، نيويورك تايمز، ٢١ يونيو/ حزيران، ٢٠١٠.
http://roomfordebate.blogs.nytimes.com/201021/06//what-counts-as-abetting-terrorists/.

(٣) يوجد خطر آخر يتمثل في تطبيق هذا النمط من جمع المعلومات المهمة على مجتمعات أخرى.في خريف عام ٢٠١٠، بدأت وزارة العدل اتخاذ إجراءات صارمة بحق نشطاء مناهضين للحرب؛ بسبب صلاتهم المزعومة بمنظمات إرهابية في الخارج. وفي سبتمبر/ أيلول داهم عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي منازل النشطاء ومكاتبهم، وأصدروا مذكرات استدعاء بحق أربعة عشر شخصًا، ومنهم أشخاص على صلة بمنظمة نساء ضد الجنون العسكري التي تتخذ من مينيا بوليس مقرًّا لها، ومنظمة العمل العربية الأميركية التي تتخذ من شيكاغو مقرًّا لها، ومنظمة طلبة من أجل مجتمع ديمقراطي.
http://inthesetimes.com/article/6745/ terrorist_by_association.

من السياسة الخارجيّة للولايات المتحدة ارتكبوا فعلاً أعمالاً إرهابية في البلد[1]. وتشمل هذه الحالات الضابط في القوات المسلحة الرائد نضال حسن، الذي أطلق النار على عسكريين في قاعدة فورت هول في ولاية تكساس وقتل ثلاثة عشر منهم، وسوليجمن تالوفي الذي قتل خمسة أشخاص في مركز للتسوق في سولت لك سيتي في عام ٢٠٠٧. وقد أسفرت ستة من هذه الحوادث عن خسائر في الأرواح، حيث بلغ عدد جميع القتلى ثلاثة وثلاثين شخصًا. ولكي ننظر إلى هذا الأمر وفقًا لأهميته وبعده النسبيين، يتعين علينا القول إن عدد الذين قتلوا بفعل ارتكاب جرائم في الولايات المتحدة منذ وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول يربو على مائة وخمسين ألف إنسان[2]. وإذا ما أخذنا في الحسبان هذا العدد المنخفض جدًّا، نرى أن الأمر الخارق للعادة المتعلق به هو إيلاء التطرف الإسلامي اهتمامًا كبيرًا جدًّا في الولايات المتحدة. وكتب في هذا المضمار ثلاثة باحثين، في دراسة أجروها عن الإرهاب الإسلامي الأميركي، الآتي:

«شأنهم شأن الأقليات الأخرى في التاريخ الأميركي، يشتبه في إيواء المسلمين الأميركيين متطرفين، وفي أن انتماءهم إلى الولايات المتحدة تشوبه شوائب وتعتريه عيوب، ويسود اعتقاد في أنهم لا يستطيعون استيعاب الثقافات المهيمنة. وكانت قد أحاطت شكوك مماثلة لهذه بالألمان الأميركيين إبّان الحرب العالمية الأولى، وبالطليان الأميركيين أثناء حقبة المخاوف من الفوضويين والشيوعيين أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وبالأميركيين من أصول يابانية أثناء نشوب الحرب العالمية الثانية. وهذه بعض الأمثلة فقط»[3].

---

(١) وتشمل هذه البيانات أيضًا قناصي بلتويه الذين قتلوا أحد عشر شخصًا، وهو أمر مثيرللشك، إذ إنه يعد موقفاً ملتبسًا بين جريمة القتل بالتسلسل والإرهاب. تشارلز كورزمان وديفيد شانزر وإبراهيم موسى، «إرهاب المسلمين الأميركيين منذ الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول: لماذا هو من الندرة بمكان؟»، العالم الإسلامي، ٢٠١١، ٤٦٧.
http://sanford.duke.edu/centers/tcths/documents/Kurzman_Schanzer_Moosa_Muslim_American_Terrorism.pdf.

(٢) المرجع ذاته.

(٣) المرجع ذاته، ٤٨٣.

وخلص الباحثون الثلاثة في ختام دراستهم إلى الاستنتاج الآتي: إن الوقائع لا تدعم سياسة التنميط، ولا تبرر بكل تأكيد أسلوب الإيقاع بالناس.

وفي فيلم «تقرير الأقلية»، يلعب توم كروز دور شرطي يتعين عليه منع الجرائم قبل وقوعها بالاعتماد على وسطاء يستطيعون رؤية المستقبل. ومكتب التحقيقات الفيدرالي ليس في وسعه بعد الوصول إلى وسطاء يمكن الاعتماد عليهم. لذلك هو عاكف على فعل ما يندرج في المرتبة الثانية من حيث الأفضلية وهو: إكراه هذه الجرائم المستقبلية على الوقوع في الزمن الحاضر من أجل إلقاء القبض على المشتبه بهم. في بعض الحالات، احتمال وقوع جريمة وارد فعلاً. لكن في حالات أخرى، كان مكتب التحقيقات الفيدرالي عاكفًا على التحرك على نحو ينطوي على خطر في عالم الخيال العلمي.

مهاجمة التيار السائد:

باختصار، واظبت إدارة أوباما على إنتاج معظم السياسات التي كانت متبعةً في عهد بوش، والتي تهدد أرواح المسلمين وحرياتهم المدنية في الداخل الأميركي وفي الخارج. كان ينبغي أن تسكت هذه الاستمرارية بصورة طبيعية، أولئك الذين سبق لهم أن أطلقوا حملة ترمي إلى تلطيخ سمعة المسلمين في معرض مناهضتهم لأوباما حين كان مرشحًا رئاسيًا. وما إن وصل إلى البيت الأبيض، حتى أثبت أوباما أن أسوأ مخاوفهم كانت خاطئة، وذلك عبر مواظبته على العمل من أجل تحقيق أهداف الحملة الصليبية الجديدة.

ومع كل ذلك، استمرت الهجمات المعادية للإسلام: ضد الرئيس، وضد الشريعة، والقرآن الكريم، والمساجد، والمراكز الثقافية، وضد المسلمين أفرادًا. لم يكن هذا ميلاً عشوائيًا من قبل كارهين متباينين إلى الالتقاء عند نقطة معينة. فالرئيس كلينتون تحدث ذات مرة عن «مؤامرة يمينية ضخمة» ترمي إلى النيل منه ومن أسرته ومن إدارته في تسعينيات القرن العشرين. ووفقًا لما كشف عنه بحث أجري لاحقًا، وإفشاءات باح بها بعض المتخلين عن عقيدتهم السياسية السابقة

ومنهم الصحافي ديفيد بروك، فإن كلينتون لم يكن يعاني جنون الاضطهاد حيال الحملة الممولة تمويلاً جيدًا، والتي شجعت على توجيه اتهام له بالتقصير، وحرضت على إجراء تحقيقات من قبل الكونغرس، وشنّت حملات هجومية استهدفته شخصيًا[1].

وهنالك جهد مماثل بذله الجناح اليميني، جهدٌ مقرون ببذل أموال كثيرة شأنه شأن ذاك الجهد الذي استهدَف كلينتون، ودعمته وسائل الإعلام بقوة، وهذا المسعى هو المسؤول عن الإسلاموفوبيا الراهن[2]. وكما أوضح الصحافي ماكس بلومنتال، الموسم المفتوح على المسلمين صيف عام ٢٠١٠ كان حملة منظمة ومرتبة بعناية بدأتها جماعة الدفاع عن حرم الجامعة، التي اتخذت من «مشروع داوود» اسمًا لها وجرى تأسيسها عام ٢٠٠٣، لمواجهة المجموعات المؤيدة للفلسطينيين في جامعات الولايات المتحدة، ومولت من قبل أوبري كرنيك وهو رجل أعمال يميني متطرّف يعمل في مجال البرمجيات[3]. وفي عام ٢٠٠٤، استهدف المشروع بروفسورًا فلسطينيًا في كولومبيا وموقعًا مخططًا لإنشاء مركز ثقافي إسلامي فيه في بوسطن. وعلى أثر تغلبه على خصومه في قضايا التشهير التي استهدفوه بها، كسب البروفسور جوزيف مساد القضية أخيرًا، وتم تثبيته أستاذًا جامعيًا، ومضت الجالية المسلمة قدمًا في خطط بناء المركز الثقافي في بوسطن.

---

(١) ديفيد بروك، أعماه اليمين (نيويورك: كراون، ٢٠٠٢).

(٢) هذه الشبكة، التي كانت على أهبة الاستعداد للعمل الجدل الذي أثير بشأن البارك ٥١، تضم ديفيد هورتيز ومركز الحرية التابع له، ودنيال بايبس ومنتداه المتعلق بالشرق الأوسط، ومعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، ومعهد أبحاث وسائل إعلام الشرق الأوسط، إضافة إلى جماعات القضايا المتعددة من الجناح المحافظ، ومنها، على سبيل المثال، مؤسسة التراث ومعهد المؤسسة الأميركية ومؤسسة هدسون. للاطلاع على مزيد من المعلومات عن هذه المؤسسات والمعاهد، وعن هؤلاء الأفراد الذين يقفون خلف هذه الشبكة، انظر وجاهة علي وآخرين، مؤسسة الخوف.

(٣) ماكس بلومنتال، «الخوف الكبير»، توم ديبتاتش، ١٩ ديسمبر/ كانون الأول، ٢٠١٠.
http://www.tomdispatch.com/blog/175334/.

وكان الناشطون المناهضون للإسلام آنذاك قد انتقلوا فعليًا نحو هدفهم اللاحق: أكاديمية خليل جبران الدولية، وهي مدرسة ابتدائية عربية إنكليزية علمانية مقرها في مدينة بروكلين التابعة لولاية نيويورك. وفي هذا الإطار، باميلا جيلر التي حققت فيما بعد شهرة من جراء هجومها على «مسجد غراوند زيرو»، اختلقت قصصًا لا أساس لها من الصحة تفيد أن مديرة المدرسة ديبي المنتصر «تروّج أجندة إسلامية في بيئة تعجّ بمنظمات راديكالية إسلامية وبأفراد راديكاليين، وأن هذه المديرة صاحبة آراء ومواقف سياسية يسارية متطرّفة، وتهدف إلى الإفادة من أكاديمية خليل جبران الدولية بوصفها أداة لتشريب التلاميذ الرؤى السياسية اليسارية المتطرّفة»[1]. كان ادعاؤها هذا مجرد هراء ليس إلا، فالمنتصر عملت سبعة عشر عامًا في سلك المدارس العامة في نيويورك، وتعاونت مع رابطة مكافحة التشهير، وعملت مستشارةً لبرنامج تلفزيوني تابع لجامعة كولومبيا، ولمركز التعاون بين الأديان في نيويورك. إن حملة التشهير التي اتخذت عبارة «أوقفوا المدرسة» شعارًا لها نجحت في إجبار المدينة على طرد المنتصر. وفي شهر مارس/آذار من عام ٢٠١٠، قضت لجنة فرص تكافؤ العمل والتوظيف بأن إدارة التعليم في مدينة نيويورك ميزت في الواقع ضدها، إلا أنها (المديرة المنتصرة) قررت عدم مقاضاة المدينة[2]. وفي الوقت ذاته، نقلت إدارة التعليم الأكاديمية من محيطها الأصلي، ثم ذكرت الإقبال المتواضع على الانتساب إلى الأكاديمية بوصفه أحد الأسباب التي دعت إلى إغلاقها، ثم إلى استئناف التدريس فيها من جديد، لكن دونما تركيز على اللغة العربية[3].

---

(١) «المدرسة الإسلامية العامة الأكثر عنفًا في نيويورك: كل يوم إرهاب في مدرسة الانتفاضة الثانوية»، أطلس شرغز ٢٠١٠، ١٩ مارس/آذار، ٢٠١٠.

http://atlasshrugs2000.typepad.com/atlas_shrugs/khalil_gibran_international_academy./

(٢) جنيفر مدينه، «المدير(ة) السابق للمدرسة العربية لن يقاضي المدينة»، نيويورك تايمز، ٢٥ مايو/أيار، ٢٠١٠.

http://www.nytimes.com/201026/05// nyregion/26principal.html?_r=1&emc=eta1.

(٣) دانا سوشيلي وجيرش كونتزمان، «فتوى! المدينة سوف تقتل جيران المدرسة المتوسطة تبعًا لأداء وأرقام لا يعتد بها»، بحث بروكلين، ٦ أبريل/ نيسان، ٢٠١١.

http://brooklynpaper.com/stories/3414// dtg_gibrandead_2011_4_8_bk.html.

لقد اختارت شبكة كارهي الإسلام هذه أهدافها عمدًا بالفعل، إذ إن بروفيسور كولومبيا لم يكن راديكاليًا. وصادق عمدة المدينة على رخصة إنشاء مسجد بوسطن، وكانت مديرة مدرسة بروكلين الابتدائية رائدة على صعيد الجهود الرامية إلى التلاقي والحوار بين الأديان. لم يكن يوجد أي ارتباط لكل هؤلاء بالتطرّف. لكن كان هناك روابط فقط مع الإسلام ومع السياسة التقدمية، إلا أن هذا كان كافيًا. ولدعم مزاعمه المتعلقة بالتطرّف في قضية أكاديمية خليل جبران الدولية، على سبيل المثال، ذهب دانييل بايبس بعيدًا إلى حد جعله يقول: «إن تعلم اللغة العربية بحد ذاته يروّج للرؤية الإسلامية والاستشراف الإسلامي للأمور». و«تعليم اللغة العربية معبأ حتمًا بنظريات قومجية عربية وإسلامية بالية»[1]. وحتى إبّان أسوأ أيام الحرب الباردة، كان لقلة من المنظّرين مزاعم مماثلة حيال برامج اللغة الروسية، وفي الواقع، دسّت حينها وكالة المخابرات المركزية الأميركية عملاء سريين بحماس بالغ في أوساط الخريجين في برامج تعلم اللغة الروسية. أما الإسلام فيدرج، على أية حال، ضمن مجموعة قائمة بذاتها.

لقد رُحّل هذا الانهماك الكلي في موضوع التيار الإسلامي السائد إلى صيف عام ٢٠١٠، إذ شهد صيف ذلك العام ارتفاعًا حادًا في منسوب كراهية الإسلام وإثارة المخاوف منه، إذ كانت حينها باميلا نموذجية في أسلوب تعقّبها، لا مسجدًا متطرّفًا، بل مركزًا إسلاميًا يبعد مسافةً قصيرة عن مركز التجارة العالمي، وهو المكان المقترح من قبل دعاة للحوار بين الأديان من أجل إقامة المركز فيه. وكتبت غيلر عن هذا الموضوع الآتي: إن الإمام المنافق المرائي كان عاكفًا على بناء مسجد بأموال أمدّه بها العنصريون الإسلاميون أنفسهم الذين هاجموا مباني مركز التجارة العالمي ودمروها (في الواقع، حصل المركز الثقافي على كثير من الأموال من منظمات مشبوهة معينة، مثل: مؤسسة كارينغي، ومؤسسة هنري

(١) دانييل بايبس، «المدرسة الدينية تتنامى في بروكلين»، نيويورك سن، ٢٤ أبريل/ نيسان ٢٠٠٧.
http://www.danielpipes.org/4441/a-madrasa-grows-in-brooklyn.

لوس، وصندوق الإخوة روكفلر)[1]. وتلقت غيلر عونًا ومؤازرة من قبل حلفاء رئيسين في وسائل الإعلام، بخاصة شبكة «فوكس نيوز» التي أتاحت (وفقًا لما أدلت به مؤسسة الشؤون الإعلامية للرقابة ميديا ماترز) لمعارضي إنشاء المركز ثلاثة أضعاف الزمن الذي أتاحته لمؤيدي إنشائه، وذلك للتحدث عبر منبرها الإعلامي[2]. وكان ذلك بمثابة الرد الذي تبنته الحملة المناهضة لإنشاء مسجد بوسطن، إلا أن الرقم الخماسي الدال على منطقة مبنى التجارة العالمية جعل من الموضوع قصة قومية. ونجحت مجموعة صغيرة من ناشطي اليمين المتطرف في تحويل أمر غير مثير للجدل وضروري في جوهره (مبادرة ملتزمة بميثاق يدعو إلى التجاوز بين الثقافات) إلى أمر استفزازي قائم على النفاق والرياء ومنطوٍ على خبث وشر وفساد.

والأمر الذي ينطوي على مفارقة هو أن الإمام فيصل عبد الرؤوف هو من ذاك النوع من «المسلمين الطيبين» الذين أحب المحافظون أن يودوهم لكي يثبتوا أنهم ليسوا كارهين للإسلام. ويورد الإمام في كتاباته استحسانًا كلامًا اقتبسه من قاضي المحكمة العليا أنتونين سيليا، ومن الناقد الأدبي المحافظ ألن بلوم، مشيدًا فيه بمناهضة التعصّب الديني المتحررة من القيود، معتقدًا أن مناهضة التعصّب الديني هذه تتعزز بوصفها دين الدولة الجديدة في القرن الحادي والعشرين، ويدين حركة حماس بوصفها منظمةً إرهابيةً[3]. ولم تكن

---

(١) باميلا غيلر، «ابن لادن/ القاعدة يمولان الإمام رؤوف إمام مسجد الغراوند زيرو»، أطلس شرغر دوت كوم، ٣١ يوليو/ تموز، ٢٠١٠.

http://atlasshrugs2000.typepad.com/atlas_shrugs/201007//terror-finded-ground-zeromosqueimam-raufs-bin-laden-link.html;

كينيث فوغل وجيوفانيروسونيلو، «أحداث قضية مسجد: رائحة المال»، بوليتيكو، ٥ سبتمبر/ أيلول، ٢٠١٠. .html.41767/http://www.politico.com/news/stories/0910

(٢) «فوكس تزود معارضي إنشاء مسجد نيويورك بمكبرات صوت»، وسائل الإعلام تهم، ١٣ أغسطس/ آب.

http://mediamatters.org/research/201008130015.

(٣) الإمام فيصل عبد الرؤوف، ماهو الحق مع الإسلام (هاربرسان فرانسيسكو، ٢٠١٤)، ٦. فيما يتعلق بحماس، انظر ليزا ميلر «فيصل عبد الرؤوف»، نيوزويك، ٢٣ ديسمبر/ كانون الأول، ٢٠١٠.
http://www.newsweek.com/201023/12//feisalabdulrauf.html.

إدارة بوش مضللة حينما أرسلت الإمام إلى الخارج في عام ٢٠٠٧ في مهمة شملت المغرب ودول الخليج، وكان الإمام ممثلاً مثاليًا لنهج إدارة بوش المستند إلى الدين[1]. فأن يصبح إمام هذا وصفه، وأن يصبح جهده الرامي إلى إنشاء مركز للحوار بين الأديان يجسد قيم عهد بوش؛ أن يصبح إمام من هذا القبيل هدفاً لكارهي الإسلام ومثيري المخاوف منه لهو أمر من شأنه أن يوضح تمامًا مدى مناهضتهم التيار الإسلامي السائد، لا الإرهاب أو المتطرّفين.

ليس البارك ٥١ فقط هو ما يرمز إلى اندماج الإسلام والقيم الأميركية معًا، حيث توصلت دراسة استغرقت سنتين وأجراها كل من مدرسة ديوك سانفورد للسياسة العامة وجامعة كارولينا الشمالية، إلى أن «المساجد المعاصرة تشكل فعليًا رادعًا يحول دون انتشار الإسلام المتشدد والإرهاب»؛ ذلك لأن «قادة مساجد عديدين بذلوا جهدًا هائلاً في مكافحة التطرّف عبر إعدادهم برامج شبابية، ورعايتهم منتديات مناهضة للعنف، واختيارهم معلمين ونصوصًا دينية بعد تدقيق وتمحيص وإنعام نظر»[2]. وكتب باحث آخر معني بهذا الموضوع الآتي: المساجد «هي مواقع رئيسة لتطبيق سياسة الاستيعاب الأميركية» التي تشجع إشراك المجتمع المدني من قبل المسلمين بوصفهم مسلمين[3]. غير أن

---

(١) وزارة خارجية الولايات المتحدة، «موجز الصحافة اليومية»، ١٠ أغسطس/ آب، ٢٠١٠.
http://www.state.gov/r/pa/prs/dpb/2010145853/08/.htm.

(٢) لوري غودستين «عبر الأمة، مشاريع المسجد تلاقي معارضة»، نيويورك تايمز، ٧أغسطس/ آب٢٠١٠.

http://www.nytimes.com/201008/08// us/08mosque.html

(٣) إدوارد كروتيس، «خمس أساطيرعن المساجد في أميركا»، الواشنطن بوست، ٢٩ أغسطس/ آب٢٠١٠.

http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/201026/08// AR2010082605510.html.

ما يفسره علماء الاجتماع بوصفه اندماجًا في المجتمع -مثل مزيد من انخراط المسلمين العام في المجتمع-ينظر إليه بوصفه النقيض الكامل لهذا التفسير من قبل ساسة وجماهير، انطلاقًا من جهلهم أو بسبب التلاعب الإعلامي الممول تمويلاً جيدًا.

نيل ماك ماستر، «الإسلاموفوبيا في فرنسا و«المشكلة الجزائرية»، في الحروب الصليبية الجديدة، تأليف عمران قريشي ومايكل سلز (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ٢٠٠٣)، ٢٩٧.

كارهي الإسلام ومثيري المخاوف منه رأوا أن النشاطية الإسلامية العادية في المجتمع وفي السياسة أمر مشبوه، تمامًا كما كان العنصريون ذات يوم يعدون انخراط الأميركيين من أصول إفريقية في حركة الحقوق المدنية. في الحالة الأولى يتحدثون عن علاقات مشبوهة مع «الفاشية الإسلامية»، وفي الحالة الثانية كانوا يتحدثون عن اتصالات مؤكدة مع الشيوعية.

التأثير السياسي:

إن مركز السياسة الأمنية هو الجناح السياسي لشبكة كارهي الإسلام في واشنطن. وكان مؤسسه ورئيسه فرانك غافني طرد من البنتاغون؛ لأنه كان منتميًا إلى أقصى اليمين المتطرّف في عهد الرئيس رونالد ريغان، وكان يطرح أكثر النظريات تطرّفًا وأغربها أطوارًا. واتهم ذات مرة إدارة أوباما بتغيير شعار وزارة الدفاع، بحيث جعلته شبيهًا بالشعار الإسلامي المتمثّل بالنجمة والهلال، ولم يتراجع عن الاتهام إلا عندما اتضح أن إدارة بوش هي التي أذنت باعتماد التصميم وأجازته[1].

وفي سبتمبر/ أيلول من عام ٢٠١٠، في محاولة منه للحفاظ على زخم كراهية الإسلام لموسم الصيف، أصدر غافني ومركز السياسة الأمنية تقريرًا عنوانه الشريعة: **التهديد لأميركا**. وكان أحد قادة فريق هذا المشروع شخصًا يدعى وليام بويكين، وهو قائد سابق في الجيش الأميركي برتبة فريق، وكان قد طرد من القوات المسلحة الأميركية بسبب انتهاكه الحد الفاصل بين الكنيسة والدولة عبر خطاب صليباني ألقاه. يبدأ التقرير بالقول إنه وفقًا لدراسة أعدت برعاية حكومة الولايات المتحدة كان الاتحاد السوفياتي، عملاً بإيديولوجيته، مصممًا على إلحاق الهزيمة بالولايات المتحدة وحلفائها، وعلى تحقيق انتصار

(١) غافني، العداء للمسلمين يعود إلى حقب زمنية أقدم عهدًا. في عام ٢٠٠٣، أطلقت حملات تشهير استهدفت موظفين مسلمين عديدين في البيت الأبيض في عهد جورج دبليو بوش. انظر وجاهت علي وآخرين، مؤسسة الخوف، ٣٥-٣٦.

عالمي «للشيوعية السوفياتية». لقد كان التهديد السوفياتي في غاية السوء، أما اليوم، «فإن الولايات المتحدة تواجه تهديدًا إيديولوجيًا أشد غدرًا، متمثّلاً في العقيدة الاجتماعية السياسية الاستبدادية التي يدعوها الإسلام: الشريعة»[1].

ولا يقتصر الأمر مع أتباع الشريعة على أنهم يحاولون السيطرة على العالم وإخضاعه بحد السيف، لا بل يتعداه إلى كون الإسلامويين بارعين في استخدام القانون أيضًا.

يسمع كثير من الأميركيين كلمة «شريعة» فيتبادر إلى أذهانهم عملية رجم الزناة فقط، إلا أن الشريعة يمكن أن تترجم فتعني «تقريبًا» حكم القانون في العالم الإسلامي. تمامًا كما إن النظام القانوني الغربي يترجم على نحو مختلف حول العالم (في الولايات المتحدة الأميركية يوجد حكم بالإعدام، أما في أوروبا فلا وجود لحكم من هذا القبيل)، والشريعة تبدو شديدة الاختلاف في مختلف البلدان. فمن المؤكد، على سبيل المثال، أن حركة طالبان في أفغانستان بجلدها الناس علنًا وتمييزها ضد النساء أساءت بما لا يدع مجالاً للشك للشريعة. غير أن الباحث القانوني نوح فيلدمان يشير إلى أن للشريعة تاريخًا مميزًا حيث يحتكم إليها كثير من أولئك الذين يعيشون في مجتمعات ينعدم فيها القانون: إذ إن الشريعة تعد «بإعمال نظام قانوني عادل، نظام يعدل في تنفيذ القوانين دونما تحيّز أو فساد يرعاه الأغنياء أو تدخل حكومي»[2].

وفي تاريخ الإسلام الباكر، انبثقت الشريعة بوصفها قيدًا يكبح جماح بواعث الخليفة الاستبدادية. فلا غرابة إذن في أن تعلن كل من العراق وأفغانستان (وهما البلدان اللذان عانا حقبًا عديدةً قرارات تعسفية من جانب الحكام) أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيس للتشريع، وقد أقرّت ذلك الدساتير الجديدة في كلا البلدين[3]. وفي المقابل، تعمل الشريعة في الغرب بوصفها

(١) الشريعة: تهديد أميركا (مركز السياسة الأمنية، ٢٠١٠)، ٥ -٦.

(٢) فيلدمان، انحدار الدولة الإسلامية ونهوضها (برينستون: مطبعة الجامعة بريستون، ٢٠٠٨)، ١١٥.

(٣) المرجع نفسه ١١.

إلى حد بعيد ضربًا من ضروب الآليات البديلة لفض النزاعات وحل الخلافات، حيث يحتكم إليها المسلمون في معالجة قضاياهم الاجتماعية مثل الطلاق أو الخلافات المالية.

والفكرة القائلة إن هناك تهديدًا من قبل الشريعة للولايات المتحدة تبعث على السخرية، تمامًا كما كانت الحرب الباردة تتوهم أن الشيوعيين كانوا يهيمنون على النظام المدرسي أو يسمّمون مياه الشرب. ويستشهد مركز السياسة الأمنية في تقريره الكلي المؤلف من ١٧٢ صفحة بحالة محددة لعبت فيها الشريعة دورًا في النظام القانوني الأميركي. ففي عام ٢٠٠٩، رفض قاضي المحكمة العليا في ولاية نيوجرسي طلب اعتقال تقدمت به امرأة، أفادت فيه بأن زوجها المسلم أجبرها على ممارسة الجنس معه بصورة غير رضائية. واحتج القاضي بأن تصرفات الزوج كانت متسقة مع معتقداته وممارساته. لقد أصدر القاضي حكمًا غيبيًا فنقضت محكمة الاستئناف حكمه[1]. ولم تتضمن حيثيات حكم القاضي غير المسلم أي إشارة إلى الشريعة، ولم تطلق أي منظمات إسلامية مبهمة حملة لدعم الزوج ولجعل القضية سابقة تبنى عليها قضايا مستقبلية. ولا يمكن لقضية ثانوية واحدة وصلتها بالشريعة شديدة الضآلة أن تترجم إلى تهديد وشيك[2].

---

(١) «حكاية مايكل آنجلو، «محكمة ولاية ترفض الدين بوصفه دفاعًا»، جيرسي جورنال، ٢ أغسطس/ آب ٢٠١٠.

http://www.nj.com/news/jjournal/index.ssf?/base/news-51280731209222240/.xml&coll=3.

(٢) توجد قضية ثانية ذكرت من قبل الممثل تشك نوريس في مقابل مناهض للشريعة تتعلق بقاض يحكم في فلوريدا بأن عقدًا متنازعًا عليه بين أطراف مسلمة «سوف يحكم فيه بموجب قانون كنسي إسلامي». لكن كما لاحظ آدم جاكوبسون من منظمة حقوق الإنسان أولاً، في القضايا التي تنعقد فيها اتفاقًا تبعًا للقانون الديني ويُتَنَازَعُ عليها، يمكن أن يفصل فيها تحكيمًا تبعًا للقانون الديني. والإيماءات الافتراضية بعيدة المدى لهذه القضية والتطبيق القانوني لقانون الشريعة ينتهي عند هذه النقطة. «تشك نوريس والتهديد الملفق بغزو الشريعة»، حقوق الإنسان أولاً، ٢١ أبريل/ نيسان ٢٠١١.

http://www.humanrightsfirst.org/201121/04//.chuck-norris-and-the-fake-threat-of-a-sharia-invasion/

واستنادًا إلى هذا «التهديد» الذي يثير السخرية، تدبر غافي وآخرون أمورهم محاولين إقناع المشرعين في خمس وعشرين ولاية تقريبًا لتبني طرح تشريع مناهض للشريعة الإسلامية. لم تكن هناك مجموعة مستنيرة تمامًا وراء إطلاق هذه المبادرات، إذ إن راعي مشروع قانون ألاباما، على سبيل المثال، لم يستطع تعريف كلمة شريعة عندما طلب منه ذلك مراسل محلي. ولم يستطع الإشارة إلى أي أمثلة تدل على أنه احتكم إلى الشريعة في ألاباما أو في أي مكان آخر في الولايات المتحدة[1]. ويقول الكاتب المسرحي والمعلق السياسي وجاهت علي عن هذا الموضوع: «إن الناس الذين يقولون لا للشريعة، حالهم شبيهة بحال أولئك الذين يقولون لا نريد حيوانات أحادي القرن (الخرافية)، فالناس ينزعجون من جراء تهديدات حيوانات أحادي القرن، ويحشدون قاعدتهم، فإن هم نجحوا في ذلك تجدهم يقولون: انظروا، لقد وقينا أميركا شرور حيوانات أحادي القرن! إن أي شخص عاقل في مثل هذه الحالة يقول: نعم، لكن لا وجود لأحاديات قرن في أميركا»[2].

في معرض فبركته لـ«تهديد الشريعة»، يميز مركز السياسة الأمنية على الأقل بين مسلمين «جيدين» مثل القائد الإندونيسي عبد الرحمن وحيد، وبين مسلمين «شموليين». إن أحد أعضاء هذا الفريق الأقل احترازًا، ديفيد يروشالمي، هو مؤسس مجموعة أخرى تدعى«جمعية الأميركيين من أجل الوجود القومي». لقد اقترحت هذه المنظمة مشروع قانون من شأنه، حال إقراره، أن يجعل الإسلام غير قانوني في الولايات المتحدة. وبذلك مجرد إلصاق تهمة اعتناق هذا الدين بأي شخص تجعله مذنبًا بارتكاب جناية تستوجب سجنه مدة عشرين

---

(١) تيم لوكيت، «القانون التشريعي سوف يحجب الشريعة الإسلامية في محاكم ألاباما»، أنيستون ستار، ٤ مارس/ آذار ٢٠١١.

http:// www.annistonstar.com/pages/full_story/push?article- Legislation+would+ban +Islamic+law+in+Alabama+courts-%20&id=1215 7691&instance=recentComments

(٢) جون فيفر، «مقابلة مع وجاهت علي»، السياسة الخارجية تحت المجهر، ١١ مارس/ آذار ٢٠١١.

http://www.fpif.org/articles/interview_with_wajahat_ali.

عامًا. وإن لم يكن هذا كافيًا، فإن من شأن مشروع القانون هذا أيضًا أن يخول الكونغرس حق جعل الولايات المتحدة «تعلن الحرب على الأمة الإسلامية»[1].
والحرب على «الفاشية الإسلامية» كانت ببساطة بالنسبة لجمعية الأميركيين من أجل الوجود القومي مقيدة جدًّا، لذلك يؤيد أعضاء هذه الجمعية شن حرب مقدسة ضد الدين بأكمله.

كان نبذ غافني وفريقه بوصفهم ببساطة أشخاصًا مثيرين لنوع من الصدمة كفيلاً بإشاعة جو من الارتياح؛ فهم شبيهون بأولئك الذين يعتقدون أن أحداث الحادي عشرمن سبتمبر/ أيلول كانت نتاج عمل إجرامي داخلي، أو أن وكالة الفضاء الأميركية (ناسا) فبركت عملية إطلاق القمر في أحد ستديوهات هوليود الخلفية. لكن لا يزال لغافني تأثير كبير يمارسه عبر الشبكات التي أنشأها الجناح اليميني المتطرف على مدى العقود العديدة الماضية. ويقول غافني في تصريح أدلى به لصحيفة الواشنطن بوست: «ما انفك أعضاء من فريقنا يشاركون من سنوات عديدة في برامج تدريبية، وتركز برامج عديدة منها اهتمامها على العمل الاستخباري المتعلق بإنفاذ القانون المحلي، وعلى الأمن الداخلي، وشرطة الولاية، ووحدات الحرس القومي وما إلى ذلك»[2].

وكان أحد الخبراء الذين اعتمد عليهم في إنفاذ ذاك القانون هو وليد شعيبات الذي اكتسب شهرة بوصفه جهاديًا سابقًا اعتنق المسيحية في وقت لاحق. وشعيبات هذا الذي يعتقد أيضًا أن معظم المسلمين ينوون فرض تطبيق الشريعة في أميركا، يشجع الشرطة المحلية على الانخراط في التنميط الديني،

(١) إد برايتون، «خبراء مثيرون للجدل وضعوا تقريرًا لاقى استحسانًا وإشادة من قبل باخمان»، مينيسوتا المستقلة، ٢٢ سبتمبر/ أيلول ٢٠١٠.
http://minnesotaindependent.com/70974/controversial-experts-authored-shariah-report-hailed-by-bachmann.

(٢) دانا بريست ووليام آركين، «مراقبة أميركا»، الواشنطن بوست، ٢٠ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠١٠.

والنظر إلى المجتمع المسلم بوصفه كلاً واحدًا متجانسًا[1]. والأمر الجدير بالملاحظة أن شعيبات لا يحظى بأي صدقية إطلاقًا لدى السلطات. وهو رديء السمعة بسبب تأكيداته التي لا أساس لها من الصحة والمثيرة للقلاقل، التي يزعم عبرها أن أوباما مسلم، وأن ترشحه للرئاسة كان مدعومًا من قبل تنظيم القاعدة، وأن الإسلام «هو الشيطان»[2]. وعلاوة على ذلك، ادعاؤه بكونه إرهابيًا سابقًا فُضِحَ فعليًا من قبل الجيروساليم بوست، وحتى من قِبل النصير السابق ديبي شلوسيل[3]. إلا أنه ما يزال يظهر عبر شاشة التلفزيون وأمام جماهير تطالب بإنفاذه القانون، يظهر أمامها بوصفه خبيرًا في الإرهاب.

لقد التزمت وزارة العدل في إدارة أوباما بالتصدي للتمييز ضد المسلمين، وذلك عبر إعطاء المدعي العام إريك هولدر موضوع حماية الحقوق المدنية للمسلمين «أولوية قصوى»[4]. ومع ذلك، مكتب التحقيقات الفيدرالي ووزارة العدل ووكالات إنفاذ القانون المحلي، هذه الهيئات جميعها أقامت دورات تدريب عن نماذج ملامح صور نمطية فجة لمسلمين، وذلك موثق من قبل سبنسر

---

(١) المرجع ذاته.

(٢) «ادعى ليدي غست وليد شعيبات كذبًا أن أوباما مسلم بالتأكيد»، وسائل الإعلام تهم، ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٨.

http://mediamatters. org/research/200809110018;

عمر صقر بيه، «المتشككون يشككون في قصص الحياة التي يسردها مسلمون رفيعو المستوى تحولوا إلى المسيحية»، الواشنطن بوست، ٢٦ يونيو/ حزيران، ٢٠١٠.

http://www.washingtonpost.com/wpdyn/content/article/201025/06//AR2010062504435.html.

(٣) يورغ لوكين، «الإرهابي الفلسطيني تحول إلى صهيوني»، جيروزاليم بوست، ٣ مارس/ آذار٢٠٠٨.

http://www.jpost.com/Home/Article.aspx?id=96502;

ديبي سكولسيل، «يكفي، وليد شعيبات: لماذا الإرهابية الوهمية سين هانيتي تزعجني؟»، ١٦ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٨.

http://www.debbieschlussel.com/4245/enough-walid-shoebat-why-is-sean-hannitysfaketerrorist-harassing-me/.

(٤) جيري ماركون، «وزارة العدل تساند أستاذًا مسلمًا»، الواشنطن بوست، ٢٣ مارس/ آذار ٢٠١١، ٨٤.

أكرمان حيث يقول في المطبوعة (ويرد): «مكتب التحقيقات الفدرالي عاكف على تعليم عملائه العاملين في مجال مكافحة الإرهاب أنه يرجح أن يكون التيار الرئيس [كذا] من المسلمين الأميركيين من المتعاطفين مع الإرهابيين، وأن النبي محمدًا كان «زعيم طائفة»، وأن الممارسة الإسلامية المتمثلة في جمع الصدقات وتوزيعها لا تعدو كونها آلية لتمويل القتال»[1].

وفي عرض بوربوينت تفاعلي قدم في مؤتمر صحفي توجيهي برعاية وزارة العدل في ولاية بنسلفانيا، جاء في ذاك العرض تحت عنوان «الجهاد الحضاري» أن الإسلام كان مناهضًا للغرب منذ بدايات تكوينه الأولى[2].

وتعتمد هذه العروض والإحاطات الإعلامية التوجيهية على «خبراء» مريبين مثل شعيبات. وفي أحد البرامج التدريبية المعدّة للتدريب على مكافحة الإرهاب من أجل إنفاذ القانون في ولاية أوهايو، وهو برنامج روّج لأساطير عديدة سبقت الإشارة إليها، يشير المدرب بإصبع الاتهام إلى مسلم من سكان الولاية ويسميه، ويقول إنه على صلة مع شبكة إرهابية. وتبين أن هذا الرجل المشتبه فيه بوصفه على علاقة مع الشبكة الإرهابية هو أردني الأصل أميركي الجنسية يدعى عمر العمري، وهو أستاذ جامعي يدير برنامجًا توعويًّا إسلاميًّا لمصلحة الولاية، وأن برنامجه حقق نجاحًا باهرًا إلى حد جعل وزارة الخارجية ترسله إلى الخارج للتعريف به. وعلى الرغم من أن الرئيس المحلي لفرقة مكافحة الإرهاب انبرى للدفاع عن العمري، فإن الأخير أعفي من مهامه التي كانت موكلة إليه بسبب ارتكابه مخالفات تافهة لا قيمة لها في طلبه المقدم لشغل الوظيفة. وجاء في تقرير بثته الإذاعة القومية الرسمية: «قال مسؤولون اتحاديون

---

(١) سبنسر أكرمان، «مكتب التحقيقات الفدرالي الأميركي يدرس عملاء: المسلمون الذين يمثلون التيار السائد عنيفون وراديكاليون»، برقيًّا، ١٤ سبتمبر/ أيلول ٢٠١١.
http://www.wired.com/ dangerroom/201109//fbi-muslims-radical.

(٢) سبنسر أكرمان، «موظف مسؤول في وزارة العدل: المحلفون المسلمون يهددون قيمنا»، برقيًّا، ٥ أكتوبر/ تشرين الأول، ٢٠١١.
http://www.wired.com/dangerroom/201110//islamophobia-beyond-fbi/.

مطلعون على القضية: لقد اختير العمري لأنه كان يميّز بين المسلمين المتطرّفين ومسلمي التيار الرئيس المعتدلين، وذلك عبر برامجه التوعوية والتدريبية»[1].

وكان لكل هذه الأنشطة التنظيمية والإعلامية تأثيرها في السياسة، حيث حظي المحتجون على إنشاء «مسجد غراوند زيرو» بتأييد من ساسة رئيسين مثل جون بورنر ودودي جولياني. وحتى الديمقراطيون المعتدلون مثل هاري ريد وباتريك ميرفي طالبوا بقوة باستبدال موقع البارك ٥١، في حين أنه في الواقع كان مركز التجارة العالمي السابق (على وجه الدقة) شأنه شأن القدس المكان الذي تشتد الحاجة فيه إلى أوسع مدى للحوار بين الأديان. وفي انتخابات عام ٢٠١٠، دأب منظمو «حزب الشاي» ومرشحوه الرئاسيون على الإدلاء ببيانات وإطلاق تصريحات غريبة عن الإسلام في محاولة منهم لخطب ود قاعدتهم الشعبية المتطرفة. ففي دعوته لهزيمة عضو الكونغرس المسلم كيف أليسون (ديمقراطي عن ولاية منيسوتا)، وفي معرض تحريضه عليه، خاطب جودسون فيليبس، زعيم أمة حزب الشاي، جمهور الناخبين قائلاً: «عندما يلتزم أحدهم بإيديولوجيا تقول اقتل الناس الذين يختلفون معك، يقتضي الأمر أن يأخذ جمهور الناخبين على محمل الجد هذا الوضع لدى إدلائهم بأصواتهم»[2]. أما شارون آنجل التي خاضت معركة انتخابية ضد هاري ريد في نيفادا، فقد اشتكت من هيمنة الشريعة في دير بورن التابعة لولاية ميتشيغان وفي

---

(١) دينا تمبل-راستون، «تهمة التدريب على الإرهاب تطيح بموظف مسلم»، إن بي آر، ١٨ يوليو/ تموز، ٢٠١١.

http://www.npr.org/2011 /07/ 18 /137712352/terrorism-training-casts-pall-over-muslim-employee.

(٢) واظب فيليبس على توضيح آرائه عبر موقعه الإلكتروني: «إن كنت مسلمًا فأنت تنتمي إلى دين يقول اقتل اليهود واقتل الكفار. يزعجني جدًا أن يقول دين من الأديان: اقتلوا الكفار». ويقول مؤسس حزب الشاي جوستن إليوت: «لدي مشكلة حقيقية مع الإسلام»، سليت، ٢٧ أكتوبر/ تشرين الأول، ٢٠١٠.

http://www.npr.org/2011137712352/18/07//terrorism-training-casts-pall-over-muslim-employee.

فرانكفورت التابعة لولاية تكساس، وقالت: «يبدو لي أن غلطًا جوهريًّا يرتكب عندما يسمح لأي نظام قانون أجنبي بالتمكن من أي بلدية أو وضع حكومي في ولاياتنا المتحدة». وأما اختيارها للمواقع فكان يثير الفضول ويبعث على الاستغراب: لم تعد فرانكفورت موجودة مطلقًا، وأما ديربون فقد التقطها رادار آنجل وسجلها فقط لأن عناصر الشرطة اعتقلت فيها أربعة مبشرين مسيحيين بسبب سلوكهم غير المنضبط في مهرجان عربي دولي أقيم في ديربون[1].

ولم يكن آنجل وفيليبس الوحيدين الذين منيا بهزيمة. فإذا ما ألقينا نظرة إلى انتخابات المنتصف التي أجريت في عام ٢٠١٠، لوجدنا أن الصحافي ستيفان ساليزبوري استنتج منها الآتي:

«فيما عدا استثناءات كانت نادرة الحدوث، أثبتت الحملة التي كانت ترمي إلى توجيه ضربة عنيفة إلى الإسلام أنها كانت ذات تكتيك رديء جدًّا ومثير للشفقة..»[2].

واستمرت الحملات التي استهدفت ضرب الإسلام، وكانت عنصرًا رئيسًا من عناصر حملات مرشحي الرئاسة الجمهوريين التي أفضت إلى انتخابات عام ٢٠١٢. لقد أخبرني الصحافي المتخصص في شؤون الشرق الأوسط خوان كول أن «قيادة الحزب الجمهوري، التي تضم بين أعضائها رودي جولياني وآخرين، ملتزمة باتباع تكتيك حملة يهدف إلى شيطنة المسلمين. وعملت هذه الحملة ضد المسلمين كما كانت تعمل الحملات الغابرة ضد الشيوعيين، ورغبت الحملة في أن ترى إذا ما كان هذا التكتيك

---

(١) «كيف تأتى لمدينة ديربورن من ولاية مشيغان أن تصبح خاضعة لقانون الشريعة؟»، ديلي كوس، ١٢ أكتوبر/ تشرين الأول، ٢٠١٠.
http://www.dailykos.com/story/201044/232143/12/10/.

(٢) ستيفان سالزبوري، «كيف يخسرمرشح شديد الانتقاد للمسلمين في الانتخابات؟»، توم ديسباتش، ٧ يوليو/ تموز، ٢٠١١.
http://www.tomdispatch.com/archive/175418/.

(شيطنة المسلمين) سيؤدي إلى تعزيز موقعها لدى الرأي العام»[1]. وأدلى كل من نيوت غين غريتش وميشيل باخمان وريل سانتورم بتصريحات رسمية وعلنية مناوئة للإسلام. ولم يعتذر عن تصريحاته المناهضة للإسلام إلا هيرمان كين، المدير التنفيذي السابق لمحلات بيتزا العراب.

إن الهجمات السياسية المشرعة على المسلمين جرت أيضًا في كابيتول هيل، حيث كان هناك بيتر كينغ، عضو الكونغرس الجمهوري، يقيم ذات يوم علاقات ودية طيبة مع الجالية المسلمة المحلية فيها. واستمرت هذه العلاقة الودية بينه وبين تلك الجالية إلى أن بدأت شبكة كارهي الإسلام تهمس في أذنه؛ فأعلن كينغ عبر برنامج فرانك جافني الإذاعي أن المسلمين لم يبدوا روحًا تعاونية مع المسؤولين عن إنفاذ القانون على صعيد مكافحة الإرهاب[2]، ووعد بوصفه الرئيس الجديد للجنة الأمن القومي بعقد جلسات استماع تتمحور حول التهديد الذي يشكله المتطرفون المسلمون في أميركا، مدعيًا مكرًا وخداعًا أن هذا التوجه سوف يؤول إلى تحسين العلاقات مع الجالية المسلمة[3]. لا ريب في أن بعض المتطرّفين المسلمين الأميركيين خطّطوا للقيام بأعمال ذات نزعة تطرّفية أو شاركوا في أعمال من هذا القبيل. إلا أن كينغ وقع في حرج إلى حد ما لدى شرحه كيف يمكن وصم جالية بأكملها بوصفها موردًا رئيسًا للتطرف في أميركا، طالبًا من مجموعة من غير أهل الخبرة الإدلاء بشهاداتهم في موضوع بالغ الحساسية، ومتجاهلاً الإحصائية التي بينت أن مسلمين قدموا معلومات سرية مفيدة في ثمان وأربعين قضية من القضايا المائة والعشرين

---

(١) مقابلة المؤلف مع خوان كول، ٢٨ يناير/ كانون الثاني ٢٠١١ (بواسطة الهاتف).
http:// www.fpif.org/articles/interview_with_juan_cole..

(٢) لي فانغ، «النائب الجمهوري كينغ يقول المسلمين ليسوا «أميركيين» عندما تصل الأمور إلى الحرب»، ثينك بروغرس، ١١ يناير/ كانون الثاني٢٠١١.
http://thinkprogress.org/politics/2011138305/11/01//king-muslims-

(٣) «مايكل ماكوليف: أنا لست في وارد مطاردة السحرة»، نيويورك ديلي نيوز، ٦ مارس/ آذار ٢٠١١.
http://www.nydailynews.com/blogs/dc/201103//pete-king-im-not-on-a-witch-hunt

المتعلقة بالإرهاب في الولايات المتحدة؛ وهو أمر حريٌّ بأن يجعل المسلمين الأميركيين ينتابهم شعور بالحميمية، وبصدق الانتماء الوطني، وبجدارتهم في الحفاظ على أمن الوطن[1]. على كل حال، إن لكينغ تاريخًا طويلاً حافلاً بالإدلاء ببيانات كاذبة حول الإسلام، بدءًا من تأكيداته بأن الأئمة المتطرّفين يهيمنون على ٨٠ ٪من المساجد في الولايات المتحدة، وصولاً إلى توصيفه للمسلمين بأنهم «أعداء يعيشون بيننا»[2]. ومضى كينغ متابعًا ما وعد به فعقد ثلاث جلسات استماع. وفي دليل صارخ على نفوذه السياسي، أدلى بشهادته في جلسة استماع برلمانية بريطانية حول هذا الموضوع، وكان بذلك أول عضو كونغرس أميركي ينال ذاك الشرف[3].

وفي نظريات المؤامرة التي نسجها كارهو الإسلام، صُوِّرَ المسلمون على أنهم على وشك الاستيلاء على البلد عبر بناء المساجد وفرض الشريعة الإسلامية والظفر بشهادات «الحلال»[4]. ووفقًا لما يراه ميتشل بارد، المسلمون عاكفون أيضًا على الهيمنة على الكونغرس. ففي كتابه **اللوبي العربي**، يفترض ميتشل وهو

(١) جون إسبوزيتو«جلسات استماع لبيتر كينغ»، الواشنطن بوست، ٦ مارس / آذار ٢٠١١.
http://onfaith.washingtonpost.com/onfaith/panelists/john_esposito/201103//islamophobia_draped_in_the_american_flag.html.

(٢) جيف سبروس، «خطاب كينغ الإسلاموفوبي»، تقرير بروغرس، ٤مارس/ آذار ٢٠١١.
http://www.americanprogress.org/pr/201103//pr20110304.

(٣) ماكينزي وينغز، «في المملكة المتحدة، بيتر كينغ يدافع عن جلسات استماع المسلمين»، بوليتيكو، ١٣ سبتمبر/ أيلول ٢٠١١.
http://www.politico.com/news/stories/091163360/.html.

(٤) بالنسبة لأحدث مشروع لها، غيلر يضغط باتجاه مقاطعة حساء كامبل لأنه يكتب على منتجه كلمة «حلال» (هذه الكلمة هي النسخة الإسلامية العربية من كلمة كاشير التي تعني طعامًا مباحًا أكله في الشريعة اليهودية). وهذه العلامة توضع على المنتج من قبل الجمعية الإسلامية لشمال أميركا، وهي جمعية أعلنت على الملأ نبذ التطرف الديني.
وجايمي بواسون، «أنواع من حساء كامبل تصنع في تورونتو، يوجد في الولايات المتحدة محافظون يعترضون عليها»، تورونتوستار، ١٩ أكتوبر/ تشرين الأول، ٢٠١٠.
http://www.thestar.com/news/article/877942--toronto-made-campbell-s-soups-hasus-conservatives-simmering.

عضو سابق في لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (جماعة ضغط) أن عددًا كبيرًا من جهات مختلفة فاعلة تنسق إجراءاتها وتدابيرها سعيًا وراء تحقيق هدف مشترك: إذ إن سلطات الدول الغنية بالنفط والفلسطينيين الذين لا دولة لهم، والعرب الأميركيين تدبروا أمرهم ونجحوا في خطف السياسة الخارجية للولايات المتحدة، وذلك «لدعم أنظمة حكم شرقأوسطية غالبًا ما تعارض القيم والمصالح الأميركية»[1]. كما إنهم روجوا لأجندتهم المتعلقة بالنسبوية الثقافية في هوليود وفي وسائل الإعلام.

في الواقع، نادرًا ما تتفق هذه الجهات الفاعلة بعضها مع بعض، فلا شأن لدعم واشنطن لكل من المملكة العربية السعودية ومصر في كون هاتين الدولتين عربيتين، وهذا الدعم وثيق الصلة بموضوع النفط والوضع الجيوسياسي. لقد لاقى بارد صعوبةً وعانى حرجًا في شرح كيفية فشل هذا اللوبي شديد القوة في كبح جماح صعود المشاعر المعادية للإسلام، أو في إقامة دولة فلسطينية قابلة للحياة، أو في تفكيك الحلف الأميركي الإسرائيلي. وأدى نفوذه في هوليوود إلى إحراز عدد قليل من الانتصارات بشق الأنفس، مثل استبدال الأشرار المسلمين بالنازيين الجدد في النسخة السينمائية من قصة توم كلانسي ذروة كل المخاوف.

والأمر المهم هنا، على أية حال، هو أن بارد لم يحدد مجموعة ضغط تتبنى مصالح إسلامية راديكالية بوصفها موردًا للتهديد، لا بل نسب التهديد إلى مجموعة متنوعة وكاملة من المنظمات الإسلامية المعتدلة التي تشكل التيار الإسلامي السائد (في الولايات المتحدة). وفي عهد أوباما تحول التركيز الذي كان منصبًا إبان سنوات حكم بوش على الفاشية الإسلامية والإسلامويين المقاتلين إلى لائحة اتهام «للمسلمين الطيبين» أنفسهم، الذين كان المحافظون الجدد تعهدوهم بالرعاية والتشجيع في حملتهم التي كانت ترمي إلى كسب

(١) ميتشل بارد، اللوبي العربي، x.

«قلوب وعقول المسلمين». وأصبح العدو في هذه الحقبة، كما كان إبان الحروب الصليبية، الإسلام بأكمله.

وفي أثناء الحملة الصليبية الأولى، وجه البابا أوربان الثاني نداء طلب فيه من كل الجنود القادرين على تحمل أعباء القتال حمل السلاح والسفر إلى الأراضي المقدسة. وسمع الواعظ المتجول بطرس الناسك النداء، وشرع من فوره يجند كل من كان راغبًا في محاربة الكفار. وفي حملة الفلاحين الصليبية سيئة التجهيز والإعداد والتحشيد هذه التي انطلقت حتى قبل تنظيم الحملة الصليبية الرسمية التي قادها بطرس القائد الكاريزمي، لكن المفتقر في الوقت ذاته للحنكة والخبرة العسكرية، في هذه الحملة شق حشد مؤلف من عشرة آلاف رجل طريقه إلى مناطق البلقان وإلى بيزنطة حيث سحقتهم الجيوش التركية.

وفي عصرنا هذا، تعد هجمات اليمين المتطرف التي نسقها مشروع ديفيد، وهو مركز السياسة الأمنية، وميتشل بارد المكافئ المعادل لحملة الفلاحين الصليبية هذه. إنها هجوم شعبوي قبيح استهدف الإسلام، ترافق مع حملة عسكرية رسمية أكثر شنها جنود محترفون. لقد لطخت هذه الهجمات الشعبوية التي شنت على الإسلام سمعة أميركا المتصلة بالتسامح الديني، ودفعت الحزب الجمهوري إلى أقصى حدود التطرّف اليميني.

إن كراهية الإسلام في الولايات المتحدة خطيرة جدًّا، فقد حرّفت الجدال السياسي وشوّهته وتسبّبت في قدر كبير من معاناة المسلمين الأميركيين. ويبقى الوضع في أوروبا أشد خطورةً؛ إذ إن الجدال المحتدم هناك لا يقتصر على مسجد بذاته أو مسألة تشريعية، بل هو يتمحور حول طبيعة الهوية الأوروبية ذاتها.

الفصل الخامس

التحول الأوروبي

توجد أمور يجيش بها صدر أندرو بيرويك ويود أن يخرجها منه، فلم يكن سعيدًا حيال ارتفاع عدد المسلمين الذين يعيشون في مجتمعه. وكان ينزعج بخاصة من الأجندة السياسية لأحزاب اليسار الليبرالي في بلده. وهيمنت شكواه هذه على حياته تدريجيًا. وكان يعمل في قسم خدمة الزبائن لدى إحدى الشركات، ثم عكف على إدارة مؤسسته الخاصة المتخصصة في مجال برمجة الكمبيوتر التي تعرّضت للإفلاس، وأخيرًا أسس شركة زراعية، ولكن كان الغرض من كل أعماله التي قام بها جمع المال بغية الترويج لآرائه وتعزيزها. ولم يكن لديه كثير من الأصدقاء، كما لم تكن لديه صديقة خاصة؛ لذلك أفرغ كل فِكَرِهِ في كتاباته. واستغرقت كتابة بيانه الذي طلع به تسع سنوات، وكلفته كتابته وإخراجه وفقًا لتقديره أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ يورو. وقد تمخّض جهده هذا على مخطوطة ضخمة من ١٥٠٠ صفحة استقى معلوماتها من كتاب عديدين ذكرت أسماؤهم في هذا الكتاب، منهم روبرت سبنس ووفاء سلطان[1].

---

(١) صورة أندرو بيرويك هذه تأتي من عدة موارد بما فيها: لوسي كرين، «كان القاتل بالجملة أندرس برينغ المدلل على أمه مع حفنة من أصدقائه لاصديقات بينهم قبل إطلاق النار في النرويج»، ديلي تلغراف، ٢٦ يوليو/ تموز، ٢٠١١.

http://www.dailytelegraph.com.au/news/masskilleranders-behring-breivik-was-mummys-boy-with-few-friends-nogirlfriendsbefore-norway-shooting/story-e6freuy91226101576263-;

-نيككاربون، «بلطجة وجراحة التجميل: صديق طفولته يتحدث عن حياة آندرس بهرنغ بريفيك»، التايم، ٢٦ يوليو/ تموز، ٢٠١١.

http://newsfeed.time.com/201126/07//bullying-and-plastic-surgery-childhoodfriendspeaks-out-on-anders-breiviks-life/ and

اندرس بهرنغ بريفيك، ويكيبيديا. http://en.wikipedia.org/wiki/Anders_Behring_Breivik

وكان بيرويك، من غير ريب، مركّزًا اهتمامه في الإسلام. ومما جاء في بيانه الذي طلع به: «أمامنا بضعة عقود فقط لتعزيز مستوى كافٍ من المقاومة قبل أن يجتاح المسلمون بلادنا ديموغرافيًا»[1]. وفي جعبته أمور كثيرة يرغب في قولها عن الحروب الصليبية التي عدَّها «حملة دفاعية»، إلا أن شغله الشاغل الحقيقي كان التعددية الثقافية. وكان منزعجًا بخاصة من ساسة وآخرين ممن رحبوا بالتنوع المتزايد في البلاد وشجعوه. وجاء فيما كتبه في هذا المجال: «إن التعددية الثقافية هي إيديولوجيا تصب في خانة كراهية الأوروبيين، وهي مصممة لتفكيك الثقافات والتقاليد الأوروبية والهويات الأوروبية والعالم المسيحي الأوروبي وحتى الدول القومية الأوروبية. وهي بذلك تعد إيديولوجية إبادة جماعية شريرة ابتدعت من أجل تحقيق الغرض الوحيد المتمثل في إفناء كل ما هو أوروبي».

وللأسف، لم يكن بيرويك قانعًا بمجرد تدوين فِكَرِهِ. لا، بل كان ناشطًا من النوع الرديء الذي يعتقد أن في وسعه تغيير العالم بتوسل العنف.

كان أندرو برويك اسمًا حركيًا مستعارًا لأندرس بيرينغ، المجرم النرويجي الذي ارتكب جريمة قتل جماعي عبر التفجير الذي أحدثه في وسط مدينة أوسلو في الثاني والعشرين من يوليو/ تموز من عام ٢٠١١، وأسفر عن قتل ثمانية أشخاص، ثم توجه إلى مخيم شبابي تابع لحزب العمل مرتديًا زي شرطي، وأطلق النار على تسعة وستين شابًا. لم يطلق بيرويك النار على الإسلام أو حتى على الإسلام المتطرّف، بل استهدف ما عدَّهُ العدو الرئيس لمثاله الأوروبي الغالي العزيز: اليسار. لقد فجّر مبنى حكوميًا من أجل وضع حد لحزب العمل

---

(١) «السجل البياني، رقم وعنوان ٢٠٨٣: إعلان أوروبي للاستقلال»، نشر ووزع عبر الشبكة العنكبوتية في عام ٢٠١١.

http://www. washingtonpost.com/r/20102019-/WashingtonPost/201124/07// National-Politics/Graphics/2083+-+A+European+Declaration+of+Indep endence.pdf.

الحاكم، ومن أجل التخلص من رئيس الوزراء ينس ستولتنبرغ، وتَعقَّب بعد ذلك الجيل الشاب من نشطاء حزب العمل.

وفيما كانت أخبار إطلاق النار والتفجير تخضع لنوع من «الفلترة»، قفز المعلقون إلى استنتاج يفيد بأن الجناة كانوا راديكاليين إسلاميين. وأكد المتشدد الذي كان يعمل في إدارة بوش، جون بولتون، أن الحادث «يبدو، بالتأكيد، شبيهًا بالإرهاب الإسلامي»[١]. وأعلن محلل قضايا الإرهاب العامل في شبكة «سي إن إن» الإخبارية بول كروكشانك، أن «النرويج ظلت ردحًا من الزمن نقطة تتقاطع فيها خطوط القاعدة». وحتى بعد ظهور بيرويك بوصفه المشتبه به الرئيس في هذه القضية، لم تكن كاتبة العمود الصحفي اليمينية المتطرّفة العاملة في مجلة الواشنطن بوست جنيفر روبين راغبة في الرجوع عن حكمها، الذي سبق لها أن أطلقته وأعلنت فيه أن الحادثة من صنع «الغادرين الجهاديين». وذهبت في هذا السياق إلى القول: «إن أعداد الجهاديين الذين يحاولون قتل أميركيين أكثر بكثير من أعداد النرويجيين الشقر»[٢]. جاء ذلك في معرض ما كتبته قفزًا إلى الاستنتاجات وإطلاق الأحكام، وأضافت: «وعلينا أن نبقى منتبهين وحذرين حيال التهديدات الشاملة والأشد قوةً، التي تنبع من الحرب الإيديولوجية مع الغرب»[٣].

كان بيرويك منحازًا في إحدى المراحل إلى حزب التقدم في النرويج حزب القانون والنظام المناهض للهجرة؛ وهو الحزب الذي

---

(١) توخي العدل والدقة في إصدار التقارير، «النظرة إلى الإرهاب الإسلامي في النرويج»، منظمة توخي العدل والدقة في إصدار التقارير، ٢٥ يوليو/ تموز ٢٠١١.
http://www.fair.org/index.php?page=4359.

(٢) جنيفر روبن، «تفجير النرويج»، الواشنطن بوست، ٢٢ يوليو/ تموز ٢٠١١.
http://www.washingtonpost.com/blogs/right-turn/post/norwaybombing/201129/03//gIQAB4D3TI_blog.html.

(٣) جنيفر روبن، «الشر في النرويج»، الواشنطن بوست، ٢٣ يوليو/ تموز ٢٠١١.
http://www.washingtonpost.com/blogs/right-turn/post/evil-innorway/201129/03//gIQAtsydVI_blog.html.

حصد في انتخابات عام ٢٠٠٩ زهاء ٢٣٪ من أصوات الناخبين. وكان كارل هاغن، الرئيس السابق للحزب، مُشَهِّرًا (رديء السمعة) من جراء خطاباته وتصريحاته المناهضة للإسلام بما فيها -تحديدًا- تعليقه سيّئ الاختيار الذي أدلى به بعد ارتكاب بيرويك جرائمه بشهر واحد، وأعلن فيه أن «معظم الإرهابيين كانوا مسلمين»[1]. إلا أن المنغمسين في خطاب من هذا القبيل لم يقتصروا فقط على أحزاب السايكو بايتيين (مضطربي العقول) وكارهي الأجانب في النرويج، وجاء فيما كتبه المؤلف النرويجي أسلاك سيراماير الآتي: «ربما لم تظهر قضايا الأسلمة السرية والهيمنة الإسلامية عبر صفحات الإنترنت فقط، بل ظهرت أيضًا عبر شاشات التلفزة، وبثت عبر المحطات الإذاعية على هيئة مقالات وفي مناظرات عامة. لقد أصبحت كراهية الإسلام ومناهضته عنصرًا مقبولاً من عناصر حياتنا العامة»[2].

وفي الواقع، باتت معاداة الإسلام عنصرًا مقبولاً من عناصر الحياة الأوروبية العامة. إن البيان الذي خطّه بيرويك لم يكن إلا الحلقة الأحدث عهدًا في سلسلة البراعات الأوروبية الطويلة التي تدين المسلمين والتعددية الثقافية. وألفت الكاتبة الصحافية الإيطالية أوريانا فالاسي خطبةً طويلةً طنانة وعنيفة تحت عنوان «الغضب والكبرياء»، استهدفت فيها العرب والمسلمين وجميع المهاجرين. ودبّجت هذه الخطبة الطويلة في كتاب نشر بعد وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول بوقت قصير. ويدين الكتاب «الحملة

---

(١) جون برايس ومايكلساندلسون، «الرئيس السابق لحزب التقدم في نزاع المسلمين»، فورينر، ١٥ أغسطس/ آب ٢٠١١.

http://theforeigner.no/pages/news/former-progress-party-chairman-in-muslim-quarrel/.

(٢) أسلاك سيرا ماير، «آن الأوان لأن تواجه النرويج عداءها للإسلام»، الواشنطن بوست، ٢٨ يوليو/ تموز ٢٠١١.

http://www.washingtonpost.com/opinions/time-for-norway-to-face-its-islamophobia/201127/07// gIQATFrsfI_story.html.

الصليبية المضادة» التي يشنّها مسلمون، سواء أقدموا عبر جحافل من القوات المسلحة مدجّجةً بالمدافع أم قدموا على متن قوارب مصحوبين بأطفالهم. إنهم المسلمون الذين «يزعجوننا بجهلهم الذي يتردى من سيّئ إلى أسوأ، وبتعصبهم الأعمى المتخلف وبدينهم الرجعي»[1]. لم يحقق هذا الكتاب رواجًا كبيرًا في الولايات المتحدة عندما ترجم إلى الإنكليزية[2]، غير أنه لاقى رواجًا كبيرًا في أوروبا حيث بيع منه أكثر من مليون نسخة في إيطاليا، وكان الكتاب الأكثر مبيعًا في فرنسا.

كانت تلك هي البداية فقط، إذ ألفت كتب من قبل كل من بروس بيور، وكريستوفر كالدويل، وبات يور. كانت جميعها منوعات عن الموضوع ذاته: عن المسلمين الذين يستولون على أوروبا، مع تغييرات طفيفة في كل منها. وكان أندرس استشهد بعدد من هذه الكتب ذكرها في بيانه الذي أعده هو، وثبت أنه مجرد نسخة مستقاة من تلك الموارد الأصلية. وبيور الذي ذكر اثنتين وعشرين مرة في البيان، رفض الاعتراف بوجود صلة بين كتاباته وفِعْلَةِ بيرويك. وكل ما وَسِعَهُ حَشْدُه كان عويلاً وشكوى من أنه قد لا يكون قادرًا على مواصلة نطق افتراءاته المناهضة للإسلام، إذ كتب في صحيفة الوول ستريت جورنال الآتي: «في النرويج، التكلم بصورة سلبية عن أي جانب من جوانب العقيدة الإسلامية كان دومًا مسألةً حساسة تستتبع التعرّض لاتهامات بمناهضة الإسلام وبالعنصرية، وأخشى أن يغدو طرح هذه القضايا أشد صعوبةً الآن بعدما غدا هذا المعتوه المجرم القاتل نموذجًا لانتقاد الإسلام»[3]. إن بور وفالاتشي وغيرهما من أصحاب الصور النمطية

---

(١) أوريانا فالاتشي، الغضب والكبرياء (نيويورك: ريزولي، ٢٠٠٢)، ١٤٨، ١٨٦.

(٢) جورج غورلي، «غضب أوريانا فالاتشي» نيويورك أوبزرفر، ٢٦ يناير/ كانون الثاني٢٠٠٣.
http://www.observer.com/node/47020.

(٣) بروس باور «في داخل عقل مجرم أوسلو»، وول ستريت جورنال، ٢٥ يوليو/ تموز ٢٠١١.
http://online.wsj.com/article/SB10001424053111 903999904576465801154130960.html.

القبيحة، يطرحون أنفسهم بوصفهم ترياقات لمعاملة المسلمين «الملائمة من الناحية السياسية»[1].

وفي أعقاب الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، باتت أوروبا فجأةً غارقةً في هذه المشاعر المعادية للإسلام: وقد تجلى هذا في الكتب ورسوم الكاريكاتير والبرامج والمنابر السياسية وتظاهرات الشوارع. ووجه شيء من هذه المشاعر المعادية للإسلام إلى داخل التجمعات السكنية للمهاجرين. وركز بعضها على مناطق من أطراف أوروبا حيث يعيش مسلمون منذ عهود بعيدة في بلاد مثل بلغاريا والبوسنة وألبانيا. واحتفظ ببعض هذه المشاعر لبلدان غالبية سكانها من المسلمين تطرق باب الاتحاد الأوروبي، والمقصود هنا تركيا بالتحديد.

الإسلاموفوبيا في الولايات المتحدة أمر قبيح ومزعج اجتماعيًا وتهمة موجهة سياسيًا، لكن المشاعر المعادية للإسلام في أوروبا التي ما انفكت تختمر منذ عهد بعيد يمكن أن تكون أشد خطورةً؛ لأنها تستعيد إلى الذاكرة عهودًا مغرقة في القدم وشديدة الخطورة من التعصّب الأوروبي، وتهدّد بتقويض مشروع التكامل الأوروبي السلمي برمّته.

الهوية الأوروبية في مفترق طريق:

إبّان صراعها مع الإسلام، وجدت أوروبا لنفسها اسمًا. قبل القرن الثامن الميلادي، لم تكن أوروبا موجودة؛ لم يكن لها وجود على الأقل في خيال المقيمين في هذه المنطقة الغربية الخلفية البعيدة من آسيا. وكانوا يعيشون في مدن أو في إقطاعات أو ضمن قبائل. ولم يكونوا يعون أنفسهم بوصفهم

---

(١) وينظر نقاد عديدون إلى الموضوع على النحو الآتي: «الغضب والكبرياء استجابة منشطة للمواربة الأخلاقية، والصواب السياسي متعدد الثقافات، وتخفيض مستوى إنكار خطر الفاشية الإسلامية التي تلازم الاستجابة لأحداث الحادي عشر من أيلول والحرب الدائرة على الإرهاب». تشارلز تايلور، «أوريانا فالاتشي تعلن الحرب على الإسلام الراديكالي»، سالون، ٦ نوفمبر/ تشرين الثاني، ٢٠٠٢.

http://dir.salon.com/books/feature/200216/11// fallaci/

يشغلون قارة منفصلة في ظل راية هوية متماسكة. وبعدما صدّ تشارلز مارتل جيوش المسلمين في مدينة تور (الفرنسية) في عام ٧٣٢، أطلق المؤرخ إيزيدور باسينسيس على المنتصرين اسم «الأوروبيين».

وكتب المؤرخ ديفيد ليفرينغ لويس عن هذا الموضوع الآتي: «عرضت هذه اللفظة الجديدة مفهومًا شاملاً كامليًا تجاوز (بوضوح، على الأقل) الخصوصيات الإقليمية المتوحشة التي كانت قائمة في قَرْنِهِ»[1]. إلا أن الهوية الأوروبية المميّزة لم تبرز إلى حيّز الوجود إلا إبّان الحروب الصليبية وتجلى ذلك في أجزائها المبعثرة، ولم تتميّز بمعارضتها للإسلام، بل للفكرة الأوروبية عن الإسلام: بوصفه عنيفًا وتوسعيًّا ومدانًا بالإفلاس الأخلاقي حيال الحساسية الغربية. ويا لها من مفارقة، إذ كانت أوروبا في ذلك العصر متخلّفة حضاريًّا بمراحل عن العالم الإسلامي، حيث كان الفلاسفة والأطباء وعلماء الرياضيات المسلمون يبدعون في مجالاتهم، مستفيدين من ضروب التقدّم التي أحرزت في العصر اليوناني -الروماني، ويجلبون ابتكارات الحضارة الصينية العظيمة نحو الغرب ويواكبونها.

وعلى الرغم من ذلك، فإن هؤلاء الأوروبيين، مزوّدين بشعورهم الجماعي الجديد بأنفسهم، كانوا يعتقدون على نحو ما أنهم يخوضون حملة صليبية حضارية ضد المسلمين.

إنه عدو حضاري فعل الأعاجيب من أجل الأوروبيين العنيدين أثناء الحروب الصليبية وبعدها. وقد أقنع تهديد المسلمين المشارقة والأتراك الأوروبيين بضرورة النظر إلى ما هو أبعد وأعمق من خلافاتهم المتعددة (الإقليمية والدينية والعرقية والسياسية)، وذلك لتحقيق نمط شبيه بالوحدة فيما بينهم، حيث تجمع بعضهم إلى جانب بعض من أجل صد الجيوش العثمانية من على مشارف فيينا في مناسبتين اثنتين (عام ١٥٢٩ و١٦٨٣). وتمكنوا من

---

(١) ديفيد ليفرينغ لويس، اختبار الرب، ١٧٢.

هزيمة سلاح البحرية العثماني في معركة ليبانتو (عام ١٥٧١). وهذا التوافق في الآراء (بين الأوروبيين) الذي تشكل وقت الشدة بقي سائدًا زمن السلم وزمن الحرب.

وفي مشروعه الذي كان يرمي إلى توطيد دعائم سلام أبدي في أوروبا، ربط داعية السلام ومناهض العنف الأب القس بيير ذائع الصيت بين اتحاد أوروبي سلمي وبين القتال ضد الإمبراطورية العثمانية. وقد خلص في هذا السياق توماز ماستناك، بوصفه باحثًا، إلى الاستنتاج الآتي: «إنه مشروع للاتحاد الأوروبي أعده أحد أعظم دعاة السلام في أوروبا، وتوّج باستنتاج يفيد بأنه كان مفيدًا وسهلاً ومجيدًا للملوك المسيحيين، وذلك من أجل ذهابهم إلى الحرب بغية مطاردة الأتراك وتعقبهم خارج أوروبا وحتى خارج آسيا وإفريقيا»[١]. كما إن ويليام بن وإيمانويل كانْتْ كليهما أعدّا خططهما للاتحاد الأوروبي على أساس مناهضة العثمانية.

وعلى امتداد زمن الحرب الباردة أيضًا، ألّفَ التهديد الخارجي بين مجموعة من الدول القومية التي ما برحت تقاتل بعضها بعضًا على مدى مئات السنين، وأوشك أن يبيد كل منهما الآخر في الحربين العالميتين اللتين دارت رحاهما في النصف الأول من القرن العشرين[٢]. إن هذا البيت الأوروبي المشترك، كما تصورَه شارل ديغول، يمتد من المحيط الأطلسي إلى جبال الأورال. وفي عام ١٩٥١، وبعدما نبذتا نهائيًا منطق التنافس التقليدي الذي كان قائمًا بينهما، بدأت فرنسا وألمانيا بإرساء الأسس اللازمة لتشييد هذا البيت الأوروبي بتوقيع «معاهدة باريس» (إلى جانب إيطاليا ودول البنلوكس: بلجيكا

(١) توماز ماستناك، سلام الصليبية (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٢)، ٢٢٧.

(٢) مشروع التكامل بطيء الحركة هذا لايشمل، بطبيعة الحال، نصف أوروبا التي جعلها الاتحاد السوفييتي خاضعة لنفوذه، «الغرب المختطف» حسب العبارة التي استخدمت من قبل ميلان كونديرا، «مأساة وسط أوروبا» لميلان كونديرا، نيويورك ريفيو أو بوكس، ٢٦ أبريل/ نيسان، ١٩٨٤.

وهولندا واللوكسمبرغ) من أجل إنشاء سوق مشتركة للفحم والصلب. وأصبح اتحاد الفحم والصلب الأوروبي هذا الأساس الذي بني عليه لاحقًا الاتحاد الأوروبي، ومن ثم، وفي إطار التحالف مع الولايات المتحدة الأميركية، شُيِّدَ استنادًا إليه حصن سياسي واقتصادي مناهض للشيوعية.

وبعدما وضعت الحرب الباردة أوزارها، بدأت هذه الرابطة القائمة عبر الأطلسي بالتحلل «حين انتفت الحاجة بعد عام ١٩٨٩ إلى المواقف اللإيديولوجية التي كانت تربط أوروبا الغربية بالولايات المتحدة أثناء حقبة الحرب الباردة»، كما يقول الباحث إيان بوروما. «لقد بدأ الناس يستشعرون حدوث صدع متنامٍ بين القارتين، كما لو أن شرخًا أصاب الحضارة الغربية»[1]. وكانت أوروبا تركِّز اهتمامها في التعاون متعدّد الأطراف؛ وذلك لتوطيد دعائم الاتحاد الأوروبي أولاً ومن ثم لتوسيعه، ولكن أيضًا بوصف ذلك جزءًا من سياسة خارجية ناشئة تقوم على التعاون وعلى مراعاة المعايير والقواعد الدولية. أما الولايات المتحدة، وبعد مغازلة قصيرة الأمد للتعددية، تحولت أكثر نحو الحفاظ على هيمنتها العالمية في المجالين الاقتصادي والعسكري[2]. ولم يتمكن التحالف من الاتفاق حيال ما ينبغي القيام به للحيلولة دون تفكك يوغسلافيا، أو حيال دعم التدخلات العسكرية في كل من رواندا والصومال. كما لم يستطع التوافق

---

(١) إيان بوروما، ترويض الآلهة (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ٢٠١٠)، ١-٢.

(٢) لكلا المشروعين سماتهما الوهمية. لقد أنشأت أوروبا مفهوم المواطنة الأوروبية بموجب معاهدة ماسترخت عام ١٩٩١، واستعدت لتحقيق الاتحاد المالي عبر اعتماد عملتها الموحدة على امتداد أوروبا، وباشرت إجراء مناقشات بغية توسيع الاتحاد الأوروبي في نهاية المطاف، ليشمل عشر دول أخرى في عام ٢٠٠٤. غير أن الاستيلاء من البيروقراطية الأوروبية وسياسات الدفاع المبهمة، واضمحلال السيادة الوطنية، كل ذلك أعاق الاندماج وعرقل مسيرته.

نشأ التشكل الأوروبي عبر الاستفتاءات الوطنية بشأن معاهدة ماسترخت في الدانمرك وفرنسا عام ١٩٩٢، وأصبح هذا التشكك أقوى عبر رفض إيرلندا المبدئي الذي تكشف عنه الاستفتاء على معاهدة لشبونة عام ١٩٩٨. وعلى الرغم من أن كلتا المعاهدتين أقرتا في نهاية المطاف، إلا أن التشكك الأوروبي مازال يعمل بوصفه مكبحًا يحول دون تعميق الاندماج وتوسيعه. واكتشفت الولايات المتحدة في الوقت نفسه أنه لم يعد في وسعها أن تملي سياسة اقتصادية عالمية في عالم باتت فيه أوروبا الموحدة والصين الصاعدة لاعبين أكثر هيمنة.

على كيفية تأسيس مؤسسات دولية قابلة للحياة والاستمرار، وقادرة على تحقيق النجاح مثل «المحكمة الجنائية الدولية»، وعلى تنفيذ اتفاقات دولية قائمة مثل «بروتوكول كيوتو». وكانت أوروبا تشعر بعدم الارتياح حيال الأحادية القطبية للولايات المتحدة، فيما كانت الولايات المتحدة تنظر إلى الاتحاد الأوروبي وإلى دول عديدة منضوية تحت لوائه، بوصفها في أحسن الأحوال دولاً شريكة مترددة ومتأرجحة على صعيد تكوين نظام جديد لحقبة ما بعد الحرب الباردة، على أن يكون خاضعًا لزعامة الولايات المتحدة.

وكانت الحرب في البوسنة ذات أهمية حاسمة في هذا الصدد، فأوروبا التي طالما تبجّحت بالتزامها بحقوق الإنسان وفي منع وقوع أعمال إبادة جماعية، كان أداؤها ضئيلاً وهزيلاً جدًّا عندما تعلق الأمر بالأعمال الوحشية التي كشف النقاب عنها وجرت في عقر دارها، بخاصة ضد المسلمين. ويذكر شاد جاريه العامل في مركز لندن الإسلامي لحقوق الإنسان «أن للبوسنة تأثيرًا هائلاً على المسلمين في أوروبا». وجاء فيما أورده بيل كلينتون في كتابه: «كان يوجد هنا مجتمع إسلامي الثقافة، ولم يكن شديد الانخراط في الممارسة الدينية، كما كان مظهره أوروبيًّا جدًّا. ثم استهدفه تطهير عرقي وهجوم ضارٍ، ولم يستتبع هذا أي استجابة من بقية أوروبا لإيقافهما. وانكفأت الولايات المتحدة وترددت في اتخاذ إجراء لأن أوروبا لا تريد دولةً مسلمة. وحقيقة أن هذا الحدث الذي قال عنه الغرب إنه لن يحدث مرة أخرى مطلقًا يمكن أن يحدث مرةً أخرى، وإن لهذه الحقيقة تأثيرًا هائلاً على الجالية المسلمة»[1]. لقد طارد هذا الفشل في الاستجابة السياسية الأوروبية الخارجية، وكان له قدر أكبر من الإسهام في تعزيز الاستعداد المستقبلي لسلوك مسلك القيادة العسكرية للولايات المتحدة والاقتداء بها.

---

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع مسعود شاد جره، ٤ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠١٠ (لندن).
http://www.fpif.org/articles/ interview_with_the_islamic_human_rights_commission

أتاحت هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول للحكومات الأوروبية فرصة هائلة للرد على العدوان. وأصبح رئيس الوزراء البريطاني توني بلير الذي أيد بشدة الضربات الجوية لحلف شمال الأطلسي أثناء حرب كوسوفو عام ١٩٩٩، الشريك الأوروبي الرئيس لإدارة بوش في الحرب العالمية الناشئة على الإرهاب. لكن على الرغم من أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول بدا أنها تعزز الصلات بين أعضاء حلف شمال الأطلسي عبر ضفتيه، إلا أنها سلّطت الأضواء على الفجوة الآخذة في الاتساع فيما بينهم. وحتى في بيان التعاطف الذي بات يستشهد به على أوسع نطاق، وهو صادر عن جان ماري كولومباني، ونشر في مقال في صحيفة لوموند في الثاني عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١ تحت عنوان «جميعنا أميركيون»؛ حتى في هذا البيان كانت هنالك ملاحظة سيقت على سبيل الانتقاد، إذ جاء فيه:

«إن أميركا في عزلة قوتها وفي مركزها بوصفها القوة العظمى الوحيدة الآن وفي غياب النموذج السوفياتي المناوئ توقفت عن اجتذاب الأمم الأخرى نحوها».

وأردفت كولومباني تقول:

«أو بكلمات أكثر دقةً، في أجزاء محددة من العالم، باتت الولايات المتحدة لا تثير شيئًا إلا الكراهية»[1].

وهذا الانتقاد لنرجسية الولايات المتحدة العالمية أصبح الفكرة المهيمنة في ردود الفعل الأوروبية، فيما كانت الولايات المتحدة تشرع في توسيع دائرة حربها على الإرهاب وصولاً إلى ما وراء غزوها الأولي لأفغانستان. وأعلنت لاحقًا دول عديدة، إضافة لأوروبيين عاديين، تمردها جهارًا نهارًا على الترتيبات التحضيرية التي اتخذتها إدارة بوش تمهيدًا لشن الحرب على العراق، وعلى

(١) جان ماري كولومباني، «نحن جميعنا أميركيون»، لوموند، ١٢ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١.
http://www.worldpress.org/1101we_are_all_americans.htm.

الاعتداءات المصاحبة لهذه الترتيبات التي شكلت خرقًا للقانون الدولي. وانطلق بعض أضخم التظاهرات في الثالث عشر من فبراير/ شباط من عام ٢٠٠٣ ضد الغزو الذي كان حينها وشيكًا للعراق، وشكّلت التظاهرات تلك أكبر كتلة احتجاج في تاريخ البشرية؛ إذ شارك فيها ما بين ستة ملايين وعشرة ملايين إنسان. وجرت هذه التظاهرات في أوروبا على النحو الآتي: نصف مليون متظاهر في فرنسا، ومثل عددهم في ألمانيا، وأكثر من ستمائة ألف متظاهر في إيطاليا، ومليونا متظاهر تقريبًا في إسبانيا[1]. ورفضت إدارة بوش بواعث قلق الحكومات والمتظاهرين على حد سواء، بوصفها استغراقات رجعية تهيمن على «أوروبا العجوز»، وفقًا للوصف الذي ورد في تعبير دونالد رامسفيلد الشهير.

وكانت هناك في الواقع وجهات نظر أوروبية أخرى، حيث هلّل كثير من الأوروبيين لطاغوت الولايات المتحدة، وهم يكنون لفريق بوش قدرًا من التعاطف أكبر من ذاك الذي يشعرون به حيال قادتهم الأكثر تضاربًا وخلافًا في الآراء والمواقف.

فقد أعلن المطران تاديوس بلوسكي مطران بولندا أن «الدفاع العسكري المناهض للإرهاب الإسلامي تقوده اليوم الولايات المتحدة التي تؤدي حاليًا دورًا شديد الشبه بذاك الذي كانت تلعبه بولندا قبل عدة قرون، عندما كانت (بولندا) سور المسيحية الواقي وحصنها الحصين». ومضى المطران في هذا الإطار إلى حث زملائه المسيحيين على العمل من أجل الحيلولة دون أن تصبح أوروبا «العربية - السعودية -الأوروبية»[2]. لقد كانت بولندا إلى جانب دول أخرى من «أوروبا الجديدة»، في المجمل، أكثر تعاطفًا مع

(١) «انضم ملايين إلى المحتجين المناهضين للحرب»، ال بي بي سي، ١٧ فبراير/ شباط ٢٠٠٣،
http://news.bbc.co.uk/2/hi/europe/2765215.stm;

تقديرات أعداد الحشد من موسوعة ويكيبيديا لأعداد «المحتجين المناهضين للحرب في ١٥ فبراير/ شباط، ٢٠٠٣».

http://en.wikipedia. org/wiki/February_15,_2003_anti-war_protest.

(٢) نقلاً عن جون إسبوسيتو، مستقبل الإسلام (مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠١٠)، ٢٦.

سياسات إدارة بوش حيال العالم الإسلامي، وغالبًا ما كانت تعكف هذه الدول على الإشارة إلى الدور الذي كانت قد لعبته في مقارعة الإمبراطورية العثمانية على مشارف فيينا في حالة بولندا، أو في أثناء قرون الصراع الذي كانت منطقة البلقان مسرحًا له.

وفي نهاية المطاف، لم ينضم إلى الأميركيين في غزوهم للعراق سوى قوات بريطانية وحفنة من الجنود البولنديين، إلى جانب بعض القوات البحرية التي أسهمت بها الدانمرك. فيما نشرت بلدان أوروبية أخرى عددًا قليلاً من القوات بعد إتمام أعمال الغزو الأولية وذلك من أجل حفظ النظام. ورفضت دول أخرى الإسهام حتى بهذا الحد الأدنى من التأييد، إذ وقفت فرنسا موقفًا ثابتًا راسخًا مناهضًا للحرب. ورفضت تركيا السماح للولايات المتحدة باستخدام قواعدها العسكرية في غزوها للعراق. لكن حتى الدعم الذي حظيت به الحرب من قبل بعض الأحزاب الأوروبية الحاكمة مثل حزب شعب إسبانيا، جعل تلك الأحزاب في وضع ضعيف وفقًا لاستطلاعات الرأي، وغير جديرة بالثقة في العالم الإسلامي. وجاء فيما كتبه الروائي التركي، أورهان باموك الآتي: «إن مشاركة أوروبا في شن الحرب على العراق سببت أشد خيبة أمل في البلدان غير الغربية، كما سببت غضبًا حقيقيًا في تركيا»[1].

وفي إسهامها في الحملة الصليبية الجديدة، دبرت الولايات المتحدة الهجمات على كابول وبغداد، وعلى طرابلس لاحقًا، ونسقت الجهود الرامية إلى تحقيقها. وحاججت إدارة بوش في أنها تحارب العدو «هناك» لكيلا تقاتله في الشوارع الأميركية. واعتقد كارهو الإسلام ومثيرو المخاوف منه بأنهم كانوا بالفعل يخوضون الحرب داخل الوطن، ومنهم كريستوفر كالدويل الذي تنبأ عبر مجلة الويكلي ستاندرد بأن المسلمين سوف يغزون «مدن أوروبا شارعًا

---

(١) أورهان باموك، «إفساد حلم تركيا الأوروبي»، الغارديان، ٢٣ ديسمبر/ أيلول ٢٠١٠.
http://www.guardian.co.uk/commentisfree/2010/dec/23/turkey-european-dream-migrants-minorites.

فشارعًا»[1]. أما الإسرائيلية بات ياور المتخصصة باللاهوت الجدلي فقد جاء في كتابها الذي جعلت عنوانه «أورابيا» الآتي: «لقد تطورت أوروبا من مرحلة الحضارة اليهو- مسيحية مع عناصر علمانية مهمة من حقبة ما بعد التنوير إلى مرحلة ما بعد الحضارة اليهو- مسيحية المذعنة إلى إيديولوجيا الجهاد والقوى الإسلامية التي تمدّه بأسباب الحياة والانتشار»[2]. وكشف كارهو الإسلام ومثيرو المخاوف منه هؤلاء النقاب عن وجود شعور بالضيق في أوروبا حاليًا مماثل للشعور الناجم عن الفشل في الوقوف في وجه النازية، الذي كان سائدًا في ثلاثينيات القرن العشرين، أو التصدي للشيوعية في أربعينيات القرن ذاته. ولم يقتصر الأمر مع أنصار مبدأ التعددية الثقافية الأوروبيين السذّج على مجرد الوقوف متفرجين على البرابرة وهم يدخلون من الأبواب، بل وصل بهم الأمر إلى حد التبشير النشط بهم.

تغيير الديموغرافيا:

حالها حال مصابيح الغاز والقبعات السودا المدوّرة، أضحت القومية الأوروبية إبّان الحرب الباردة زيًّا عتيقًا. وعلى الصعيد العالمي، ثمة هندسة معمار دولية ماضية في توجيه القانون والتجارة والتنمية وتوسع تدريجيًّا نطاق سلطتها ومداها. وقد دعم الأوروبيون إلى حد كبير هذه العولمة. وعقد بعض أبناء الباسك وكورسيكا وبعض المقدونيين آمالاً على إقامة دولهم المستقلة، بيد أن استقلال هذه الكيانات كان أقرب إلى المستحيل في تلك السنوات. وفي الواقع ببطء ولكن بثبات، كان الأوروبيون ماضين في طريقهم في الاتجاه المعاكس للتكامل الأكثر عمقًا. وحتى كانوا يفكرون مليًّا (وهم على عتبة نهاية الحرب الباردة) في التخلي عن رموز وطنية بالغة القوة مثل عملاتهم الوطنية. وهرع مفكرون(هم من التنوع بحيث كان منهم

(١) كريستوفر كالدويل، تأملات في الثورة في أوروبا، ٢٢٢.

(٢) بات ياور، أورابيا [كرانبري]، نيو جيرسي: مطابع الجامعة المتحدة، ٢٠٠٥)، ٩.

المحلل التجاري كينيتشي أوهامي والدبلوماسية الفرنسية السابقة جين - ماري غيهينو) إلى كتابة مرثية الدولة القومية[1]. ولم يكن من غير المألوف الحديث في الأوساط الأكاديمية عن النزعة القومية، كما كتب إي. دجي. هو بسبوم في سنة ١٩٩٠:

«لم يعد ثمة وجود لقوة رئيسة موجِّهة للتطور التاريخي»[2].

إن أقل ما يقال في مثل هذه الأحكام إنها سابقة لأوانها. والقومية التي لا هي تلاشت ولا هي غطّت، حقًّا، في سبات عميق إبّان الحرب الباردة، تفجرت في أوروبا التي كانت تقترب بسرعة من الألفية[3]. ولعبت الحركات القومية أدوارًا حاسمة في ثورات عام ١٩٨٩ في أوروبا الشرقية، وتفكك يوغسلافيا بدءًا من عام ١٩٩١، وتفكك تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٩٣، وانحلال الاتحاد السوفياتي على مدى الحقبة الزمنية ذاتها. ولم يقتصر الأمر على شرق أوروبا فقط، إذ أنشأ الإسكتلنديون برلمانهم الخاص، واقترب الفلمنكيون والبولونيون كثيرًا، في مناسبات عديدة، من واقع تحقيق انفصال رسمي تام بينهم، وخبرت فرنسا إحياءً للثقافات والهويات البريتونية والبرفنسالية والألزاسية. ونظمت هذه الحركات القومية ضد الإمبراطوريات والفيدراليات والدول، وبتعبير آخر نظمت ضد الجهات التي ما انفكت تقمع المطالب الشعبية المنادية بحق تقرير المصير والتعبير عن الذات.

ولكن كان هناك هدف آخر للأنشطة القومية: الأقليات والمهاجرون، وكثير منهم مسلمون.

---

(١) كينيتشي أومي، نهاية الدولة القومية (نيويورك: المطبعة الحرة، ١٩٩٦)؛ جيان - ماري غويهينو، نهاية الدولة القومية (مينيابوليس: مطبعة جامعة مينيسوتا، ١٩٩٥).

(٢) إي. دجي. هوبسبوم، الأمم والقومية منذ عام ١٧٨٠ (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٠)، ١٦٣.

(٣) انظر، على سبيل المثال، ريتشارد كابلان وجون فيفر (محرران)، قومية أوربا الجديدة (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٦).

لقد عاش المسلمون حقبًا طويلةً في البلاد العثمانية السابقة التي كانت تضم ألبانيا وبلغاريا ومعظم يوغسلافيا. وبدءًا من خمسينيات القرن العشرين، سافر كثير من المسلمين من تركيا ويوغسلافيا ميممين شطر الغرب ليصبحوا عمالاً ضيوفًا يقومون بأعمال بغيضة ومنفرة وخطرة وصعبة، ينفر منها أكثر فأكثر السويسريون والألمان والسويديون. ودأب مهاجرون مسلمون آخرون على التماس الفرص في عواصم دول سبق لها أن استعمرت بلادهم: الشمال إفريقيون في باريس، والجنوب آسيويون في لندن، والإندونيسيون في أمستردام. وفي سبعينيات القرن العشرين، رفدت هذه الموجة الأولى من العمال الضيوف والطلبة وطالبي اللجوء بهجرة جديدة قام بها أفراد من أسرهم[1]. وأفضت إزالة الحدود الداخلية في أوروبا الموسعة، في تسعينيات القرن العشرين، إلى زيادة في تدفق المهاجرين الذين قدموا أساسًا من بلدان واقعة في شرقي أوروبا مثل بولونيا ورومانيا[2]. كما عكف مسلمون من دول البلقان على التماس ملاجئ لهم في أوروبا الغربية، وذلك إبان الحروب التي استعرت في يوغسلافيا السابقة، وواظب الألبان والأتراك على احتلال مرتبة متقدمة بين المواطنين القادمين من خارج الاتحاد الأوروبي إليه[3]. وكانت الدول الأوروبية تغدو أكثر تعدديةً على الصعيد الثقافي حتى على الرغم من تشبثها العنيد بمفاهيمها

---

(١) أندرو جيديس، سياسة الهجرة والهجرة في أوروبا (لندن: منشورات سيج، ٢٠٠٥)، ١٧.

(٢) «الهجرة وإحصاءات السكان المهاجرين»، يوروستات، المفوضية الأوروبية، أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٠.

http://epp.eurostat.ec.europa.eu/statistics_explained/index.php/Migration_and_migrant_population_statistics.

(٣) أتى نصف الأجانب البالغ عددهم ٩ , ٣١ مليون نسمة تقريبًا الذين يعيشون في الاتحاد الأوروبي في عام ٢٠٠٩، من بلاد يتراوح مؤشر الأمم المتحدة للتنمية البشرية فيها بين مستوى مرتفع (كثير من هؤلاء أتوا من روسيا وألبانيا وتركيا). كاتيا فاسيليفيا، «الأجانب الذين يعيشون في الاتحاد الأوروبي متنوعون وأصغر سنا بكثير من مواطني الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي»، يوروستات، المفوضية الأوروبية، ٢٠١٠.

http://epp.eurostat.ec.europa.eu/cache/ITY_OFFPUB/KS-SF-10045-/EN/KS-SF-10-045-EN.PDF.

القديمة عن وَحْدِيَّةِ الثقافات، وواظبت على منح مركز من الدرجة الثانية للمواليد الأجانب في ميادين العمل وفي المجال العام. لقد ناقش الأوروبيون هذه التعددية الثقافية إلى ما لا نهاية. لكن (كما لاحظ طارق رمضان المولود في سويسرا): «المجتمع متعدد الثقافات هو حقيقة قائمة بصرف النظر عن المواقف المعارضة أو المؤيدة له»[1].

ومع ذلك كان يوجد قدر كبير من الأصوات المعارضة لاستقبال المهاجرين وللتعددية الثقافية، ففي وقت باكر يعود إلى ستينيات القرن العشرين، بدأت أحزاب المحافظين واليمين المتطرّف بالإعراب عن قلقها حيال التحدي الكامن الذي طرحته الهجرة على مفهوم هذه الأحزاب للوحدة الوطنية. وكان إينوك باول (السياسي الذي كان عضوًا في حزب المحافظين البريطانيين) قد ألقى خطابًا مُشَهَّرًا سيئ الذكر في عام ١٩٦٨ تحت عنوان «أنهار من الدماء»، تفرّس فيه وقد انتابه ذعر واشمئزاز شديدان في الأعداد المتزايدة من الوجوه الكومونولثية (مواطنو البلدان التي كانت فيما مضى مستعمرات إنكليزية) الحاضرة ضمن الحشد البريطاني، وتنبأ بحدوث مواجهة دموية تنشأ عن «تشَظٍّ خطير داخل المجتمع»[2].

وبعد زمن طويل، أي في شهر أكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٩٨٥، صدر عدد خاص من صحيفة لو فيغارو الفرنسية طُرِحَ عبره السؤال الآتي: «هل سنبقى فرنسيين في غضون السنوات الثلاثين القادمة؟»[3]. إن الخوف من فقدان الهوية البريطانية أو الهوية الفرنسية سوف يصبح الشغل الشاغل، ومبعث القلق الجوهري لأولئك الذين لا يقتصر أمرهم على الخوف من مد الهجرة المتنامي

(١) طارق رمضان، ما أعتقد (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠١٠)، ١٣.

(٢) خطاب اينوك باول، «أنهار الدم الذي ألقاه إينوك باول»، الإندبندنت، ٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٧.

http://www.telegraph.co.uk/comment/3643823/Enoch-Powells-Rivers-of-Blood-speech.html.

(٣) أندرو جيديس، سياسة الهجرة والهجرة في أوروبا، ٦٠.

على مستوى القاعدة، بل يتعداه إلى الخوف أيضًا من التجانس المفروض من أعلى الهرم عبر التكامل الأوروبي (فضلاً عن العولمة والأمركة). وقد ضاعف هذه المخاوف العجزُ الديموغرافي؛ فمعدل الولادات فيها أقل بكثير من معدل النقص في عدد السكان (حتى في الدول الكاثوليكية مثل إيطاليا وإسبانيا). وقد نظر كثير من الأوروبيين في مرآة المستقبل فاقتصر ما رأوه على صورة التعددية الثقافية في أميركا. ويتزايد عدد المسلمين الذين يسهمون في تشكيل هذه التعددية الثقافية، فمقارنةً مع الوضع في الولايات المتحدة حيث يشكل المسلمون أقل من ١٪ من إجمالي سكانها، يشكل المسلمون الأوروبيون نسبة أكبر بكثير من إجمالي عدد السكان: إذ تبلغ نسبتهم ٧,٥٪ في هولندا، و٦٪ في فرنسا، و٥٪ في ألمانيا[1].

وفي الحقبة التي أعقبت الحرب الباردة مباشرةً، كان الشخص الذي يمثل العنصرية الأوروبية هو جان - ماري لوبان. إن كاره الأجانب الصريح هذا الذي اشتهر بتصريحاته المعادية لليهود وللمهاجرين، أثار الخوف منهم في قلوب أغلبية الفرنسيين، إلى حد جعل حملته الانتخابية المثيرة للدهشة والمتقنة إلى حد كبير تجتذب أكثر من مليون إنسان من المحتجين، وتجعلهم ينزلون إلى الشوارع في الأول من مايو/ أيار (و٨٠٪ يغادرون منازلهم وينزلون إلى الشوارع في جولة الإعادة بعد أربعة أيام من أجل إعادة انتخاب الرئيس جاك شيراك)[2]. وهناك أحزاب وشخصيات بارزة أخرى مثل يورغ هايدر في النمسا ولامس بلوك في بلجيكا، شقوا طريقهم لاحتلال مواقع لهم

(١) منتدى بيو حول الدين والحياة العامة، «رسم خريطة السكان المسلمين العالمية»، ٧ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٩.

http://pewforum.org/PublicationPage. aspx?id=1497.

(٢) جون إستربروك، «مسيرة المليون الفرنسية المناهضة للوبان»، شبكة سي بي سي نيوز، ١ مايو/ أيار ٢٠٠٢.

http://www.cbsnews.com/stories/200223/04//world/main506946.shtml;

«أغلبية ساحقة لشيراك ضد لوبان»، سي إن إن، ٦ مايو/ أيار، ٢٠٠٢.

http://edition.cnn.com/2002/WORLD/europe/0505//france.win/index.html

في عناوين الصحف الرئيسة وفي البرلمانات. وقد أظهرت برامجهم أوجه تشابه عديدة: القلق من جراء تأثير الهجرة في الثقافة الوطنية، والشكوك حيال الاتحاد الأوروبي ومؤسساته، والتأكيد على القانون والنظام. لكن وعلى الرغم من كل الاهتمام الإعلامي الذي استأثروا به، ليس لهم حتى الآن تأثير كبير في السياسة الأوروبية.

وكان الجدل الدائر في تسعينيات القرن العشرين بشأن الهجرة مركزًا في العرق وفي الأصل الإثني. لكن بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول والهجمات التي أعقبتها واستهدفت لندن ومدريد؛ أضحى دين المهاجرين فجأة ذا أهمية قصوى لدى الدولة والمجتمع على حد سواء. ونظرًا لأن عددًا من المهاجمين كانوا منتسبين إلى مساجد خاصة (خاطفو الطائرات في الحادي عشر من أيلول كانوا منتسبين إلى جامع طيبة في هامبورغ، وريتشارد ريد «مفجر الحذاء» كان منتسبًا إلى مسجد بريكستون في لندن)، شرعت مؤسسات الأمن القومي بإيلاء المؤسسات الإسلامية انتباهًا أكبر؛ إذ بدأت السلطات الألمانية تداهم مساجد، ودأبت السلطات البريطانية على استجواب أئمة، وبات يلقى القبض على المشتبه بهم، لكن يتبين في معظم الحالات أن لا علاقة لأغلبهم بالإرهاب. واعتقل الإسبان ستة عشر شخصًا من المواطنين الشمال إفريقيين للاشتباه بأنهم كانوا يمزجون أسلحة كيميائية بمركب الريسين السام، لكن تبين أن الزجاجات المشبوهة لم تكن تحتوي إلا على الكولونيا وزيت الزيتون والعسل ومحلول النشادر ومسحوق غسيل[1]. كما اعتقلت السلطات الإيطالية ثمانية وعشرين بائعًا جوّالاً باكستانيًا تبين أن «نصوصهم التعصبية» لم تكن إلا مقتبسات من القرآن الكريم[2]. لكن كانت بعض المؤامرات قد أحبطت في واقع الحال (مثل تلك التي كانت ترمي إلى تفجير طائرة في عام ٢٠٠٦، وكان عدد من المسلمين المولودين في بريطانيا متورطين فيها)، إلا أن المسلمين في

(١) ليز فيكيت، عدو مناسب (لندن: بلوتو: ٢٠٠٩)، ٥٩-٦٠.

(٢) المرجع نفسه. ٥٧-٨.

أوروبا لم يستطيعوا تجنّب الشعور بأنهم مستهدفون ظلمًا وعدوانًا بسبب أعمال إجرامية ترتكبها قلة قليلة من الناس، وبسبب مؤامرات يتخيل وقوعها عدد قليل آخر من الناس.

وفي بريطانيا، صرّحت أرزو ميرالي من مركز لندن الإسلامي لحقوق الإنسان بأن المجيبين على أسئلة طرحتها منظمتها عبر دراسات استقصائية، أفادوا عن ارتفاع منسوب الحوادث المتصلة بالمشاعر المعادية للإسلام، حتى قبل وقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول: فقد أفاد ٣٥٪ من المجيبين بأنهم خبروا تجارب تعرضوا فيها لسلوك ينطوي على عداء وكراهية للإسلام في عام ١٩٩٩، فيما أفاد ٤٥٪ بأنهم خبروا تجارب من هذا القبيل في عام٢٠٠٠. وقالت أرزو ميرالي: «أجرينا دراسة استقصائية أكثر تطورًا في عام ٢٠٠٤ أفاد فيها (٨٠٪) من المجيبين بوقوع حوادث تنم عن كراهية للإسلام، وتعد هذه القضية كارثة. وفي الحقيقة، لم يَغْدُ أي شيء أفضل حالاً مما كان عليه منذ ذلك الحين»[1].

وعززت المشاعر المعادية للمسلمين تلك المناهضة للمهاجرين. والآن وبعدما أمست اقتصاديات أوروبية عديدة تعاني ركودًا، وبعدما بات ممكنًا الحصول على فائض العمال من الدول حديثة العضوية في الاتحاد الأوروبي، باتت الجاليات (المسلمة) التي بنت فيما مضى الأنفاق والمجازات تحت الأرض، ومدت الجسور وشيدت أبنية المكاتب في أوروبا الصاخبة، باتت هذه الجاليات مكروهةً ومزدراة ومصنفة في مكانة أعلى قليلاً من أدنى طبقات المجتمع وأفقرها، وتعاني تمييزًا على صعيد فرص العمل والتعليم والخدمات الاجتماعية. غير أن كارهي الإسلام لم يبدوا اهتمامًا بالموروثات العنصرية. وقال كريستوفر كالدويل بازدراء: «إن المهاجرين أحدثوا كثيرًا من الفوضى،

(١) مقابلة أجراها الكاتب مع أرزو ميرالي ٤ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠١٠، (لندن).
http://www.fpif.org/articles/interview_with_the_islamic_human_rights_ commission.

وتسببوا في كثير من الفقر المدقع والجريمة»[1]. والأسوأ من ذلك أنهم كانوا يعيشون عالةً على الدولة.

وأظهرت حملة إعلانية تلفزيونية أطلقت في انتخابات عام ٢٠١٠ من أجل دعم الحزب الديمقراطي السويدي اليميني المتطرف، على سبيل المثال، متقاعدة بيضاء البشرة وهي تخسر سباقًا أعد من أجلها، ويكسب فيه حشد من أمهات مبرقعات[2]. وكان اليمين الأوروبي ينفض الغبار عن كثير من النعوت والألقاب التي كانت تستخدم بهدف الحط من قدر الأميركان من أصول إفريقية مثل: «ملكات الرعاية»؛ وهم يعانون «أمراضًا مختلفة مرتبطة بكونهم طبقة دنيا من البشر». وأضافت أحزاب اليمين المتطرف تعابير خاصة بها تنم عن استعلائها وتبجحها. فرابطة الشمال في إيطاليا، على سبيل المثال، وزعت على الناس في انتخابات مارس/ آذار عام ٢٠١٠ ألواحًا من الصابون لاستعمالها «بعد لمس مهاجر»[3].

حالهم حال المدافعين عن عنصرية الولايات المتحدة في حقبة زمنية سابقة، نادرًا ما كانت تعكس مواقف كارهي الإسلام وأعدائه الأوروبيين مظالم «مشروعة»، بل كانت تنطلق من تصورات من نسيج بنات خيالهم معادية للأجانب، تتهمهم بالولاء لإيديولوجية دينية خطيرة تستولي على تفكير مسلمي القارة. وكما يشير الكاتب بانكاج ميشرا: «يتمثل الأمر الأكثر رجحانًا في أن يقلق معظم المسلمين الأوروبيين حيال البطالة والتميز وعدم المساواة أكثر

---

(١) كريستوفر كالدويل، انعكاسات الثورة في أوروبا، ٢٠.

(٢) «شعيريد يموكرا ترناس أوفيشلا ركلام فيلم، القناة التلفزيونية الرابعة»، يوتيوب، ١٢ سبتمبر/ أيلول، ٢٠١٠.

http://www.youtube.com/user/sdwebbtv#p/u/15/ hAhIZNofrKY.

(٣) «سابون أنتيميغراتي»، أريزو نوتيزي، ١٩ مارس/ آذار ٢٠١٠.

http://www.arezzonotizie.it/index.php?option=com_content&view=article&id=50226:sapone-antimmigrati--nicotra-federazione-della-sinistra---monicafaenzicondanni-iniziativa-lega-nord&catid=82:politica&Itemid=1085.

من قلقهم المتعلق بإقامة خلافة إسلامية»[1]. وفي حين يعمد العنصريون إلى الحديث العلني والصريح عن علم الوراثة، يفضل كارهو الإسلام الحديثون الكلام عن الثقافة. يقول في هذا السياق ثايلو سارازين وهو عضو بارز في الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني: «أزعم أن القول إن إنجازات المهاجرين القادمين من بلدان إسلامية هي أدنى مستوى تبعًا لأسباب وراثية هو قول مغلوطٌ فيه». جاء ذلك في ما نشرته الصحف في صفحاتها الرئيسة من أقوال سارازين، حيث ادعى فيها أن المهاجرين المسلمين سوف يجهزون على بلاده. ويقول في هذا الصدد: «ينبغي أن تكون المسألة قضية ثقافة، والإسلام هو تلك الثقافة»[2]. وكما إن الإيديولوجية العنصرية ربطت بين «الأمراض» التي يعانيها الأميركيون من أصول إفريقية وبين التخلف الإفريقي العام، كذلك فعل أيضًا الإسلاموفوبيون في ربطهم بين أوجه القصور التي يعانيها المهاجرون المسلمون وبين ما يدعوه كالدويل: «فقر المجتمعات الإسلامية المدقع في جميع أرجاء العالم وعبوديتها وعنفها ورداءتها»[3].

وفي خريف عام ٢٠١٠، ما كان ذات يوم هامشيًا بالنسبة للرأي العام الأوروبي انتقل إلى قلب معترك الجدل السياسي، حتى في دول ذاع صيتها بفضل تسامحها. ففي السويد، على سبيل المثال، أزاح ديمقراطيو اليمين المتطرف في السويد تحالف يمين الوسط الحاكم في انتخابات أيلول/ سبتمبر، وذلك بحصولهم على ٥,٧٪ من الأصوات، وحصولهم على مقاعدهم الأولى في البرلمان. وفي هولندا، ساعد الشعبويون المعادون للمسلمين (الغيرت فيلدرز) في تشكيل حكومة جديدة. وفي الدانمرك والنرويج والنمسا وإيطاليا، حظي

(١) «بانكاج ميشرا» الإسلاموية، النيويوركر، ٧ يونيو/ حزيران، ٢٠١٠.
(٢) نقلاً عن مايكل سلاكمان بـ«كلمات عن المسلمين، فتح باب لطالما كان مغلقًا»، نيويورك تايمز، ١٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٠.
(٣) كريستوفر كالدويل، انعاكاسات الثورة في أوروبا، ١٦٨.

اليمين المتطرّف بنفوذ كبير[1]. وفي دول الاتحاد الأوروبي الجديدة الواقعة في شرق أوروبا، تصاعدت المشاعر المعادية للإسلام حتى في ظل غياب المسلمين. ففي جمهورية التشيك حيث يشكل المسلمون حوالى ١٪ من إجمالي السكان، تعهدت منظمة مكافحة المساجد «بالكفاح ضد أسلمة جمهورية التشيك». وأعلن رئيس وزراء سابق فيها أن الإسلام كان «حالة مناهضة للحضارة، وانتشر من شمالي إفريقيا إلى إندونيسيا ممولاً جزئيًا من مبيعات النفط وجزئيًا من بيع المخدرات»[2]. وفي بولندا حيث يشكل المسلمون نسبة ضئيلة أيضًا من إجمالي السكان، تشكل تحالف بين فريقين(يكاد الاتفاق بينهما يكون مستحيلاً) هما حليقو الرؤوس والبوذيون وذلك احتجاجًا على وجود المساجد[3]. وفي بلغاريا، تصرف حزب أتاكا (الهجوم) اليميني المتطرف وفقًا لمقتضيات اسمه، وذلك بمهاجمته مصلين مسلمين في المسجد في صوفيا[4].

وقبل شن هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، أثار العنصريون وكارهو الأجانب ضجةً واسعةً تمحورت حول الأقليات والمهمّشين. وقد مرروا

---

(١) أنتوني فايولا، «المشاعر المعادية للمسلمين تدفع الجناح الأيمن»، الواشنطن بوست، ٢٦ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٠.

(٢) بنيامين كننغهام، «المشاعر المعادية للإسلام كانت أقرب إلى الداخل»، براغ بوست، ٢٧ يوليو/ تموز ٢٠١١.

http://www.islamophobia-watch.com/islamophobia-watch/201128/7//right-wing-warns-against-threat-ofislamisationin-the-czech.html;

وكالة الأنباء التشيكية، رئيس الوزراء التشيكي السابق خضع للمحاكمة بسبب خطابات عن الإسلام. ١٨ يوليو / تموز، ٢٠١١.

http://praguemonitorcom/201108/07//former-czech-pm-sued-over-statements-islam.

(٣) بوب بيت، «احتجاجات مسجد وارسو، البوذيون يعاضدون حليقي الرؤوس ضد المسلمين»، إسلاموفوبيا واتش، ٧ أبريل/ نيسان ٢٠١٠.

http://www.islamophobia-watch.com/islamophobia-watch/20107/4//warsawmosqueprotest-buddhists-join-hands-with-skinheads-ag.html.

(٤) بوريانا دامبازوفا، «الأقليات الدينية تعاني من هجمات عنيفة من القوميين البلغار»، غلوبال بوست، ١١ يونيو/ حزيران ٢٠١١.

http//www.globalpost.com/dispatch/news/regions/europe/110609/bulgaria-muslims-nationalists.

قوانين عبر البرلمانات ضدهم. وفي هذا الإطار، أجري استفتاء سويسري على حظر بناء المآذن، وأقر قانون يحظر بناءها في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني من عام ٢٠٠٩، ومن المحتمل أن يكون هذا الإجراء قد اجتذب أكبر قدر من الاهتمام في جميع أرجاء العالم. علمًا بأن سويسرا ذاتها هي نموذج للتعايش العرقي واللغوي بين مجموعات من الفرنسيين والألمان والإيطاليين، ومجموعات ناطقة باللغة الرومانشية. ويعيش في سويسرا ٣٥٠,٠٠٠ مسلم تقريبًا، وهم يشكلون حوالى ٣,٤٪ من السكان، ويعتمدون في عباداتهم على حوالى ٢٠٠ مسجد ومكان للصلاة. ولا يوجد سوى ثلاث مآذن في سويسرا كلها. وحاول رجل الصناعة، الملياردير كريستوف بلوخر، بوصفه وزيرًا للعدل في حكومة اليمين المتطرّف، في البداية تمرير مشروع قانون يحظر بناء المآذن وذلك باستخدام التخطيط العمراني، بيد أن محاولته باءت بالفشل. ثم حاول حزبان يمينيان متطرفان بعد ذلك تمرير مشروع القانون عبر البرلمان، إلا أنهما أخفقا أيضًا. ثم تحول اليمين المتطرف بعد ذلك إلى عملية الاستفتاء ليصطدم بالجهات المعارضة للحكومة، وبالكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية، وبأرباب الأعمال والتجارة وبالناخبين الكوزموبوليتانيين (المتحررين من الأحقاد القومية والدينية وغيرها). وعلى الرغم من ذلك، حظي الاستفتاء بموافقة ٥٧٪ من أصوات الذين شاركوا فيه. ولعب عامل الخوف دورًا رئيسًا حيث وظف الناشطون الداعمون للاستفتاء صور المسلمين النمطية الأكثر عنفًا تأييدًا له[1]. لقد كان ذلك تكتيكًا أبلى بلاءً جيدًا في جميع أرجاء أوروبا. وعلى الرغم من أن كُتّابَ افتتاحيات الصحف الأوروبية ورؤساء تحريرها انتقدوا النتائج السويسرية، تبين أن القرار الذي وطّأ الاستفتاء لاتخاذه حظي بشعبية بين مواطني كل من فرنسا وإسبانيا وألمانيا ومواطني دول أخرى[2].

(١) بنيامين بروس، «حظر بناء المآذن في سويسرا».

http:// www.euro-islam.info/key-issues/switzerlands-minaret-ban/.

(٢) جيان كاي، «إرهاب الإسلام في أوروبا»، السياسة الخارجية تحت المجهر، ٩ أبريل/ نيسان ٢٠١٠.

http://www.fpif.org/articles/europes_islamophobia.

وكذلك حظيت بشعبية الحملات التي أطلقت ضد ارتداء الحجاب. وتتراوح أغطية الرأس هذه التي يرتديها بعض النساء المسلمات بين وشاح بسيط، وبرقع طويل يغطي كامل الوجه عدا العينين، إذ يبقي لها فتحتين شبكيتين صغيرتين. وتبعًا لواقع الفصل الصارم بين الكنيسة والدولة ذات النظام العلماني (الذي يقضي بإقصاء النفوذ الكهنوتي عن الدولة)، دارت فرنسا على صعيد سن القوانين المناهضة لارتداء الحجاب الإسلامي، حيث مررت الدولة في عام ٢٠٠٤ مشروع قانون يحظر ارتداء الحجاب في المدارس الفرنسية، إلى جانب حظر رموز دينية أخرى واضحة بما فيها نجمة داوود والصليب. وفي عام ٢٠١٠، وافق البرلمان الفرنسي على مشروع قانون يقضي بحظر ارتداء النقاب الذي ترتديه نساء يقل عددهن عن ٢٠٠٠ امرأة مسلمة، ضمن جالية مسلمة تعد خمسة ملايين نسمة[١]. وأدانت منظمة العفو الدولية القرار بوصفه انتقاصًا وحرمانًا من حرية التعبير. وأشار طارق رمضان بحكمة إلى هذا الموضوع حين قال: «إن إجبار امرأة على ارتداء حجاب هو عمل منافٍ للإسلام، وإجبارها على خلعه منافٍ لحقوق الإنسان»[٢]. ويوجد دول أوروبية أخرى (وسلطات إقليمية داخل بلدان أوروبية) فرضت بالفعل، أو تدرس فرض حظر على ارتداء البرقع، أو أشكال أخرى من أنواع الحجاب الإسلامي.

ويكمن خلف إقرار هذه القوانين المتعلقة بالمآذن والبراقع اعتقاد بأن المسلمين سوف يهيمنون بطريقة أو بأخرى على أوروبا، إما عبر الهجرة أو عبر إنجاب أعداد هائلة من الأطفال. وشددت الدول الأوروبية قوانينها الخاصة بالهجرة ونفذت قوانين صديقة للأطفال تشجيعًا للمواطنين على الإنجاب. والمخاوف من انخفاض معدلات الخصوبة هي مخاوف حقيقية جدًّا: فالبلد

(١) «الحكومة الفرنسية تدعم فرض حظر على ارتداء النقاب»، شبكة بي بي سي، ١٩ مايو/ أيار ٢٠١٠.

http://www.bbc.co.uk/news/10129324.،

(٢) طارق رمضان، ما أعتقد، 98.

الأوروبي الوحيد الذي تزيد فيه نسبة الولادات عن معدل الوفيات وهو١ ,٢٪ هو تركيا (وكثير من الأوروبيين لا يشملون تركيا في ناديهم). وتتركز نسب الإنجاب في معظم البلدان الأوروبية قرب الحد الأدنى: إذ تبلغ في جمهورية التشيك (١,٢٥)، وفي رومانيا (١,٢٧)، وفي بولندا (١,٢٩)، وفي إيطاليا (١,٣٢)[1]. إلا أن الخوف من هيمنة المسلمين هو أسطورة؛ فقد توقعت الدراسة الأحدث التي أجراها معهد بيو للأبحاث أن ترتفع نسبة السكان المسلمين (٢٪) فقط في عام (٢٠٣٠)[2].

وسوف يكون كارهو الإسلام مضطرين، على أي حال، لتحديد المسلمين الذين توقعوا هيمنتهم على أوروبا؛ نظرًا لوجود تنوع هائل في المجتمع وانقسامات دينية وعرقية وسياسية داخله. وعلاوة على ذلك، قد يكتشفون أنه في حال «تولي المسلمين زمام السلطة» لن تؤول الأمور إلى حدوث تغير كبير. وكما يشير الباحث جيتي كلاوسن: «إن المسلمين الأوروبيين هم أكثر الناس استعدادًا ورغبةً في مناهضة التطرف، ويدعمون العمليات الديمقراطية ويقرون بواجبات المواطَنة، ويطورون أنماطًا محليةً مميزةً من الهويات الإسلامية»[3].

لقد كانت أهداف المعاداة الأوروبية للإسلام كما كانت أهدافها في الولايات المتحدة الإسلام المعتدل جدًّا، والتيار الإسلامي الغالب والمعتدل لا المتطرفين، حيث استهدف أعداء الإسلام من وراء سعيهم المحموم محمدًا

---

(١) التقديرات خاصة بالعام ٢٠١٠، «مقارنة الدولة: معدل الولادة الإجمالي»، كتاب الحقيقة، وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية.
https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/rankorder/2127rank.html.

(٢) قدر معهد بيو حدوث ارتفاع في النسبة من ٦٪ إلى ٨٪. انظر منتدى بيو حول الدين والحياة العامة، «مستقبل السكان المسلين العالميين»، مركز بيو للأبحاث، ٢٧ يناير ٢٠١١.
http://pewresearch.org/pubs/1872/muslim-population-projections-worldwide-fast-growth.

(٣) حسب توصيف ماليس روثفن، «مشكلة المسلمين الكبرى!» مراجعة نيويورك للكتب، ١٧ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٩، ٦٤.

والمئذنة والحجاب، إذ اشتكى هؤلاء الصليبانيون من أن المهاجرين المسلمين العاديين لديهم أطفال رُضَّع، لا لأنهم يحيكون مؤامرات للقيام بأعمال عنف. وأعربوا عن مخاوفهم من تزايد مشاركة المسلمين في معترك السياسة الديمقراطية، وهم لا يربطون ذلك بحركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة، بل يربطونه بجيري فالويل وبأصوليين مسيحيين متشددين[١]. والسياسي الهولندي جيرت فيلدرز الذي يقود ثالث أكبر حزب في هولندا أطلق على القرآن الكريم اسم «الكتاب الفاشي» الذي ينبغي حظره[٢].

ولم يعد الأمر يقتصر على الجناح اليميني، وجاء فيما كتبه الصحافي بول هوكنوس، في هذا السياق، الآتي: «إن ما جعل العنصرية المناهضة للمسلمين ماحقة ومدمرة جدًّا هو أنها خلافًا للنزاعات الشعبانية التي كانت قائمة في الماضي، كراهية الإسلام حاليًا تروق لألوان الطيف السياسي على نطاق واسع من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، بصرف النظر عن المستوى الاجتماعي والمستوى الثقافي»[٣]. وفي فرنسا، صوّت بـ«لا» على مشروع قانون حظر ارتداء البرقع نائبان فقط في المجلسين التشريعيين كليهما في البرلمان الفرنسي. ووفقًا لاستطلاع للرأي يرمي إلى استبيان المواقف، أجراه معهد بيو العالمي في ٢٠٠٨، أعلن أكثر من (٥٠٪) من الألمان والإسبان المستطلعة آراؤهم أنهم «ينظرون إلى المسلمين نظرة سلبية»[٤].

---

(١) رمضان (الذي يسعى بوضوح لأن يقدم للمسلمين الأوروبيين ماقدمه جيري فالويل للإنجيليين الأميركيين) يحاجج بقوة من أجل زيادة إشراكهم في السياسة الأوروبية». انظر بروس باور، عندما نامت أوروبا (نيويورك: برودواي للكتب، ٢٠٠٦)، ٦٨.

(٢) جيرت وايلدرز، «يكفي تعني يكفي: حظر القران»، فولكسترانت، ٨ أغسطس/ آب.
http://www.militantislammonitor.org/article/id/3094

(٣) بول هوكينوس، «كراهية الإسلام المتزايدة في أوروبا»، نيشن، ٩ مايو/ أيار٢٠١١، ٢٢-٢٣.

(٤) مشروع بيو لقياس للمواقف العالمية، «المواقف المعادية لليهود والمسلمين في أوروبا في ازدياد»، مركز بيو للأبحاث، ١٧ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٨.
http://pewglobal.org/2008/09/17/unfavorable-views-of-jews-and-muslims-on-the-increase-in-europe./

ولأوروبا أيضًا نصيبها من ليبراليي الجهاد، مثل مارتن أميس وريجيس ديبريها للذين يمنحان الإسلاموفوبيا مظهرًا خارجيًا خادعًا لتوافق سياسي. إن ليبراليي الجهاد هؤلاء حالهم حال زملائهم الأميركيين ليسوا قلقين حيال المسلمين فحسب، بل ينتابهم القلق أيضًا من جراء سياسات التسامح التي يعتقدون أنها شجعت التطرف الإسلامي، سواءٌ أكان ذلك عمدًا أم عن غير قصد.

الهدف: التعدّدية الثقافية

فيما كانت الحرب الباردة تضع أوزارها وتقترب من نهايتها، شرع نقاد محافظون في أميركا مثل ألن بلوم ووليام بينيت يشنون هجومًا على فلسفة شعروا أنها كانت تقوض القيم الغربية. والتعددية الثقافية التي تحتفي بالتنوع العرقي والثقافي أصبحت تيارًا رئيسًا سائدًا في حقل التعليم وفي القطاع المشترك، وعلى صعيد التعاقدات الحكومية وفي عالم الترفيه. وظهر فجأة مزيد من النساء والأقليات في قاعات مجالس الإدارة وفي أفلام هوليوود وفي المناهج الجامعية. وكانت هذه التغييرات مدفوعة جزئيًا بواسطة حركات اجتماعية وفي جزئها الآخر من قبل تفضيلات المستهلكين. وفي كلتا الحالتين كان النقاد قلقين حيال ما نظروا إليه بوصفه تحديًا للثقافة السائدة ولسياسة الاستيعاب، ورثوا لحال أطلق عليها آرثر شليزنجر وصف «تفتيت أميركا»[1].

وفي أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، شرع هؤلاء النقاد يعيدون صياغة نقدهم للتعددية الثقافية، وذلك ليدمجوا في نقدهم هذا المشاعر المعادية للإسلام. واقترف مناصرو التعددية الثقافية إثمًا كبيرًا بخصوص «النسبية الثقافية» التي وضعت جميع الثقافات على قدم المساواة. وكان هذا وفقًا لما كتبه الأكاديمي بسام الطيبي وآخرون عَقِبَ أخيل الحضارة الغربية، البقعة الضعيفة

(١) آرثر شليزنجر، تشتيت شمل أميركا (نيويورك: نورتون، ١٩٩٨).

التي يمكن أن يضرب عبرها السيف الإسلامي[1]. وفي حين أوصد غلاة المتعصبين الباب في وجه الإسلام، فتحه دعاة التعددية الثقافية على مصراعيه، بحيث أضحى دخول أكثر القوى مُناهَضَةً للغرب ممكنًا.

ولهذا السبب قال صمويل هنتنغتون عن التعددية الثقافية: «هي في الأساس إيديولوجية مناهضة للغرب»[2]. وبالنسبة للناشط البرلماني السابق الهولندي الجنسية والصومالي المولد، أيان هيرسي علي: حالت التعددية الثقافية في الغرب «دون تحدي المدرسين العلني والصريح لمعتقدات أطفال المسلمين ووالديهم»[3]. وبالنسبة للفريق الذي كان وراء إعداد تقرير «س إس بي» عن «تهديد الشريعة»، أنتجت التعددية الثقافية حسب اعتقادهم فقر دم ثقافيًا في الولايات المتحدة، بينما يمضي الناقد اليميني المتطرف ديسوزا دينيش بعيدًا جدًّا إلى حد يزعم معه أن التعددية الثقافية أدت مباشرةً إلى وقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول[4]. إن هذا واقع لا يمكن أن تعلق الآمال عليه في فلسفة تنبذ الراديكالية وتستند إلى الممارسة الديمقراطية والقيم العالمية، ويمكن أن تعتمد على نطاق واسع من قبل المؤسسات والجامعات. وإن المحاولات الهزيلة التي بذلت لتشويه التعددية الثقافية عبر الرسوم الكاريكاتورية، لا تعدو كونها تعريةً للإحباطات الاجتماعية التي مني بها المحافظون الذين عجزوا عن رد المطالب التي تثيرها الأقليات سياسيًّا.

---

(١) يحاجج بسام طيبي في أن الباحثين الثقافيين النسبويين فشلوا في رؤية أن الاستبداد الديني الجديد للإسلام يمثل دينًا سياسيًّا جديدًا ينذر بتهديد شمولي للمجتمع المنفتح. بسام طيبي، «شمولية الإسلام الجهادي وتحديه لأوروبا والإسلام»، في الحركات الشمولية والأديان السياسية، ٨، رقم ١(٢٠٠٧)، ٤١.

(٢) صموئيل هنتنغتون، من نحن؟ (نيويورك: سيمون وشوستر، ٢٠٠٤)، ١٧١.

(٣) أيان هيرسي علي، نوماد (نيويورك: فري برس، ٢٠١٠)، xix.

(٤) الشريعة: تهديد لأميركا، ١٢٥؛ دينيش ديسوزا، العدو في الداخل: اليسار الثقافي ومسؤوليته بالنسبة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول (نيويورك: دوبلداي، ٢٠٠٧)، ٢.

وانعكس الهجوم على التعددية الثقافية في أوروبا قلقًا مماثلاً حيال تحول المجتمعات التي يفترض أنها متجانسة. وكان يتملك المحافظين هاجس الثقافة اليسارية والليبرالية التي حققت فضيلة قائمة على أرض الواقع من التعددية الثقافية، بدافع الضرورة التي كانت تقتضي في الماضي وجود عمال ضيوف. فهولندا، على سبيل المثال، كانت تفاخر ذات يوم بتسامحها حيال وجود مقاهٍ تسمح بتعاطي الحشيش المخدر وتسمح بممارسة البغاء، كما كانت تفاخر بالطابع المتنوع التعددي لسكانها. وفي تسعينيات القرن العشرين، هبطت على البلد «واقعية جديدة» حيث بدأ ساسة في مناخات ما بعد الحرب الباردة يدرسون ويحللون الافتراضات الليبرالية الهولندية، بخاصة تلك المتعلقة بالهجرة[1]. وانصب اهتمام هؤلاء الساسة وتوجه خطابهم إلى من اعتاد ريتشارد نيكسون على تسميتهم «الأغلبية الصامتة»، وهم يشكلون القاعدة التي تقوم عليها البورجوازية المفترضة للمجتمع، إلى جانب ما كان يُعَدُّ في الماضي توجيهًا صادمًا. وقال بيم فورتين(وهو أحد أعلام أصحاب ردود الفعل الأوروبية العنيفة المناهضة للتعددية الثقافية): إن الإسلام ثقافة «عدائية» و«رجعية».

إن فورتيون الشاذ المبهرج الذي يدين بكثير من شهرته لتقاليد التسامح الهولندية نجح في حقن آرائه في صلب التيار السائد في المجتمع الهولندي، قبل اغتياله من قبل أحد نشطاء حقوق الحيوان في عام ٢٠٠٢.

لقد عكس الانحراف الهولندي نحو التعصّب اتجاهًا أكبر بكثير في أوروبا. وكانت التعددية الثقافية واتصالها المفترض باليسار عرضة للهجوم في جميع أرجاء القارة (الأوروبية)، وذلك لتشجيعها المزعوم للأقليات من أجل التشبث بهوياتهم. وكان لليبراليي الجهاد في أوروبا موقفهم المختلف أيضًا من سياسة الهوية هذه؛ حيث عارضوا التعددية الثقافية لا من وجهة نظر محافظة كما يلاحظ المحلل كوندناني آرون إذ يقول: «لا يتعين على الناس أن يندمجوا في

(١) ستيفن فيرتوفيك وسوزان وسندروف، ناشران، رد الفعل العنيف متعدد الثقافات (لندن: روتليدج، ٢٠١٠) ٧٦-٧٨.

نوع من أنواع المجتمعات قديمة الطراز من منطلق وجهة نظر ذات طابع محافظ، بل لأن التعددية الثقافية مناهضة لقيم التنوير»[1]. وسواء أكان الأمر متعلقًا بالقيم العالمية المفترضة لتقليد التنوير أم بالثقافة الضيقة للمجتمع المتجانس المتخيل، فإن جوهر النقد يختزل في مطلب بسيط: على المهاجرين إما الاندماج في المجتمع أو الرحيل.

لقد عانت الدول الأوروبية اضطرابات مماثلة لتلك التي كابدتها الولايات المتحدة إبان حقبة الحقوق المدنية، حيث انخرط المواطنون المسلمون في المعترك السياسي مطالبين بتحقيق المساواة في الحقوق. وكان يتعين على الأوروبيين إعادة هيكلة البنى السياسية والاجتماعية من أجل تلبية احتياجات الأقليات المسيسة حديثًا، وكان جزء لا بأس به من السكان ببساطة راغبًا عن فعل ذلك (عدد من السكان مماثل تقريبًا للأميركيين الجنوبيين، وعدد من الليبراليين المحبطين نظروا إلى حركة الحقوق المدنية حينها بوصفها مجرد حركة تخريبية)[2]. وبدلاً من الارتقاء إلى مستوى تحدي التعددية الثقافية، نفض كثير من الساسة الأوروبيين أيديهم منها وتخلوا عنها. فالمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، على سبيل المثال، أعلنت أن التعددية الثقافية فشلت في ألمانيا، وكان ضربًا من الوهم الاعتقاد بأن في وسع الألمان والعمال الأجانب «أن يعيشوا بسعادة وهناء جنبًا إلى جنب». وحثّ رئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون الحكومات الأوروبية على ممارسة «قدر أقل بكثير من التسامح السلبي الذي كان ممارسًا في السنوات الأخيرة، وعلى ممارسة قدر أكبر من الليبرالية

---

(١) مقابلة المؤلف مع آرون كوندناني، ١٣ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٠ (واشنطن. العاصمة)
http://www.fpif.org/articles/interview_with_arun_kundnani

(٢) «من السهل أن ننسى أن تسعة عشر عضوًا من أصل اثنين وعشرين من أعضاء مجلس الشيوخ الجنوبيين وقعوا في عام ١٩٥٦ بيانًا مناقضًا للقرار، أو أن الأتلانتيك مونثلي – منبر منشورات نيو إنغلاند– نشرت مقالاً في السنة ذاتها تحاجج فيه في أن براون يروج للاتصال الجنسي بين الأعراق المختلفة».

المحكمة والقوية»[1]. إن الهجوم الذي شنّه اليمين على التعددية الثقافية لم يكن من أمره إلا أن شجّع مزيدًا مما كان (اليمينيون) يكرهون في المقام الأول. وكتب بيتر ماندفيل المتخصص في الإسلام السياسي عن هذا الموضوع الآتي: «إن هذا التعصّب لجهة الاختلاف الثقافي وطلب الانصياع الكامل أديا إلى رد فعل معاكس: اعتناق الإسلام بوصفه إلى حد ما ضربًا من ضروب التمرد المناهض للبيئة الاجتماعية غير المضيافة»[2].

قد يكون المتطرفون القوميون الذين قادوا الكفاح المناهض للتعددية الثقافية يعانون ضيقًا في أفق التفكير من حيث رؤيتهم للأمور، إلا أنهم يتخطون حدودهم القومية من حيث التكتيكات التي يتبعونها. فقد تجمع قادة أحزاب أوروبية كثيرة مناهضة للإسلام في القدس في شهر ديسمبر/ كانون أول من عام ٢٠١٠، وكان بينهم رينيه ستاد تكيوتيز من حزب الحرية، وهو حزب ألماني جديد منشق عن الاتحاد الديمقراطي المسيحي، وكان بينهم أيضًا هاينز كريستيان ستوش رئيس حزب الحرية في النمسا، إلى جانب السياسي البلجيكي فيليب ديونيتر من حزب لامس بيلانغ القومي الفلمنغي، وكنت إكيروث من القوميين الديمقراطيين السويديين المناهضين للإسلام. والتقى هؤلاء مع المستوطنين اليهود في الضفة الغربية، وتلقوا مذكرة تهنئة من سارة بالين، وأصدروا إعلان القدس الذي شجب «التهديد الجديد العالمي الشمولي المتمثل بالإسلام الأصولي»[3].

كما توسعت أيضًا العلاقات والروابط مع متطرفي الولايات المتحدة، فعصبة الدفاع البريطانية التي خرجت من رحم مجموعة مثيري شغب من

---

(١) جون بيرنز، «كاميرون ينتقد التعددية الثقافية البريطانية»، نيويورك تايمز، ٥ فبراير/ شباط ٢٠١١.
http://www.nytimes.com/201106/02//world/ europe/06britain.html.

(٢) بيتر ماندافيل، «الشباب الإسلامي في أوروبا» لدى شيرين هنتر، ناشرة كتاب: الإسلام دين أوروبا الثاني (وسبورت، ولاية كونكتيكت: بريغر، ٢٠٠٢)، ٢٢.

(٣) يوخن مارتن غوتش، «جيرت فيلدرز لألماني» الدير شبيغل عبر الشبكة، ٦ يناير/ كانون الثاني ٢٠١١.
http://www.spiegel.de/international/ germany/0,1518,737676,00.html.

مشجعي لعبة السوكر (ضرب من كرة القدم)، بدأت بالعمل مع رابي ناتشوم شيفرين من حركة حزب الشاي وباميلا غيلر، رائدة الإسلاموفوبيا؛ وذلك من أجل حقن المشاعر المعادية للإسلام في قلب السجال السياسي السائد في دول كل منهم[1]. واستخدم المتشاطئون أطلسيًا (الأميركان والأوروبيون) فيما مضى مناهضتهم المشتركة للشيوعية؛ للتأكيد على أهمية العلاقة بين ضفتي الأطلسي. واليوم يستعمل جيل جديد موضوع العداء للإسلام لتحقيق الغرض ذاته. كتب عن هذا الموضوع توني بلانكلي، المحرر في صحيفة الواشنطن تايمز اليمينية المتطرفة: «لا نستطيع تحمل رؤية أوروبا وهي تتحول إلى منصة إطلاق (قذائف إلخ..) للجهاد الإسلامي»[2].

وكانت هذه الجماعات اليمينية المتطرفة معنية بالتهديد القادم من أماكن بعيدة جدًا (باكستان) ومن داخل مجتمعاتها. لكنهم أعربوا عن بعض أعظم ما أهمهم؛ ألا وهو التهديد القائم على حدود أوروبا الذي يعيد إلى الذاكرة الاعتداءات العثمانية على فيينا والتحديات الأقدم عهدًا، تحديات الحقبة الصليبية. وحتى في وقتنا الحاضر هذا، أي بعد مرور أكثر من عقد من الزمن على نهاية حروب يوغسلافيا، ما فتئ الباعة المتجولون يكتبون عن الخلافة القادمة في مناطق البلقان[3]. وتمّ تسخين كل هذا الذي ذكر بفعل الشوفينية

---

(١) دومينيك كاشياني، «من هم جماعةرابطة الدفاع الإنجليزية»، بي بي سي نيوز، ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٩.
http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/magazine/8250017.stm

مارك تاونسند، «قوى رابطة الدفاع الإنجليزية تقيم روابط مع حزب الشاي في أميركا»، الأوبزرفر، ١٠ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٠.
http://www.guardian.co.uk/uk/2010/oct/10/english-defence-league-tea-party.

(٢) توني بلانكلي، فرصة الغرب الأخيرة (واشنطن العاصمة: ريجسي، ٢٠٠٥)، ٢٤ نورمان بودهوريتز أيضًا: «من منطلق تصوري، احتمال التعرض إلى الغزو من الداخل من قبل الفاشية الإسلامية سوف يؤدي إلى تركيز التفكير لدى الدول الغربية الأوروبية الرئيسة على نقطة تفضي إلى أن هذه الدول سوف تنضم في نهاية المطاف إلينا في كفاحنا ضد التهديد الذي يتهددنا من الخارج». نورمان بودهورتيز، الحرب العالمية الرابعة، ٢١٦.

(٣) انظر، على سبيل المثال، كريستوفر ديليسو، خلافة البلقان القادمة (وستبورت، ولاية كونكتيكت: مؤسسة بريغر الدولية للأمن، ٢٠٠٧). وشاوول شاي، الإرهاب الإسلامي ودول البلقان (نيو برونسويك، نيو جيرسي: ترانز أكشن للكتب، ٢٠٠٧).

الصربية المتعلقة بمذابح المسلمين والمرتزقة والأمهات والمساجد التي مولت من قبل السعوديين. إن المنطقة أبعد ما تكون عن الاستقرار أو السلام؛ نظرًا لعناد البوسنة وخلافات صرب كوسوفو، ورفض اليونان منح مقدونيا الحق في استخدام اسمها. لكن ليس للدين ولا للإسلام الراديكالي بصفة خاصة دور يذكر في هذه الحالة من التضارب العنيف في المواقف.

وإذا ما مضينا أبعد قليلاً نحو الجنوب، نجد أن حملات أوروبا المعادية للإسلام والقائمين عليها في حالة انشغال كامل. ففي القرن الحادي عشر غير السلاجقة الأتراك موازين القوى في الشرق الأوسط؛ الأمر الذي عجل إطلاق الحروب الصليبية. وبعد ألف عام من ذلك التاريخ، يعمد الأتراك إلى الإخلال في الوضع القائم في المنطقة، لكن دونما استخدام للعنف هذه المرة. ودعاة الحملة الصليبية الجديدة على أهبة الاستعداد.

التحدي المتمثل في تركيا:

بعد الحرب العالمية الأولى، أنشأ أبو تركيا الحديثة كمال أتاتورك دولة جديدة من أطلال بلد خلفته الإمبراطورية العثمانية المنهارة وراءها، وهي دولة لم يكن نجاح قيامها مأمولاً. لقد أنشأ الضابط العسكري رائد التجديد المتحدّر من سالونيك دولته العلمانية الجديدة على غرار النموذج الفرنسي للدولة: قوة مركزية قوية وجيش حديث وتجميد صارم للإسلام، بحيث جعله يقتصر على المجال الخاص، ولم تكن هذه عمليةً سهلةً. وحظرت الحكومة الأحزاب السياسية الإسلامية وكافحت الدولة ارتداء الحجاب، وعانت الأقليات الدينية والعرقية من حملة تتريك. وفي عام ١٩٢٤، أنهى كمال أتاتورك رسميًّا الخلافة الإسلامية، وكانت مجرد مؤسسة خاملة تتخذ من اسطنبول مقرًّا لها.

وما انفك القرار الذي اتخذ في عام ١٩٢٤ يلازم العلاقة بين الإسلام والغرب، فقد شنت القاعدة هجماتها الإرهابية، جزئيًّا، من أجل مناهضة العمل الذي قام به أتاتورك. ومن جهة أخرى، بالنسبة لأولئك الذين ينتقدون

الإسلام، تبقى حركة أتاتورك الجريئة نموذجًا ينبغي أن يحتذى في كافة أرجاء العالم الإسلامي، وكان ينبغي على تركيا أن تصدر نموذجها ذاك بمزيد من القوة[1].

لا يُعد أي خيار جذابًا بصفة خاصة اليوم، فاستعادة الخلافة لا تشغل بال معظم المسلمين حاليًا إلا بقدر ما تشغل استعادة القدس بال أغلب المسيحيين. أما بالنسبة للكمالية، فقد حاولت دول عديدة في الواقع فرض الحل التركي على سكانها: الشاه في إيران، والبعثيون في سوريا، وجمال عبد الناصر في مصر. غير أن الإسلام لم يدخل برفق إلى المجال الخاص. وجاء فيما كتبه والي نصر عن هذا الموضوع:

«إن أحد موروثات الكمالية هو الغضب المكبوت في ما بين الطبقات الدنيا، التي لم تحصل إلا على نزر يسير من الفوائد الاقتصادية، والتي استاءت استياءً شديدًا من جراء الاعتداء على الإسلام. وشجع الغضب إلى حد كبير تنامي الإسلام السياسي في جميع أرجاء العالم الإسلامي»[2].

وأعاد الأتراك أيضًا النظر والتفكير في النموذج الكمالي وفي النزعة العسكرية المتأصلة فيه، وفي التجانس العرقي القسري، وفي السياسات الاقتصادية التي كان عقمها يزداد أكثر فأكثر. وأدت إعادات النظر تلك إلى إعادة توجيه النظام التركي، وإلى إعادة التفكير في مكان تركيا في العالم. ويبقى أتاتورك صاحب الشخصية البارزة الذي يتمتع بشعبية استثنائية في تركيا، غير أن صوره وهو يشير إلى سبحات للبيع في محلات تجارية في اسطنبول تقتضي إعادة تقويم مستمرة لإرثه. ويجمع النموذج التركي اليوم الإسلام مع الديمقراطية وإصلاحات السوق والدبلوماسية الخلاقة، وهي ليست نسخة طبق الأصل عما كان يدور في خلد كمال أتاتورك.

---

(١) دانيال بايبس، الإسلام المتشدد يصل أميركا، ٣٣.

(٢) والي نصر، قوى الثروة (نيويورك: المطبعة الحرّة، ٢٠٠٩)، ١١٠.

وفي عام ٢٠٠٢، اعتلى سدة الحكم حزب العدالة والتنمية المتأثر بالإسلام، ووسع بعد ذلك قاعدته السياسية في أعقاب انتخابات عامي ٢٠٠٧ و٢٠١١. ومسترشدةً بوزير الخارجية أحمد داود أوغلو (وهو أكاديمي سابق طرح مخططًا لدبلوماسية الدولة الجديدة في كتابه الذي نشره في عام ٢٠٠١ تحت عنوان العمق الاستراتيجي)، تعهدت تركيا بتحقيق وضع «تنعدم فيه المشكلات مع دول الجوار». وعلى صعيد المصطلحات الفنية للسياسة الخارجية، اقترح أحمد داود أوغلو أن تعمل تركيا عملاً دؤوبًا على خلق مجال نفوذ تركي عبر اتباع سياسة قوة متوازنة تتسم بالحكمة وبعد النظر. وكما فعلت الصين، تعهّدت تركيا بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لشركائها. وبذلت جهدًا عظيمًا أيضًا من أجل إصلاح العلاقات مع جيرانها الأقربين (كردستان العراق وأرمينيا وقبرص واليونان وسوريا). كما عقدت صداقات جديدة مع دول أكثر بعدًا عنها من حيث الموقع الجغرافي في روسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية.

ومن موقعها بوصفها صديقةً لجميع الأطراف، تعرض تركيا خدماتها على صعيد الوساطة الدبلوماسية، حتى في أماكن كانت تركيا تعد فيها إلى عهد قريب دولةً غيرَ مرغوبٍ فيها. ويقول سوله كوت الخبير في دول منطقة البلقان في جامعة بيلغي في اسطنبول عن هذا الموضوع: «لم يكن كثير من الناس يتصورون أن من الممكن أن يطلب الصرب وساطة تركية بين مجموعات بوسنية مختلفة في منطقة السنجق الصربية». ويضيف: «كان الأتراك يوصفون بالأشرار في التاريخ الصربي. إذن ما الذي يحدث حاليًا؟ لقد جعلت تركيا نفسها لاعبًا قويًّا وذا صدقية في المنطقة»[1].

وتطمح تركيا إلى لعب دور عالمي، وتعيد تشكيل الوضع السياسي في الشرق الأوسط، وتتحدى فكرة واشنطن التقليدية عن نفسها بوصفها الوسيط الذي يشكل الملاذ الأخير في المنطقة. وبالتعاون مع البرازيل، صاغت تركيا

---

(١) مقابلة المؤلف مع سول كوت، ٢٦ أكتوبر/ تشرين الأول، ٢٠٠٩ (اسطنبول)،
http:// balkansproject.ips-dc.org/?p=991.

حلاً وسطًا تجنبًا لاندلاع مواجهة مع إيران بسبب برنامجها النووي الذي خططت إدارة أوباما لضربه[1]. وجنبًا إلى جنب مع إسبانيا، بادرت إلى تكريس حوار الحضارات، ضمن جهود الأمم المتحدة لردم الفجوة بين الإسلام والغرب. كما حاولت تركيا توظيف مهاراتها التفاوضية في وضع حد للحصار المفروض على قطاع غزة، ولإزالة العقبات التي كانت تعترض انسحاب القوات الأميركية من العراق، وفي إيجاد حل للضجة التي أثيرت حول الرسوم الكرتونية للرسول محمد. وعملت أيضًا على استضافة اجتماعات الأمم المتحدة بشأن الصومال. وعلى مستوى المجتمع الإسلامي العالمي، يرأس حاليًا أكمل الدين إحسان أوغلو، التركي، منظمة المؤتمر الإسلامي التي تضم في عضويتها سبعًا وخمسين دولة إسلامية، وتعد صوت الدول الإسلامية الرائد على المستوى الدولي.

وللنموذج التركي في الانتقال من الحكم الاستبدادي والخلاص منه (مع التركيز على النمو الاقتصادي وعلى القيم الاجتماعية المحافظة) جاذبية كبيرة بالنسبة للدول التي شهدت تحولات عبر الربيع العربي. فهاهنا دولة ذات أغلبية مسلمة أضحت أكثر ديمقراطيةً حتى مع تعزيزها لمكانتها الدينية. وكانت مصر ذات يوم تحت قيادة جمال عبد الناصر محور القومية العربية ودليلها الذي تسترشد به، وأصبحت المملكة العربية السعودية مصدر الحركة الوهابية المحافظة، ورسخت إيران ذاتها بوصفها مركز إحياء الشيعة. وها هي تركيا عززت وجودها بوصفها مثالاً يحتذى هذا العام. وحتى الولايات المتحدة لا تستطيع تفادي مواكبة كبير المتحكمين في السوق، فواشنطن تعمل على نحو وثيق مع أنقرة إعدادًا لمرحلة مستقبل سوريا ما بعد الأسد[2]. وبعد انضمامها إلى أصحاب النداءات التي تطالب بشار الأسد

---

(١) روبرت درايفوس، «الولايات المتّحدة تنتقد بشدة تركيا بشأن إيران»، نيشن، ٢٨مايو/ أيار ٢٠١٠.

(٢) هيلينكوبر، «الولايات المتحدة تقف باستعداد كامل من أجل سوريا بدون...، » نيويورك تايمز، ٢٠ سبتمبر/ أيلول٢٠١١.

http://www.nytimes.com/201120/09//world/middleeast/us-is-quietly-getting-ready-for-asyriawithout-an-assad.html?_r=2.

بالتنحي عن السلطة، فتحت تركيا حدودها لاستقبال اللاجئين والمنشقين السوريين. وسواء بتمويلها المتمردين الليبيين أم بتأمينها دعمًا باكرًا للمتظاهرين المصريين، أم بإبدائها اهتمامًابالصومال واستعدادًا لمساعدته، أم بمحاولتها إعداد سوريا كي ترسو سفينتها رسوًا آمنًا؛ فإن تركيا أضحت قوةً أساسيةً لا غنى عنها.

ومحاولة أنقرة تجاوز الفكر القائم على أساس «وجود رابح يقتضي وجود خاسر»، لم تكن مهمةً سهلةً إبّان السنوات التي كان فيها شعار إدارة بوش: إما معنا أو ضدنا. وإضافة إلى ذلك، نشأت توترات دورية إزاء قرارات الكونغرس في الولايات المتحدة، تلك القرارات المتعلقة بالإدارة الجماعية للأرمن التي لا تزال قضية حساسة في تركيا. ولم تكن واشنطن راضيةً عن بعض أصدقاء تركيا مثل إيران أو حركة حماس. ونتيجةً لذلك، كان على تركيا أن تتصرف ببراعة ودهاء لكي تبقى حليف حلف الناتو الرئيس والمنافس للنفوذ الأميركي في المنطقة.

ربما أصبحت العلاقات التركية بإسرائيل هي العامل المثير الرئيس. ففي حادثة أسطول غزة التي وقعت في شهر مايو/ أيار من عام ٢٠١٠، على سبيل المثال، امتطت قوات مسلحة إسرائيلية بالقوة متن السفينة مافي مرمرة التي كانت تحمل مساعدات إنسانية إلى غزة، وقتلت تسعةً من الركاب الذين كانوا على متنها، وجميعهم من الأتراك. وعلى الرغم من أن تركيا عضو في معاهدة حلف شمال الأطلسي (الناتو)، فإن الولايات المتحدة صبّت جام غضبها على تركيا، لا على إسرائيل. وكان الكونغرس في الولايات المتحدة مجمعًا تقريبًا على دعمه لإسرائيل التي أقرّ وفقًا لما قاله ستيني هوير عضو مجلس النواب الديمقراطي عن ولاية مريلاند: «بحقها في الدفاع عن نفسها»[١]. هذا وهددت إدارة أوباما

(١) ستيفنزبونس، «الحزب الديمقراطي يدافع عن الهجوم الاسرائيلي»، السياسة الخارجية تحت المجهر، ١٠ يونيو/ حزيران ٢٠١٠.

http://www.fpif.org/articles/ democratic_party_defends_israeli_attack.

بفرض حظر على مبيعات الأسلحة لأنقرة ما لم تصبح استرضائيةً وتوفيقيةً أكثر في مواقفها[1]. ونُسي بطريقة ما في خضم كل هذا الخطاب التهيجي أن حصار غزة كان انتهاكًا للقانون الدولي، وأن الركاب الذين كانوا على متن السفينة التركية المستأجرة لم يكونوا مسلحين، وكان بينهم راكب واحد على الأقل أميركي الجنسية من أصول تركية يدعى فرقان دوغان، مات من جراء رصاصة إسرائيلية سددت من مسافة قريبة جدًّا إلى وجهه مباشرةً[2]. ربما لو كان الذي قتل غير مسلم لكان يحتمل أن تكون الاستجابة الدولية مختلفة.

كانت مواقف بعض الدول الأوروبية من التغييرات الحاصلة في تركيا فاترة. وظاهريًّا، تعد تركيا مرشحًا مثاليًّا للحصول على عضوية الاتحاد الأوروبي؛ إذ نجحت في تلبية كثير من مستلزمات ومتطلبات الانضمام إليه. وكانت قد تقدمت في البداية بطلب للانضمام إلى المجموعة الاقتصادية الأوروبية في عام ١٩٥٩، وإلى الاتحاد الأوروبي في عام ١٩٨٧. وتحتل المرتبة السابعة عشرة بين الدول صاحبة أفضل اقتصادات في العالم. وهي تمتلك، بحسب غولدمان ساكس، حظوظًا جيدة للحصول على إحدى المراتب العشرة الأولى على صعيد الدول التي تمتلك أفضل اقتصادات في العالم وذلك في عام ٢٠٥٠ [3]. وتحتل موقعًا استراتيجيًّا مهمًّا بسبب امتلاكها مفترقَ طرقٍ حيويًّا يربط بين أوروبا والشرق الأوسط وآسيا الوسطى. وتعد تركيا جسرًا يربط بين حضارات متعددة، وتتربع على قمة مهمة وخطرة جعلتها في القلب من سياسة الطاقة. وإذا ما اتبع وضع

(١) «تقرير: أوباما وجه إنذارًا لأردوغان»، جيروزاليم بوست، ١٦ أغسطس / آب/ ٢٠١٠.
http://www.jpost.com/International/Article.aspx?id=184891..

(٢) في ذلك الوقت، كان مستلقيًا على ظهره، نصف واعٍ، ويعاني جراحًا ناجمة عن إصابته بأربع طلقات نارية أخرى. وفقًا لرواية بعثة تقصي الحقائق الدولية للتحقيق في انتهاكات القانون الدولي، بما فيها انتهاكات القانون الإسلامي الدولي وقانون حقوق الإنسان الناجمة عن الهجمات الإسرائيلية، التي استهدفت الأسطول الصغير الذي كان يحمل على متنه مساعدات إنسانية، مجلس حقوق الإنسان، الجمعية العامة للأمم المتحدة، ٢٧ سبتمبر/ أيلول/ ٢٠١٠.
http://www2.ohchr.org/english/bodies/hrcouncil/docs/15session/A.HRC.15.21_en.pdf.

(٣) «الاقتصاد التركي والبيئة الاستثمارية»، غولد مانساش، أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٨.
http://www.taik.org/Default.aspx?mID=3&mSID=98&pg ID=50&langid=1.

قوة عظمى القواعد المتبعة من الناحية العقارية (الموقع، الموقع، الموقع)، إذن لكانت تركيا حاليًا جزءًا من الاتحاد الأوروبي بالفعل. لكن تركيا ما زالت تنتظر، وأضحت آفاق انضمامها إلى الاتحاد أضيق في السنوات القليلة الماضية. وتركيا هي البلد الوحيد المحتمل حصوله على عضوية الاتحاد، والمرفق في طلب انضمامه تحذيران: ينبغي أن يكون انضمام تركيا مستندًا إلى «القدرة الاستيعابية» للاتحاد الأوروبي، ويحتمل أن تضطر تركيا في نهاية المطاف للقبول بوضع هو دون مرتبة العضوية الكاملة[1].

وأثيرت معارضة لحصول تركيا على العضوية، إذ أعرب الزعيمان الفرنسي والألماني عن موقفين مناهضين لانضمامها، وهما موقفان يعكسان آراء الجمهور الأوروبي أيضًا، حيث أعلن ٢٦٪ فقط من الجمهور الأوروبي عن تأييده لحصول تركيا على عضوية الاتحاد[2]. وعلى الرغم من أن انضمامها حاليًا لا هو محتمل ولا وشيك الحدوث، فقد توحد اليمين المتطرف حول إجراء استفتاء على نطاق أوروبا، يهدف للحيلولة دون انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي[3]. وقد أفسد الجو العام المعادي للإسلام فرض تركيا للانضمام إلى الاتحاد. وكتب المفوض الأوروبي السابق للعلاقات الخارجية كريس باتين عن هذا الموضوع الآتي: «يقر ساسة الاتحاد الأوروبي المحافظون في اجتماعاتهم الخاصة سرًا أن نفع تركيا أكبر من تهديدها، ولكن قول ذلك على الملأ سوف

---

(١) بوللي فينو تركيا والاتحاد الأوروبي، ١٦٧-٦٨.

(٢) تحسنت المواقف الأوروبية من تركيا تحسنًا طفيفًا فقط منذ عام ٢٠٠٩. ووفقًا لمسح أجراه صندوق مارشال الألماني عام ٢٠١١، شهدت نسبة الأوروبيين الذين رأوا أن الانضمام التركي للاتحاد الأوروبي عمل جيد وصلت إلى ٢٦ ٪ مقارنةً مع ٢٢٪ فقط، وهي النسبة التي سجلت عام ٢٠٠١. انظر صندوق مارشال الألماني، الاتجاهات عبر الأطلسي، النتائج الرئيسية ٢٠١١، ٣٨.
http://www.gmfus.org/ publications_/TT/TT2011_final_web.pdf;
صندوق مارشال الألماني، والاتجاهات عبر الأطلسي، النتائج الرئيسية عام ٢٠٠٥، ٩.
http://trends.gmfus.org/ doc/2005_english_key.pdf.

(٣) «يمين أوروبا المتطرف يتعهد بمساندة إقامة استفتاء بشأن انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي»، دويتشه فيله، ٢٣ أكتوبر/ كانون الأول ٢٠١٠.
http://www.dw-world.de/ dw/article/0,,6142752,00.html.

يكون انتحارًا سياسيًّا»[1]. والقلق ينتاب المحافظين لأنه في حال حصول تركيا على عضوية الاتحاد الأوروبي، سوف يشق مزيد من الأتراك طريقهم إلى أوروبا الغربية، مقتدين بمواطنين جدد من الاتحاد الأوروبي تدفقوا من وسط شرق أوروبا إلى غربها.ويقول عن هذا الموضوع الألماني ثيلو سارازين (مثير المخاوف من الإسلام، وهو عضو في حزب ألمانيا الاجتماعي الديمقراطي): «يغزو الأتراك ألمانيا بالطريقة ذاتها التي غزا فيها الكوسوفيون كوسوفو: وذلك عبر استخدام وسيلة معدلات المواليد العالمية».

وأثار اليمين أيضًا الشبح القديم المتمثل في العثمانية الجديدة، الفكرة القائلة إن تركيا هي حارس متقدم للإسلام الراديكالي؛ فهي ترسل المهاجرين إلى أوروبا الغربية وعينها على مقاطعاتها السابقة في البلقان. وحتى إن برنارد لويس ذهب إلى القول إن الأصولية في تركيا سوف تكتسب قوة إلى حد يجعلها، في غضون عقد من الزمن، شبيهةً بالجمهورية الإسلامية في إيران، حتى وهي تتحرك في الاتجاه المعاكس[2]. ويقول توماس فريدمان محرر في صحيفة النيويورك تايمز: إن العملية جارية بالفعل. ويضيف أنه زار تركيا في شهر يونيو/ حزيران من عام ٢٠١٠، ووجد أن الحكومة الإسلامية في تركيا لا تركز اهتمامها على الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، بل إلى الجامعة العربية. لا، ليس للجامعة العربية، بل إلى جبهة المقاومة المعادية لإسرائيل، والتي تتألف من حركة حماس وحزب الله وإيران[3].

---

(١) كريس باتن: «ليست هذه طريقة لمعاملة الأصدقاء»، الغارديان، ١٧ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٧.
http://www.guardian.co.uk/commentisfree/2007/oct/17/comment.eu.

(٢) بريتستيفنز، «ما يحدث لتركيا؟» وول ستريت جورنال، ١ مايو/ أيار، ٢٠١٠.
http://pewforum.org/Religion-News/What-is-happeningto- Turkey-.aspx.

(٣) توماس فريدمان، «رسالة من اسطنبول»، نيويورك تايمز، ١٥يونيو/ حزيران، ٢٠١٠.
http://www.nytimes.com/201016/06//opinion/16friedman.html;
الناقد المنتمي إلى المحافظين الجدد ليز تشيني مضى بعيدًا جدًّا وصولاً إلى حد تكوين نسخة جديدة من «محور شر» جورج دبليو. بوش بين تركيا وإيران وسوريا، ووصف أعضاءه بأنه ثالوث الظلام، غريغ سرجنت، «ليز تشيني يهاجم أوباما بسبب قوله إن الوفيات التي حدثت على متن الأسطول التركي الصغير كانت مأساوية»، الواشنطن بوست، ٤ يونيو/ حزيران، ٢٠١٠.
http://voices.washingtonpost.com/plum-line/201006//liz_cheney_attacks_obama_for_s.html.

يعد هذا، في كل الأحوال، سوء فهم جوهريًا لحزب العدالة والتنمية ونواياه؛ فللإسلام الراديكالي في العصر الحديث قدر من النفوذ مكافئ لذاك الذي تحظى به الشيوعية التقليدية في الصين. ففي كلتا الحالتين، ما يهم أكثر ليس الإيديولوجية، بل النفوذ السياسي للحزبين الحاكمين[1]. والنمو الاقتصادي والاستقرار السياسي ودبلوماسية القوة الناعمة، كل ذلك يتفوق عادة على الاتساق الإيديولوجي. وتركيا تغدو شيئًا فشيئًا أكثر قومية وأكثر حزمًا. بيد أن المرونة، لا الأصولية، هي السمة التي تميز سياستها الخارجية الجديدة[2]. وحصل تحول تركيا نحو الشرق الأوسط وآسيا الوسطى وشمال إفريقيا تبعًا لمصالحها الاقتصادية. وكان هذا التحول، في جانب منه، ناجمًا أيضًا عن خواء خيار الاتحاد الأوروبي، حيث كانت للتأكيدات الأوروبية على أن الأتراك ليسوا أوروبيين تأثير واضح، وربما متعمد في هذا الموضوع، إذ تراجع الدعم الشعبي العام في تركيا للحصول على عضوية الاتحاد الأوروبي من ٧٠٪ في عام ٢٠٠٢ إلى أقل من ٤٨٪ في الوقت الراهن[3].

وأشار بيل كليتون في عام ١٩٩٩ إلى أنه إذا ما أطلقت أنقرة حركةً إصلاحيةً، فمن الممكن أن يكون القرن الحادي والعشرون «قرن تركيا»[4]. والتفتت تركيا باهتمام، في الواقع، إلى نصيحة كلينتون. وتواجه أوروبا

---

(١) كما كتب ستيفن كينزر، «الصراع الناشئ في تركيا ليس بشأن الدين، بل بشأن أنماط السلطة». انظر «هل تركيا منتصرة؟» مراجعة كتب نيويورك، ١٨ أغسطس/ آب ٢٠١١، ٣٧.

(٢) عمرتاسبينار، «الديغولية التركية؟» زمان اليوم، ١٢ أبريل/ نيسان ٢٠١١.
http://www.brookings.edu/opinions/20100412/_turkey_taspinar.aspx.

(٣) شاهين الباي، «هل الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي هو هدف السياسة الخارجية التركية الرئيس؟» زمان سنداي، ١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٠.
http://www.todayszaman.com/columnist-227250-is-eu-accession-the-main-goal-of-turkishforeignpolicy.html;

(٤) نقلاً عن كمال كيرسكي، سياسة تركيا الخارجية في الأوقات المضطربة، معهد الدراسات الأمنية ٢٠٠٦.

http://www.iss.europa.eu/uploads/ media/cp092.pdf.

والولايات المتحدة وضعًا يتطلب اختيارًا، فإن عملت واشنطن في تركيا بوصفها شريكًا، عندها ستتوفر واشنطن على فرصة أعظم بكثير لحل خلافاتها القائمة مع إيران، وخلافاتها داخل العراق، والنزاعات بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ناهيك عن النزاعات التي تجيش في أماكن أخرى من العالم الإسلامي. وإن قبل الاتحاد الأوروبي تركيا بوصفها عضوًا فيه، فإن فاعليتها الاقتصادية المفعمة بالنشاط وصدقيتها الجديدة والجيدة في العالم الإسلامي، يمكن أن تساعد في إخراج أوروبا من حالة التصلب الراهنة. وفي حال رفض تركيا من قبل إحدى هاتين الجهتين أو منهما معًا تكبرًا واستعلاءً؛ فإن تأثيرها العالمي سوف يستمر بالنمو، غير أن المسلمين في أنحاء العالم سوف يفسرون رفضهما بوصفه مجرد مثال آخر على عدائهما للإسلام والمسلمين.

إن الطريقة التي يشوه بها كارهو الإسلام، على نحو مطّرد حقيقة حزب العدالة والتنمية، وحقيقة المجتمع التركي، موحين بأنهما باتا ليسا قلقين من إرهاب القاعدة، ولاحتى من أسلوب حركة الإخوان المسلمين في العمل السياسي، بل إن مبغضي الإسلام في أوروبا يرهبون جانب تركيا؛ لأنها تمكنت من تحقيق النجاح في التوفيق بين الإسلام وكل من الديمقراطية والنمو الاقتصادي. وتتحدى تركيا بذلك كل الصور النمطية المشوهة عن المسلمين، وتكشف النقاب عن الأجندة المعادية للإسلام على حقيقتها: حملة صليبية جديدة. إذا ما قررت أوروبا وأميركا التعامل مع تركيا الجديدة، فلسوف تكتشفان فيها شريكًا على أهبة الاستعداد للاستجابة والتعاون. وأما الأمر الأكثر أهمية من ذلك، فيتمثّل في أنهما سيتخذان بذلك أولى خطوات وضع حد ورسم نهاية للحملة الصليبية الجديدة.

الفصل السادس

إنهاء الحرب الصليبية الثانية

حتى في وسط الحروب الصليبية، عثر المسلمون والمسيحيون على سبل جعلتهم يفلحون في تدبر أمورهم المشتركة. ففي المقاطعات التي عرفت باسم مقاطعات ما وراء البحار، حيث أنشأ المسيحيون مستوطنات فيما بات يعرف الآن باسم الشرق الأوسط، وتبنى القادمون الجدد عادات السكان المحليين وألفوها، وتعلم الصليبيون لغات المنطقة، وبدؤوا يستحمّون (وهو أمر جديد يعد من البدع غير المألوفة عند الأوروبيين في ذلك الوقت)، وشيدوا أبنيتهم تبعًا للتقاليد المحلية، وتزاوج الأوروبيون والسكان المحليون. كتب عن هذا الموضوع المؤرخ فولتشر أوف تشارتر عام ١٠٢٥ تقريبًا الآتي: «أصبح السكان المحليون والمستعمرون يتكلم بعضهم لغة بعض، وألفت الثقة بين الأعراق البعيدة جدًّا بعضها عن بعض. وأصبح المستعمر الآن كأنه ابن البلد وانخرط المهاجرون مع السكان المحليين»[1]. وفي أندلس القرون الوسطى، عاش اليهود مع المسيحيين في سلام نسبي في ظل الحكم الإسلامي. وانبثقت ثقافة هجينة احتضنت الفكر النهضوي وطورته وعجلت في انبثاق حركة التنوير. وفي مقاطعات منطقة البلقان التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية أيضًا، قدَّرَ الفلاحون والقرويون تسامح العثمانيين حق

---

(١) نقلاً عن كارين آرمسترونغ، الحرب المقدسة، ١٨٧.

قدره. وقال فلاحو مقاطعات البلقان أنفسهم عن هذا الأمر: «عمامة التركي أفضل من تاج البابا المثلث»[1].

ومن المؤكد أن هذه الأزمنة لم تكن أزمنة مثالية، بل كانت ببساطة أزمنة انسجام نسبي في عصور من الحرب والتعصّب. وهذه الأزمنة توحي بأن الصراعات بين الدول والأديان وحتى بين الحضارات ليست أقدارًا محتومةً. وهي تذكرنا بأن الحروب والتعصّب في عصرنا الراهن يمكن التغلب عليها ووضع نهاية لها أيضًا، تمامًا كما انتهت الحروب الدامية التي كانت دائرة فيما مضى بين الفرس والعرب، وبين البروتستانت والكاثوليك، وبين الألمان والفرنسيين، وقد أمست اليوم حبيسة صفحات كتب التاريخ.

إن الترويج للتسامح والتفاهم لن يحول بذاته دون جعل العداء للإسلام أشد عنفًا وأسرع وتيرةً، ولن يحول دون تفجّر حملة صليبية جديدة؛ فالتسامح على الرغم من كل شيء، هو الأساس المنطقي لفقدان الالتزام، ولإبقاء العوالم بعضها منعزلاً عن بعض، وللاتفاق على عدم الاتفاق. التسامح يعني: لكم معتقدكم الإسلامي ولنا معتقدنا اليهو- مسيحي، ولنبقِ الأمور على ما هي عليه. التسامح يعني: أن أوروبا هي أوروبا ذات الطابع الفريد في نوعه، وتركيا هي تركيا بطابعها الفريد، ولا ينبغي أن يلتقي هذان الكيانان مطلقًا في أي اتحاد أو كيان مشترك. والتسامح يعني: سوف نحتل بلدكم ونحاول أن لا نعكر صفو حياتكم أكثر مما ينبغي. إن تسامحًا من هذا القبيل هو بالطبع أفضل من حرب صليبية لا تعرف الرحمة، إلا أنه ليس احترامًا حقيقيًا قائمًا بين متكافئين.

إن جَسْرَ الهوة بين الإسلام والغرب (الهوة التي يسهر على حراستها وتعميقها كل من طالبان وباميلا غيلر) سوف يتطلب التزامًا جريئًا: «نقدًا إضافةً إلى الحوار، وضغطًا إضافة إلى احترام إنساني جوهري، وعُصيًّا مثل العقوبات

---

(١) جون اسبوزيتو، التهديد الإسلامي، ٤١.

إضافة إلى جزرٍ مثل علاقات دبلوماسية واقتصادية أفضل» (ذلك وفقًا لما يراه خوان كول)[1]. ويتطلب الاحترام علاقةً قائمة على العطاء والأخذ، وإرادة للتغيير من كلا الجانبين، وقدرة على ممارسة النقد الذاتي كلما اقتضى الأمر وكان ذلك مناسبًا. وحتى في أسوأ أحوال الحروب الصليبية، اهتدى المسيحيون والمسلمون فيما وراء البحار وفي الأندلس وفي بلاط فريدريك الثاني إلى طريقة أدت إلى بهم إلى تحقيق احترام متبادل.

وأورد هنا ثلاثة أمثلة واقعية ملموسة(ثقافية وسياسية وعسكرية)، لوضع احترام من هذا القبيل موضع التطبيق العملي في عصرنا الراهن.

العودة إلى إبراهيم:

«اليهو- مسيحية» توليفة حديثة نسبيًّا انبثقت من الجدل اللاهوتي الذي كان دائرًا في ألمانيا أواخر القرن التاسع عشر، بوصفه طريقة لدمج الإسهامات اليهودية في الحضارة المسيحية، والتقليل من شأنها عبر إلحاقها بصلة وصل في هذه الحضارة[2]. ثم اكتسب هذا المصطلح لاحقًا معناه الحديث من تقليد مشترك من مصلحين مسيحيين كانوا يأملون في التصدي لأسلوب التعصّب الأعمى المناهض لليهود، الذي كان سائدًا في أميركا في عشرينيات القرن العشرين. وقبل القرن العشرين (وعلى مدى معظم حقبة الجهالة الظلامية تلك أيضًا) لم يعِ اليهود والمسيحيون ولم يدركوا شيئًا من قبيل هذا التقليد المشترك دينيًّا بينهم. يصف الباحث اليهودي آرثر كوهين هذا الواقع فيقول: «نظر اليهود إلى المسيحيين، في أحسن أحوالهم، بوصفهم يحتلون المرتبة الثانية من حيث الأفضلية، وبوصفهم في أسوأ أحوالهم، كفارًا عبدة أوثان يستحقون اللعنات، فيما عَدَّ المسيحيون اليهود في أحسن أحوالهم يستحقون

---

(١) خوان كول، إشراك العالم الإسلامي، ٥.

(٢) آرثركوهين، أسطورة التقليد اليهو-مسيحي (نيويورك: كتبشوكن، ١٩٧١)، xviii.

الاهتداء (التحول عن دينهم إلى المسيحية)، وفي أسوأ أحوالهم، قَتَلَةَ إلهٍ وأعداءً للسيد المسيح»[1].

وبواسطة هذه التوليفة «اليهو- مسيحية» الجديدة، شُجِّع اليهود ودُعُوا إلى الانضمام إلى الثقافة السائدة، وحالهم في ذلك أشبه ما تكون بأحوال الإيطاليين والإيرلنديين الذين أعيد النظر فيهم، في أميركا ما بعد الحرب، بوصفهم ينتمون إلى العرق الأبيض. وأولئك الذين ظلوا مستبعدين من النادي كانوا هدفًا متعمدًا للمبادرة. ومنذ سبعينيات القرن العشرين فصاعدًا، ازداد اعتناق محافظي الولايات المتحدة واليمين المسيحي فيها أكثر فأكثر «لليهو- مسيحية»؛ وذلك لكي يؤكدوا مساندتهم لإسرائيل ضد العرب. وطرح الجنرال وليام بويكين سؤالاً عبر عظته الشهيرة المملة التي ألقاها على جمع محتشد من المصلين في عام ٢٠٠٣ قائلاً لهم: «لماذا يكرهوننا كراهيةً كبيرةً جدًّا؟» ويجيب بنفسه على السؤال الذي طرحه: «أيها السيدات والسادة، الجواب على ذاك السؤال هو: لأننا أمة مسيحية، ولأن أساسنا وجذورنا يهو-مسيحية. هل قلتُ يهو- مسيحية؟ نعم، يهو-مسيحية. يعني هذا أن علينا التزامًا حيال إسرائيل»[2]. (ويمكن العثور على لغة مشابهة في أوروبا لدى الفيلسوف يورغن هابرماس الذي كتب «المدافعون» عن الثقافة القومية، «المعجبون بالموروث الديني اليهو- مسيحي الذي يميزنا عن الغرباء»[3].

لكن كما يشير المؤرخ ريتشارد بوليت، للإسلام والمسيحية أن يفاخرا بالتعايش المتصل بينهما بقدر ما لليهودية والمسيحية أن يباهيا في عيشهما

---

(١) المرجع نفسه، xv–xvi.

(٢) ريتشارد كوبر، «الحرب الطبقية العامة من منظور ديني»، لوس آنجلس تايمز، ١٦ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٣.

http://articles.latimes.com/2003/oct/16/nation/ na-general16.

(٣) يورغن هابرماس، «القيادة والثقافة الرائدة»، نيويورك تايمز، ٢٨ أكتوبر/ تشرين الأول، ٢٠١٠.
http://www.nytimes.com/201029/10//opinion/29Habermas. html?pagewanted=all.

المشترك على الأقل. فالأمور المتشابهة والمشتركات في الكتابين المقدسين لكلا الدينين، والثقافات المشتركة في المقاطعات التي أقيمت فيما وراء البحار إبّان الحملة الصليبية وفي الأندلس، والكفاحات المتماثلة مع الحداثة: هذه الأمور جميعها تشكل تاريخًا مهمًّا يمكن أن يستفاد منه وأن يُبنى عليه. ويفضل بوليت أن ينظر إلى المسيحية والإسلام بوصفهما قريبين مشاكسين يتخاصمان أحيانًا، ويقول: «هما نسختان من النظام الاجتماعي-الديني ذاته»[1].

في عام ١٠٧٦، أي قبل حوالى عشرين عامًا من انطلاق الحملة الصليبية الأولى، أرسل البابا غريغوري السابع رسالة إلى أمير موريتانيا المسلم كتب فيها عن المعتقدات الإبراهيمية المشتركة في الدينين[2]. وغالبًا ما يستهل الحوار بين ديانات التوحيد بابتهال يذكر فيه إبراهيم، وهو النبي المعترف به من قبل الديانات الثلاث والمكرّم في القرآن الكريم. وطبعًا، كان غريغوري أيضًا لاعبًا رئيسًا في التحول عن جهود صنع السلام في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين إلى العسكريتاريا المسيحية التي تمخّضت عنها الحروب الصليبية[3]. وما تزال الحرب المقدسة والسلام المقدس كلاهما خيارين في عصرنا الراهن، ما دامت نسختاهما الدينويتان خيارين نواجههما في الزمن الحالي.

إن تشميل الإسلام في البوتقة الدينية الإبراهيمية الأكبر أمر على جانب من الأهمية لأسباب سياسية، لا لمجرد كونه شرطًا أساسيًّا لازمًا لعقد حوار بين الأديان (الحوار الذي يتعدى، كلاسيكيًّا، حدود الأديان التوحيدية الثلاثة ليشمل

---

(١) ريتشارد بولييت، قضية من أجل الحضارة الإسلامية - المسيحية (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ٢٠٠٤)، ١٥.

(٢) نورمان هاوسلي، تنفيذ الحروب الصليبية (مالدن، ماساتشوستس: بلاكويل، ٢٠٠٦)، ١٥٧.

(٣) توماز ماستناك، السلام الصليبي(بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٢)، ١-١٨. في الواقع، يجادل ماستناك على نحو يثير الفضول في أن صنع السلام وصناعة الحرب كانا بمعنى من المعاني وجهين لعملة واحدة، كما كانت حال مجلس كليرمون عام ١٠٩٥ عندما جعل تصدير الحرب إلى الديار المقدسة جزءًا ضروريًّا لصياغة أمن الوطن واستقراره.

البوذية والهندوسية، وحتى الفلسفة الإنسانية الزمنية)[1]. وغالبًا ما يستحضر بويكين واليمين المسيحي المعتقد «اليهو-مسيحي» لكي يتحدثوا عن الصراعات الدائرة حاليًا في الشرق الأوسط بلغة رؤيوية. وفقط حينما تشغل ديانات التوحيد الثلاث أمكنتها اللائقة الرفيعة بوصفها ديانات متساوية في المكانة وبينها قرابة ونسب، لا حينما يوضع اليهود والمسيحيون في جانب والمسلمون في جانب آخر؛ حينها فقط يمكن أن تحقق دول المنطقة سلامًا عادلاً، وتزيل بذلك أحد العوامل الرئيسة الباعثة على إطلاق حملة صليبية ثانية.

إنهاء الاحتلال:

في أحد تكهناته المعتادة المفرطة في الافتراض، يطرح كبير مثيري المخاوف من الإسلام روبرت سبنسر السؤال الآتي: «هل سيزور السياح في عام ٢٠١٩ مئذنة إيفل في باريس ومسجد وست مينيستر في لندن؟»[2]. إنها لازمة شائعة تعود إلى قرون عديدة خلت، فقد قال مؤرخ القرن الثامن عشر إدوارد جيبون في حديث جانبي مغاير للواقع: لو لم يهزم شارل مارتل المسلمين المشارقة في معركة بواتييه (بلاط الشهداء)؛ لكان طلاب أكسفورد ينعمون النظر في القرآن بدلاً من الإنجيل[3]. إن الجانب الغريب من هذا القلق من التأثير الإسلامي يكمن في أنه عندما كان سبنسر وجيبون كلاهما يدبجان كلماتهما، كانت دولتاهما هما اللتين تحتلان بلادًا إسلامية لا العكس. وفي عام ١٧٧٠، كانت شركة شرق الهند البريطانية تحشد قوتها وتعززها في البنغال، وأضحت لاحقًا أحد أكبر موارد السلب والنهب والغنائم بالنسبة للإمبراطورية

(١) للاطلاع على مزيد من المعلومات عن الحوار الثلاثي بين الديانات الإبراهيمية انظر، على سبيل المثال، حوار الديانات الإبراهيمية الثلاث لإسماعيل راجي الفاروقي (الإسكندرية، VA: المنشورات سعداوي، ١٩٩١).

(٢) روبرت سبنسر، «مقدمة» مايكل رادو، شبح أوروبا (نيو يورك: انكاونتر، ٢٠٠٩)، ٧.

(٣) إدوارد جيبون، نهوض الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، المجلد ٦ (لندن: دجي.إف.دوف، ١٨٢١)، ٤٧٠.

البريطانية. وفي القرن العشرين، كانت الولايات المتحدة تحتل أفغانستان والعراق في آن معًا.

وستالين، الذي لم يعلم سوى أمر أو اثنين عن الأعمال الوحشية الفظيعة، قال ذات يوم: إن موت إنسان واحد يعد مأساةً، أما موت مليون إنسان فهو مسألة إحصائية. وفي حلقات الجدل الدائر حول الإسلاموفوبيا، ينظر إلى الاعتداء على نسخة واحدة للقرآن الكريم بوصفه مأساةً، فيما ينظر إلى الهجوم على ملايين المسلمين بوصفه شأنًا من شؤون السياسة الخارجية. وفي خضم الغثيان الذي يصيبنا من جراء اطلاعنا على أمثلة يومية على توجيه ضربات عنيفة للإسلام، ينبغي أن لا نفقد القدرة على رؤية السياق الأوسع والأشمل. كما إن الغرب برّر الحرب والاحتلال في حقبة الحروب الصليبية؛ متذرعًا بحجة أن الإسلام يهدد باقتحام حصون الغرب واحتلالها وانتهاك حرمات مقدساته. واظبنا نحن على شن هذه الحروب والقيام بتنفيذ الاحتلالات، حتى على الرغم من أنها تشجع حدوث ردود أفعال صممت الحروب التي نخوضها من أجل قمعها ووضع حد لها. ولاحظ الروائي مارتن آميس في واحدة من اللحظات التي خفت فيها حدة عدائه وكراهيته للإسلام: «إن الإرهاب الذي سيأتي من الأعلى سوف يذكي نار كل الذعر والرعب الذي يرد من الأسفل: سوف ينكأ جراحًا لما تلتئم بعد»[1]. وعمليات الإذلال التي نجمت عن الحملة الصليبية الأولى(الاستيلاء على القدس والإسكندرية، وعمليات السلب والنهب التي تعرضتا لهما، والاستيلاء على الموارد وحرمان أصحابها منها إبان الحقبة الاستعمارية، والعلمنة القسرية التي فرضها متغربون مثل أتاتورك) دفنت في أعماق الثقافات والضحايا. وقد كان نهوض القومية العربية وقيام الإسلام السياسي(على الرغم من الخصومة المتبادلة القائمة بينهما) تأكيدًا على فخر الأمة بنفسها في مواجهة ضروب الاستغلال والحيْفِ التاريخية هذه.

---

(١) مارتن إيميس، الطائرة الثانية، ٩.

قال جورج دبليو. بوش في خطاب توجه به إلى أعضاء الكونغرس الأميركي في العشرين من شهر سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠١: «إنهم يكرهون حريتنا، حريتنا في اختيار أدياننا وحريتنا في خطابنا، وحريتنا في التصويت والاجتماع، ويختلفون فيما بينهم، ويعارض بعضهم بعضًا». لا، هم يكرهوننا (أعني يكرهون حكوماتنا) بسبب حرمانها إياهم من هذه الحريات عبر إرسالها قوات مسلحة إلى بلدانهم، ودعمها قادة أنظمة استبدادية، ووقوفها إلى جانب إسرائيل بدلاً من سعيها لتسهيل إرساء سلام في الشرق الأوسط عبر مساعدتها الجانبين. وكما أظهر الربيع العربي، يؤمن الجمهور في العالم الإسلامي بحقوق الاجتماع الحر والخطاب الحر. ولم تحدث أحداث (الربيع العربي) هذه بسبب سياسة الولايات المتحدة، بل حدثت على الرغم منها؛ لأن واشنطن تفضّل الاستقرار على كل شيء آخر، لأن الوضع الراهن مفضل ومؤاتٍ للولايات المتحدة، وقابل للتنبؤ بمآلاته عندها في آن معًا. وهذا ما يفسر ازدواجية المعايير التي ينجم عنها دعم الديمقراطية في العراق، لكن ليس في المملكة العربية السعودية.

وينتاب الواقعيين قلق من أنه في حال انسحاب القوات الأميركية، لن يكون في وسع المركز أن يصمد، فتتعقد الأمور وتتفاقم سوءًا[1]. وكان هذا هو السبب الذي طرحته كل الإمبراطوريات عبر التاريخ تسويغًا للاحتلال. وساقت الولايات المتحدة الأميركية حججًا مماثلة تبريرًا لحضورها العسكري الضخم في الباسيفيك، ولتأسيسها مناطق سيطرة عسكرية في إفريقيا، وللعبها دور الشرطي في «حديقتها الخلفية» في أميركا اللاتينية وفي مناطق الكاريبي. تمثل الفوضى بالتأكيد أحد السيناريوهات المحتملة التي يستتبعها انسحاب القوات الإمبريالية. لقد كان التحول الذي طرأ على السكان والعنف الجماهيري للأسف جزءًا من تاريخ الهند، الذي أعقب انسحاب القوات الاستعمارية منها مباشرة.

---

(١) ريتشارد كوهين، «مصر ديمقراطية أم دولة الكراهية»، الواشنطن بوست، ١ فبراير/ شباط، ٢٠١١.
http://www.washingtonpost.com/wp-dyncontent/article/201131/01 // AR2011013104014.html. /

لكن لم تنشأ فوضى، على سبيل المثال، عندما انسحب الاتحاد السوفياتي من جمهوريات البلطيق. ووضع حد للاحتلال هو شرط ضروري ولازم لتحقيق الديمقراطية، والترويج لها كان السبب الرسمي لممارسات الولايات المتحدة المتعلقة ببناء الأمة.

وينسحب الأمر ذاته على حليفة الولايات المتحدة الرئيسة في الشرق الأوسط، إسرائيل، في علاقاتها مع الفلسطينيين؛ إذ كانت سياسات الاستيطان الإسرائيلية دومًا (ضمها باستمرار أراضي فلسطينية، والاحتلال العسكري لبلدات ومدن فلسطينية) إحدى العقبات الأساسية التي حالت دون إحلال سلام في الشرق الأوسط، والتي تحول دون تحقيق ديمقراطية نزيهة وقائمة على العدل في إسرائيل. وإن قيام دولة فلسطينية قابلة للحياة والاستمرار تعيش مع إسرائيل جنبًا إلى جنب بسلام شرط لازم وضروري لإنهاء الحملة الصليبية الثانية؛ لأن النزاع الإسرائيلي الفلسطيني هو أحد أكبر قضايا الحرب الباردة التي لم تَحْظَ بإيجاد حل لها.

وليس في وسع الولايات المتحدة منفردةً الضغط على زر استئناف علاقاتها مع العالم الإسلامي. وعلى إسرائيل أيضًا أن تكون جزءًا من عملية إعادة الانخراط هذه. ولا يمكن مطلقًا أن يقوم سلام عبر الاحتلال.

بيتر بينارت، ليبرالي الجهاد الذي بث روح ترومان في دعم الحرب على العراق، شعر في نهاية المطاف بالأسف والندم حيال قراره ذاك؛ فبعد قراره الالتحاق بفريق إدارة بوش ومشاركتها في نجاحاتها ومشكلاتها، اكتشف بينارت أن لدى آرثر شلسنجر وفرانسيس فوكوياما، وحتى جين كير كباتريك، جميعهم شكوكًا حيال استراتيجية الولايات المتحدة المتعلقة بالاحتلال. إعادة تفكير استتبعت تغيرًا في الرأي والموقف.

ألف بينارت كتابًا عنوانه متلازمة إيكاريوس ضمنه شرحًا لرأيه ودفاعًا عنه عبر الكتاب كله، وجاء فيه: إن محاولة استدامة اللحظة أحادية القطبية عبر نزعة

تفرد عدوانية هي جوهر العجرفة والغطرسة والغرور الشديد. ويقول الكاتب: «تبدأ السياسة الخارجية الحكيمة بالاعتراف الآتي: بما أن قوة أميركا محدودة؛ إذن يجب علينا أن نحدد أعداءنا»[1].

إن سياستنا التي قامت على الاحتلال مكلفة إلى حد يثير الشفقة، ثلاثة تريليونات دولار أميركي في العراق وحدها، وميزانية أمن قومي سنوي تبلغ قيمتها ٢,١ تريليون دولار أميركي لدعم البنية التحتية للاحتلال، وثلاثة مليارات دولار أميركي تقريبًا سنويًّا قيمة مساعدات عسكرية لإسرائيل، وهي تساعد ذلك البلد على الاستمرار في انتهاج سياساته الاستيطانية العدوانية، وهي تفعل ذلك، بخاصة، في ظل أزمة اقتصادية[2]. وثمة أمر آخر له القدر ذاته من الأهمية يتمثل في أن هذه السياسات تطيل أمد بقاء الأعداء ذاتهم الذين يفترض أنها تجهز عليهم. إن وضع حد لإدمان الاحتلال هذا هو تحول عسكري مطلوب وضروري لوضع حد للحملة الصليبية الثانية.

استمالة تركيا:

على مدى صيف عام ٢٠١٠، أراد رئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون أن يكون شديد الوضوح. وأعلن أن هجوم إسرائيل على الأسطول التركي البحري في مايو/ أيار الماضي «غير مقبول». وأضاف قائلاً إن زملاءه الأوروبيين الذين عارضوا حصول تركيا على عضوية الاتحاد الأوروبي كانوا ببساطة على خطأ، كما كان الرئيس الفرنسي شارل ديغول مخطئًا حين عارض حصول بريطانيا على

---

(١) بيتر بينارت، متلازمة إيكاريوس (نيويورك: هاربر كولينز، ٢٠١٠)، ٩.

(٢) جوزيف ستيغليتز وليندا بيلمس، حرب تريليونات الدولارات الثلاثة (يورك: نورتن، ٢٠٠٨)؛ كريستوفر هيلمان، «٢,١ تريليون دولار للأمن القومي»، توم ديسباتش، ١ مارس/ آذار.
- http://www. tomdispatch.com/archive/175361/;
والتر بينكوس، «ينبغي على الولايات المتحدة أن تعيد تقويم مساعدتها لإسرائيل»، الواشنطن بوست، ١٧ أكتوبر ٢٠١١.
http://www.washingtonpost.com/world/national-security/united-statesneedsto-reevaluate-its-assistance-to-israel/201115/10//gIQAK5XksL_ story.html.

عضوية الاتحاد في ستينيات القرن العشرين. وقال كاميرون: «نحن نعلم ماذا يعني أن يوصد الباب في وجه انضمام تركيا إلى الاتحاد»[١].

أما ما لم يقله كاميرون، فهو أن النادي «الأوروبي» كان يعاني أوضاعًا صعبة؛ إذ كانت اليونان وإيرلندا تعانيان حالة انهيار «اقتصادي». كما شاهدت إسبانيا أيضًا اقتصادها الذي كان في حالة انتعاش وقد أصابه الشلل. كما خشيت بقية أوروبا أن تغرق في مستنقع عملتها الواحدة، مثل مجموعة كاملة من متسلقي جبال مرتبط بعض أفرادها ببعض، تهاوت مجتمعةً من منحدر صخري شاهق بسبب سقوط اثنين من المتسلقين[٢]. وفي شهر ديسمبر/ كانون الأول من عام ٢٠١٠، أصدر وزراء خارجية كل من بريطانيا وفنلندا والسويد وإيطاليا نسختهم من رسالة «الزميل العزيز»، يطالبون فيها بإعطاء تركيا بطاقة عضوية الاتحاد الأوروبي، ويدفعون بإلحاح في هذا الاتجاه. وكانت رسالتهم مذكرة تعرب عن حاجة شديدة ذكروا فيها: «يمكن أن يساعد الأعضاء الجدد أوروبا في العودة إلى حيويتها الاقتصادية، والاضطلاع بمسؤولياتها، والإفادة من وزنها الملائم على صعيد الشؤون العالمية»[٣].

وبسبب المعارضة الفرنسية والألمانية وأَسْطَرَةِ المخاوف من الإسلام، تبقى تركيا في منتصف طريق رحلة الانضمام إلى البيت الأوروبي. وعلى الرغم مما تنبأ به توماس فريدمان من أن الحزب الحاكم سينعطف بتركيا انعطافة خطيرة، لم يفعل حزب العدالة والتنمية ذلك، بل وسع، خلافًا لذلك، دائرة التغييرات السياسية والاقتصادية التي استهلها، وكرّسها في ثمانينيات

---

(١) ستيفن كاسل، «كاميرون يساند محاولة تركيا الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي»، نيويورك تايمز، 27 يوليو/ تموز ٢٠١٠.

http://www.nytimes.com/2010/07/28/world/europe/28iht-britain.html_?r=1.

(٢) بول كروغمان، «انحدار اليورو»، مجلة نيويورك تايمز، ١٦يناير/ كانون الثّاني، ٢٠١١.

(٣) كارل بيلت وفرانكو فراتيني، وليام هيغ، وألكساندر ستوب، «أوروبا، نظرة نحو الخارج من جديد» نيويورك تايمز، ديسمبر/ كانون الثاني، ٢٠١٠.

http://www.nytimes.com/201011/12//opinion/11iht-edbildt11.html.

القرن العشرين تورغوت أوزال الذي كان رئيسًا للوزراء في تلك الحقبة. ومن المحتمل أن يكون القادة الفرنسيون والألمان مفتقرين إلى الحماس حيال انضمام تركيا إلى النادي الأوروبي، إلا أن حزب العدالة والتنمية يمضي قدمًا في تنفيذ أجندته الإصلاحية، ويتطلع الحزب إلى أوروبا دون أن يعوق مسيرته. وأجري استفتاء عام في شهر سبتمبر/ أيلول من عام ٢٠١٠ فحظي بموافقة شعبية بهامش كبير، وقد أجاز هذا الاستفتاء تشريعًا حول الحكومة المدنية مزيدًا من الصلاحيات التي تمكنها من إبقاء الجيش والقوات المسلحة خارج المعترك السياسي، كما تمكنها من انتهاج سياسات تعزز المساواة في الحقوق بين الجنسين، ومن توسيع دائرة حقوق المساومات الجماعية (حقوق النقابات التفاوضية)، ومن إحداث تغييرات أخرى ضرورية لتمهيد الطريق للحصول على عضوية الاتحاد الأوروبي[1].

وما تزال أمام تركيا طريق طويلة يتعين عليها قطعها، ودونها عقبات وعوائق، بخاصة في ما يتعلق بحقوق الأقليات من كرد وخلافهم. ولكن كما أظهرت مفاوضات الانضمام إلى الاتحاد مع رومانيا وبلغاريا، يمكن أن تسرع الجزرة وتيرة تحقيق إصلاحات ليبرالية أكثر من أي شيء آخر، لكن ينبغي أن تكون الجزرة حقيقية، لا مجرد وهم وسراب.

إن التعاطي الجدي مع تركيا جزء من التعاطي الجاد مع التعددية الثقافية. لقد أبطأت الدول الأوروبية وتأخرت في الاعتراف بأنها لم تعد صاحبة ثقافات متكاملة موحدة، حيث كانت الحركة الارتجاعية المناهضة للمهاجرين فيها، وبخاصة للمسلمين، شديدة. لكن لم يَعِدْ أحدٌ بأن ينجز التنوع بتشابك الأيدي، وعقد حلقات الدبكة والغناء المجلجلة من أجل إشاعة أجواء الطمأنينة بين

(١) أسلي بالي، «فض الاستغناء الذي أدى إلى تغليف المحكمة في تركيا»، تقرير الشرق الأوسط، ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٠.
http://www.merip.org/mero/ mero110510.html.

الناس. ففي الماضي حققت الدول الأوروبية قدرًا من التجانس عبر الحرب، وأعمال الإبادة والتجانس القسري بين أفراد الجيش وفي المدرسة وفي الكنيسة. ولم تعد هذه الخيارات لحسن الحظ قائمة، غير أن اليمين المتطرّف يحنّ على كل حال إلى الأيام «السالفة الطيبة».

في أوروبا التي تتراجع فيها معدلات الولادة وتعاني اقتصاداتٍ راكدةً، تعد التعددية الثقافية ذخرًا أساسيًا لا غنى عنه، سواء أتضمّنت هذه التعددية دينامية المهاجرين أم دينامية تركيا. ولا تقتضي هذه الرؤية مستقبلاً يقوم على أساس الإدماج والاستيعاب، بحيث يتخلى المهاجرون وتركيا عن هوياتهم ويصبحون مسيحيين، ويذوبون في عالم أوروبي تَفِهٍ.

لقد كافحت بلدان أوروبا من أجل الحفاظ على ثقافاتها القومية ضمن الاتحاد الأوروبي، وبذل الكتالانيون والويلزيون والبريتانيون جهودًا شاقة من أجل الحفاظ على ثقافاتهم ضمن هذه الدول القومية. وبالطريقة ذاتها، يأتي المهاجرون وتركيا بأشياء إلى المائدة الأوروبية، أشياء تجعلها أكثر إمتاعًا وتألقًا وتجعل أوروبا فضاءً ثريًا ومزدهرًا.

بوصفه أول رئيس ألماني يخاطب البرلمان التركي، أصاب كريستان وولف عين الحقيقة حين قال في خطابه الذي ألقاه في عام ٢٠١٠: «كانت ألمانيا بسبب المهاجرين أكثر تنوعًا وانفتاحًا على العالم واتصالاً به»[1]. ويمكن أن تجني أوروبا الثمار ذاتها بضم تركيا إلى الاتحاد الأوروبي.

الحرب الصليبية الثانية: إلى أين؟

اتخذت شخصيات أميركية بارزة عديدة مواقف مناهضة لكراهية الإسلام في عام ٢٠١٠، حيث اتخذ عمدة نيويورك مايكل بلومبرغ موقفًا مساندًا لمشروع

(١) نقلاً عن الرسالة الإخبارية لمبادرة الاستقرار الأوروبي، ٢١ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٠.
http://www.esiweb.org/index.php?lang=en&id=67&newsletter_ID=48..

البارك ٥١، كان يحتمل أن يؤدي إلى خسارته وظيفته. ورد فريد زكريا محرر الشؤون الدولية في النيوزويك جائزته التي حصل عليها من هيئة مناهضة القذف والتشهير بسبب معارضتها لإنشاء المركز الثقافي[١].

ولكن أحد أقوى بيانات الشجب والاستنكار في الولايات المتحدة جاء من مصدر بعيد الاحتمال: منسقة الأخبار التلفزيونية كاتي كوريك حيث قالت: «كان التعصّب الأعمى الصارخ المناهض للمسلمين أحد أكثر الموضوعات الإخبارية البارزة إثارةً للقلق هذه السنة». جاء ذلك عبر البرنامج الذي استعرضت فيه بإيجاز أهم أحداث عام ٢٠١٠. وكانت توصيتها لمعالجة المشكلة مدمرة في الواقع: نسخة إسلامية من برنامج كوسبي (برنامج استعراضي تلفزيوني)، وتشرح كاتي ذلك بقولها: «لقد أسهم هذا البرنامج كثيرًا في تغيير المواقف من الأفارقة الأميركيين في هذا البلد، وأعتقد أن الناس يخافون أحيانًا من ما لا يفهمون»[٢].

لقد كان بالتأكيد اقتراحًا ماتعًا، إذا ما أخذنا في الحسبان بحث الصناعة التلفزيونية المتواصل عن أسواق جديدة لائقة وملائمة، والثروة النسبية للجالية المسلمة في الولايات المتحدة؛ فإننا نعتقد أن نسخة إسلامية من برنامج كوسبي التلفزيوني هي في طور الإعداد والتخطيط.

إلا أن برنامج كوسبي الذي عرض أول مرة في عام ١٩٨٤ واستمر عرضه حتى عام ١٩٩٢، لم يشكل نقطة انطلاق حملة التخفيف من حدة العنصرية في الولايات المتحدة. فما جعل ذلك ممكنًا الجهود التي بذلتها حركات سابقة

(١) فريد زكريا، «رسالة فريد زكريا إلى رابطة مكافحة التشهير»، نيوزويك، ٦أغسطس/ آب، ٢٠١٠.
http://www.newsweek.com/201006/08//fareed-zakaria-s-lettertothe-adl.html.

(٢) كاتي كوريك تلقي خطبة مناهضة للتعصب المعادي للإسلام، وتقترح تقديم «عرض كوسبي إسلامي»، هفينغتون بوست، ١ يناير/ كانون الثاني ٢٠١١.
http://www.huffingtonpost.com/201101/01//katie-couric-muslim-bigotry-cosbyshow_n_803208.html.

عديدة تعود تاريخًا إلى زمن الحركات التي كانت تطالب بإلغاء استرقاق الزنوج ونهضة هارلم، والحركات المناهضة لـ جيم كراو، وأخيرًا حركة الحقوق المدنية في ستينيات القرن العشرين؛ إذ تحدت هذه الحركات الاجتماعية التمييز «الدستوري» الذي كان يستهدف الأميركيين الأفارقة. لقد حطّمت هذه الحركات الحواجز التي كانت تبقي الأميركيين الأفارقة حبيسين ضمن أطر الراديو والسينما والتلفزيون، وغيرت التركيبات البنيوية، ثم تغيرت المواقف الأميركية شيئًا فشيئًا لتواكبها.

في وسع الأميركيين بالتأكيد الإفادة من مزيد من المعلومات عن الإسلام، إلا أن المعلومات الإضافية في عالمنا المثقل بالمعلومات لن تزيل العداء للإسلام. وعندما انسحبت جحافل الصليبيين الأصليين من العالم الإسلامي، كانت قد تزوّدت بمزيد من المعلومات عن الإسلام[1]. غير أن المعلومات الإضافية لم تحمل الأوروبيين على إعادة النظر في حربهم المقدسة؛ وذلك لأن الأوروبيين واظبوا على النظر إلى الإسلام عبر عدسة مشوّهة، وعلى التصرف تبعًا للرؤية التي تتيحها تلك العدسة. إن تلك التشوّهات (التي توحي بأن العنف متأصل في الإسلام، وذات المعايير المزدوجة، والإمبريالية) تتواصل اليوم. ولن يغير، بالضرورة، برنامج تلفزيوني عن «مسلمين طيبين» مواقف المشاهدين من «المسلمين السيئين»، ولسوف يعزز برنامج من هذا القبيل الفكرة القائلة: إن الغرب هو الذي يقرر نوع من هو على صواب من المسلمين ومن ليس كذلك.

وعلى الرغم من كل شيء، لا يتعلق الأمر في واقع الحال بالمسلمين، بل الأمر يتعلق بنا نحن، نحن الغرب؛ الغرب غير المسلم. فما زال علينا أن نتقبل الحقائق المرة البغيضة وأن نتعامل معها، وتتمثّل هذه الحقائق في أن

(١) جون إسبوزيتو، التهديد الإسلامي، ٤٣.

الحروب الصليبية ما زالت قابعةً في أعماق قلوبنا، وفي أن مقولات الحرب الباردة ما برحت تؤطر تفكيرنا، وفي رغبتنا في التدخل في أحداث العالم الإسلامي والتحكم فيها. وعلينا أن نلقي السَّمْعَ للإسلام لا للدين فقط، بل للمقاومة أيضًا[1]؛ فالدافع المحرك للإسلام السياسي هو العدالة. والإسلامويون يشجبون الفساد ويستنكرون مخالفة القوانين وانعدام مظاهر العدالة الاقتصادية والاجتماعية التي يرونها في مجتمعاتهم. إلى ذلك، دأب الإسلامويون على الاحتجاج على السياسات الغربية التي تروج لها حكومات أو مؤسسات دولية، تلك السياسات التي أدامت ضروب الظلم والجور هذه.

ويجب علينا أن نميّز بين هذه المقاومة وبين أفاعيل القاعدة ومن لفَّ لفَّها. وعبر معالجة أوجه الظلم والجور الأساسية، نستطيع أن نعزل القاعدة التي ما انفكت تضمحل شيئًا فشيئًا. وبوضع حد لحروب الاحتلال وعبر إبداء الاهتمام بتركيا، ومن خلال توسيع آفاق فِكَرِنا المتعلقة بالثقافة اليهو- مسيحية النزاعة إلى التعالي عمّن تحسبهم دونها منزلةً، نستطيع أن نغيّر البنى التي تديم الظلم وتستديمه. وفي النتيجة، سوف تتلاشى مناهضة الإسلام (والعداء للغرب) على حد سواء. وحالها حال جيش نفد عتاده وعدته وتاه وضلَّ طريقَهُ سوف تتوقف الحملة الصليبية الثانية، ولسوف تكون الأخيرة في نوعها.

(١) آلأستر كروك، مقاومة (لندن: بلوتو، ٢٠٠٩)، ٢٦٩.

المخطط الزمني

٥٧٠ - ولادة محمد.

٧٣٢ - معركة بواتييه (بلاط الشهداء).

٧٧٨- معركة رونسيسا فاييه.

٨٥١-٨٥٩- شهداء قرطبة.

١٠٨٥- استيلاء الأتراك السلاجقة على القدس.

١٠٩٥-البابا أوربان الثاني يدعو إلى الحملة الصليبية الأولى.

١٠٩٨- الصليبيون ينهبون مدينة أنطاكية.

١٠٩٩- الصليبيون ينهبون القدس.

١١٤٧- بداية الحرب الصليبية الثانية.

١١٥٦-رينو دو شاتيون يذبح المسيحيين الأرثوذوكس في قبرص.

١١٨٧- صلاح الدين يستعيد القدس بدون مجازر، بداية الحملة الصليبية الثالثة.

١١٩١-ريتشارد قلب الأسد يذبح المسيحيين الأرثوذوكس في قبرص.

١٢٠٢- بداية الحرب الصليبية الرابعة، نهب مدينة زارا الكاثوليكية.

١٢٠٣-نهب القسطنطينية.

١٢٠٩- الحملة الصليبية ضد الزنادقة البيجان.

١٢١٧- بداية الحملة الصليبية الخامسة.

١٢٢٨- بداية الحملة الصليبية السادسة.

١٢٤٨- بداية الحملة الصليبية السابعة.

١٢٧٠- بداية الحملة الصليبية الثامنة.

١٢٧١- بداية الحملة الصليبية التاسعة.

١٢٧٤- مجلس ليون.

١٢٩١- المماليك ينهبون عكا.

١٣٦٥- تدمير الإسكندرية.

١٤٥٣- استيلاء العثمانيين على القسطنطينية.

١٤٩٢- الجيوش المسيحية تغزو غرناطة، المملكة الإسلامية الأخيرة في إسبانيا: طرد اليهود من إسبانيا.

١٥٢٩-١٦٨٣- الحصار العثماني لمدينة فيينا.

١٥٧١- معركة ليبانتو البحرية.

١٧٧٠ - شركة شرق الهند البريطانية تغزو قوتها في البنغال.

١٧٩٨- غزو نابليون لمصر.

١٨٠١- الحروب البربرية.

١٨٠٤- سبتمبر/ أيلول، قائد القوات البحرية الأميركية إدوارد بريبل يستخدم تكتيك التفجير الانتحاري.

١٨٣٠- تدفق المهاجرين الكاثوليكيين إلى أميركا يثير صعود حركة الهجرة البروتستانتية الأهلانية.

١٩٢٢- المستشرق الفرنسي اتيان دينه أطلق مصطلح «رهاب الإسلام».

١٩٢٤- أتاتورك ينهي رسميًا الخلافة الإسلامية.

١٩٢٨- حسن البنا أسس حركة الإخوان المسلمين.

١٩٤١-الأميركيون من أصول يابانية يزج بهم في معسكرات الاعتقال في أعقاب بيرل هاربور.

١٩٤٦- خطاب «الستار الحديدي» لونستون تشرشل؛ بدء الحرب الباردة.

١٩٤٨- قيام إسرائيل.

١٩٥١- وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية تبتدع حملة صليبية من أجل الحرية.

١٩٥٢- تركيا في حلف شمال الأطلسي.

١٩٥٤- مقال برنارد لويس «الشيوعية والإسلام».

١٩٥٧- تأسيس حركة فتح من قبل القوميين الفلسطينيين.

١٩٦٠- تأسيس منظمة أوبك.

١٩٦٤- سيد قطب يتمم أحداثًا مهمة.

١٩٧٣- حرب يوم الغفران.

١٩٧٩- الغزو السوفياتي لأفغانستان.

١٩٧٩- إسقاط حكم الشاه في إيران.

١٩٨٥- تأسيس حزب الله في لبنان.

١٩٨٣ - تفجير بيروت.

١٩٨٥- اغتيال أليكس عودة.

١٩٨٧- تأسيس حماس.

١٩٨٨- تأسيس القاعدة في أفغانستان.

١٩٨٨- سلمان رشدي ينشر رواية آيات شيطانية، الرواية التي ذمت جوانب من الإسلام.

١٩٨٩- الانتخابات شبه الحرة في الأردن، سقوط جدار برلين، ميدان تيانانمين.

١٩٩٠- غزو العراق للكويت.

١٩٩٠- ماليز روفن يبتدع مصطلح «الفاشية الإسلامية».

١٩٩١-يناير/ كانون الثاني، حرب الخليج الأولى.

١٩٩١ - ديسمبر/ كانون الأول، انهيار اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية.

١٩٩١- ديسمبر/ كانون الأول، اندلاع الحرب الجزائرية الأهلية.

١٩٩٢- حزب الله وللمرة الأولى يسمي مرشحين لشغل مناصب سياسية.

١٩٩٣- في الصيف صمويل هنتنغتون قام بنشر مقال عن«صراع الحضارات».

١٩٩٣- فبراير/ شباط، تفجير مركز التجارة العالمي.

١٩٩٣-أكتوبر/ تشرين الأول، معركة مقاديشو.

١٩٩٤- مجزرة بلدة الخليل التي قام بها باروخ غولدشتاين.

١٩٩٥- أغسطس/ آب، قصف حلف الناتو للبوسنة والهرسك.

١٩٩٧- شباط/ فبراير، (انقلاب نظيف) في تركيا يطيح برئيس الوزراء الإسلامي.

١٩٩٨- أغسطس/ آب، تفجيرات السفارات في كينيا وتنزانيا.

١٩٩٩- آذار/ مارس، قصف حلف الناتو ليوغوسلافيا.

٢٠٠٠-أكتوبر/ تشرين الأول، مهاجمة المدمرة كول التابعة لسلاح البحرية الأميركية.

٢٠٠٠- آذار/ مارس، البابا يوحنا بولس الثاني يعتذر عن الحروب الصليبية.

٢٠٠١-أكتوبر/ تشرين الأول، الولايات المتحدة تبدأ عملياتها العسكرية في أفغانستان.

٢٠٠١- سبتمبر/أيلول، ١١ / ٩.

٢٠٠١- سبتمبر/أيلول، بوش يستخدم كلمة «الصليبية» في خطاب عن الحرب الجديدة ضد الإرهاب.

٢٠٠١- سبتمبر/أيلول، أمام المسجد، بوش يدين الهجمات على مسلمين أميركيين.

٢٠٠١- أكتوبر/تشرين الأول، إقرار قانون باتريوت في الولايات المتحدة الأميركية.

٢٠٠٢- أوبري شرينك أسس مشروع ديفيد.

٢٠٠٢-فبراير/شباط، بوش استخدم كلمة «الصليبية» مرة أخرى في خطابه لقوات الولايات المتحدة في ألاسكا.

٢٠٠٣- فبراير/شباط، تظاهرات عمت جميع أنحاء العالم مناهضة لغزو وشيك للعراق.

٢٠٠٣- مارس/آذار، غزو الولايات المتحدة للعراق.

٢٠٠٣- يونيو/حزيران، عظة الزمالة المسيحية للموظفين «محاربي ملكوت الله».

٢٠٠٣-٢٣ سبتمبر/أيلول بدء العمل بمراقبة السجلات الخاصة «للجهاد».

٢٠٠٤- نوفمبر/تشرين الثاني، جريمة قتل المنتج السينمائي الهولندي غوخ ثيوفان من قبل مسلم مغربي هولندي.

٢٠٠٥- سبتمبر/أيلول، الصحيفة الدنماركية جيللاند بوستن نشرت صور كرتونية مسيئة للإسلام.

٢٠٠٥- أكتوبر/تشرين الأول، الرئيس الأميركي جورج بوش قدم مصطلح «الفاشية الإسلامية» في خطابه.

٢٠٠٦- يناير/ كانون الثاني، فوز حماس في انتخابات غزة.

٢٠٠٦-سبتمبر/ أيلول، خطاب البابا بنديكت السادس عشر في جامعة ريجنسبورج.

٢٠٠٦- ديسمبر/ كانون الأول، الغزو الإثيوبي المدعوم من الولايات المتحدة للصومال.

٢٠٠٨- نوفمبر/ تشرين الثاني، انتخاب أوباما الرئيس الـ٤٤ للولايات المتحدة.

٢٠٠٩- صعود حركة حزب الشاي في أميركا.

٢٠٠٩- يونيو/ حزيران، خطاب أوباما في القاهرة.

٢٠٠٩- نوفمبر/ تشرين الثاني، إطلاق النار في فورت هود.

٢٠٠٩- نوفمبر/ تشرين الثاني، حظر بناء المآذن في سويسرا.

٢٠١٠- مايو/ أيار، الخوف من تفجير تايم سكوير.

٢٠١٠- مايو/ أيار، حادث أسطول غزة.

٢٠١٠- يونيو/ حزيران، أغسطس/ آب، احتجاجات على بناء البارك ٥١.

٢٠١٠- يوليو/ تموز، إحراق نسخة من القرآن الكريم يثير الجدل.

٢٠١٠- أغسطس/ آب، الإذن بنشر كتاب تيلو سارازين: ألمانيا تلغي ذاتها.

٢٠١٠- أغسطس/ آب، بناء المسجد اقتراح تينسي.

٢٠١٠- أغسطس/ آب، بلومبرغ، أولبرمان، كولبير، ستيوارت كلهم يدينون الهستيريا المعادية للإسلام.

٢٠١٠- نوفمبر/ تشرين الثاني أظهر تقرير معهد البحوث العامة أن حوالى ٤٥٪ من الأميركيين ينظرون إلى الإسلام على أنه يتعارض مع قيمهم.

٢٠١٠- نوفمبر/ تشرين الثاني، أوكلاهوما تقر تشريعًا يقضي بإجراء تعديل على قانون حظر الشريعة تحت عنوان: «حافظوا على ولايتنا».

٢٠١٠- ديسمبر/ كانون الأول، بدء الربيع العربي.

٢٠١١- ديسمبر/ كانون الثاني، جاير لوغنر يقتل خمسة أشخاص وقام بعملية اغتيال عضو الكونغرس غابرييل جيفورد.

٢٠١١- مارس/ آذار، جلسات الاستماع في الكونغرس عن التطرّف الإسلامي.

٢٠١١- مارس/ آذار، هيرمان كين لن يسمح بوجود مسلمين في حكومته.

٢٠١١- أبريل/ نيسان، الحظر الفرنسي لارتداء البرقع يدخل حيّز التنفيذ.

٢٠١١- أبريل/ نيسان، أوباما يأذن بإظهار شهادة الميلاد.

٢٠١١- أبريل/ نيسان، مقتل أسامة بن لادن.

٢٠١١- يونيو/ حزيران، تقرير مجلس العلاقات الإسلامية الأميركية «الكره نفسه والهدف الجديد».

٢٠١١-يوليو/ تموز، إطلاق النار في النرويج.

٢٠١١- أغسطس/ آب، تقرير مركز التقدم الأميركي «مؤسسة الخوف».

٢٠١١- سبتمبر/ أيلول، افتتاح مركز البارك ٥١.

شكر وتقدير

مد لي أشخاص كثيرون يد العون على مدى زمن عملي في هذا البحث. توم إنغلهارت، صاحب الرؤية المتبصرة، ألهمني العزيمة على مواصلة بحثي الأولي في الإسلاموفوبيا، ونشر مقالاتي الأولى عبر موقعه العظيم توم ديسبتاتش على الشبكة العنكبوتية.

كرّس عدد من القراء وقتهم الثمين لمناقشة مسودات مخطوط هذا الكتاب: فيليس بنيس، وموغيس بت، وجوليانا شاميديس، وآرون كوندناني. وساعدتني في جمع مواد هذا الكتاب وتعقب مصادره وقراءة التقارير الخاصة به وتمحيصها ثلة من المتدربين اللامعين، هم: ريبيكا آدزام، وفاطمة الزهيري، وسامر عرابي، وديريك بولتون، وبيتر سيرتو، ونور إقبال، وديريك ليندس.

وأنوّه بزملائي في مركز السياسة الخارجية تحت المجهر، وفي معهد الدراسات السياسية، الذين زودوني بتغذية راجعة وساندوني في كتاباتي وفي بحثي.

ووجّه هذا البحث ببراعة مذ كان فكرة إلى أن غدا في طور التنفيذ محرر كتبي في أضواء المدينة غريغ روجيرو، فله مني الشكر والثناء، كما أعرب عن شكري وتقديري الكبيرين للذين جعلوا هذا الكتاب يبصر النور.

وإني مدين بعمق الامتنان والعرفان لـ كارين لي التي لم تكتفِ بقراءة هذه الصفحات، بل حفزتني بجعل كل نقطة من هذا الكتاب أكثر وضوحًا وأقدر على الإقناع وأجدى نفعًا. لقد أسهمت كارين أكثر من أي شخص آخر في مد هذا البحث بأسباب العناية والرعاية والحياة. وفي الختام، إن عانى هذا الكتاب أي وجه من أوجه القصور؛ فهو ناجم عن تجاهلي مشورة كل هؤلاء الذين نوّهت بهم.

ببليوغرافيا

Abbas, Tahir, ed. *Muslim Britain*. London: Zed, 2006.

Abdo, Geneive. *Mecca and Main Street: Muslim Life in America after 911/*. Oxford: Oxford University Press, 2007.

Ackerman, Spencer. «FBI Teaches Agents: 'Mainstream' Muslims Are 'Violent, Radical.'» *Wired*, September 14, 2011.

Ackerman, Spencer. «Unprecedented' Drone Assault.» *Wired*, December 17, 22010.

Ahmed, Akbar S. «Bridgebuilder to the Muslim World.» *beliefnet*, 2005. Ahmed, Akbar S. *Journey into America*. Washington, DC: Brookings Institution, 2010.

Akbarzadeh, Shahram, and Fethi Mansouri. *Islam and Political Violence: Muslim Diaspora and Radicalism in the West*. London: Tauris Academic 2007.

Alpay, Sahin. «Is EU Accession the Main Goal of Turkish Foreign Policy?» *Sunday's Zaman*, November 15, 2010.

Ali, Ayaan Hirsi. *Nomad*. New York: Free Press, 2010.

Ali, Tariq. *The Clash of Fundamentalisms*. New York: Verso, 2002.

Ali, Wajahat, Eli Clifton, Matthew Duss, Lee Fang , Scott Keyes, and Faiz Shakir, *Fear, Inc.* Washington DC: Center for

American Progress, 2011. Alston, Philip. «Report of the Special Rapporteur on Extrajudicial, Summary or Arbitrary Executions.» UN General Assembly, Human Rights Council, 2010.

Altman, Alex. «TIME Poll: Majority Oppose Mosque, Many Distrust Muslims.» *Time*, 2010.

Amis, Martin. *The Second Plane*. New York: Knopf, 2008.

Armstrong, Karen. *Holy War*. New York: Doubleday, 1992.

Armstrong, Karen. «We Cannot Afford to Maintain These Ancient Prejudices against Islam.» *Guardian*, September 17, 2006.

Aslan, Reza. *No God but God*. New York: Random House, 2005.

Bali, Asli. «Unpacking the Turkey's 'Court-Packing' Referendum.» *Middle East Report*, November 5, 2010.

Bakalian, Anny P., and Mehdi Bozorgmehr. *Backlash 911/: Middle Eastern and Muslim Americans Respond*. Berkeley: University of California, 2009.

Baraz, Daniel. *Medieval Cruelty*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2003. Bard, Mitchell. *The Arab Lobby*. New York: Harper, 2010.

Bawer, Bruce. «Inside the Mind of the Oslo Murderer.» *Wall Street Journal*, June 25, 2011.

Bawer, Bruce. *While Europe Slept*. New York: Broadway Books, 2006. Beinart, Peter. *The Good Fight*. New York: Harper Collins, 2006.

Beinart, Peter. *The Icarus Syndrome*. New York: Harper Collins, 2010. Belden, David. «Backward Christian Soldiers.» *Humanist, January/* February, 2008

Berman, Paul, *Flight of the Intellectuals*. Melville House, 2010.

Berman, Paul. *Terror and Liberalism*. New York: Norton, 2003.

Bildt, Carl et al. «Europe, Look Outward Again.» *New York Times*, December 10, 2010.

Blankley, Tony. *The West's Last Chance*. Washington, DC: Regnery, 2005. Blanks, David and Michael Frassetto, eds. *Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe*. New York: St. Martin's Press, 1999. Blumenthal, Max. «The Great Fear.» *TomDispatch*, December 19, 2010. Bohn, Michael. *The Achille Lauro Hijacking. Dulles*, VA: Brassey's, 2004. Bonney, Richard. *False Prophets: The 'Clash of Civilizations' and the Global War on Terror*. Oxford, Peter Lang, 2008.

Brayton, Ed. «Controversial Experts Authored 'Shariah' Report Hailed by Bachmann.» *Minnesota Independent*, 2010.

Breivik, Anders Behring. «2083: A European Declaration of Independence.» A. Breivik, 2011. Brock, David. *Blinded by the Right*. New York: Crown, 2002. Brown, Janelle. «Anti-Arab Passions Sweep the US.» *Salon, September* 13, 2001.

Bruce, Benjamin. «Switzerland's Minaret Ban.» *Euro-Islam.info*, 2009. Bruckner, Pascal, *The Tyranny of Guilt*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2010.

Bulliet, Richard. *The Case for Islamo-Christian Civilization*. New York: Columbia University Press, 2004.

Bunzl, Matti, *Anti-Semitism and Islamophobia*. Chicago: Prickly Paradigm Press, 2007.

Buruma, Ian. *Taming the Gods*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2010.

Cainkar, Louise. *Homeland Insecurity: The Arab American and Muslim American Experience after 9 /11*. New York: Russell Sage Foundation, 2009. CAIR's Anti-Terrorism Campaigns, http://www.cair.com/ AmericanMuslims/AntiTerrorism.aspx.

Caldwell, Christopher, *Reflections on the Revolution in Europe*. New York: Doubleday, 2009.

Caplan, Richard and John Feffer, *Europe's New Nationalism*. New York: Oxford University Press, 1996.

Cesari, Jocelyne. *When Islam and Democracy Meet: Muslims in Europe and in the United States*. New York: Palgrave Macmillan, 2004. Print.

Cline, Edward. «The Fascists in our Midst.» Center for the Advancement of Capitalism, August 15, 2006.

Cockburn, Alexander. «The Tenth Crusade.» *Counterpunch, September* 7, 2002.

Cohen, Arthur. *The Myth of Judeo-Christian Tradition*. New York: Schocken Books, 1971.

Cole, David. «Are We Safer?» *New York Review of Books*, March 9, 2006. Cole, Juan. *Engaging the Muslim World*. New York: Palgrave, 2009. Colombani, Jean-Marie. «We Are All Americans.» *Le Monde*, September 12, 2001.

«Combating Extremists.» *OIC Journal*, September–December 2009. Conetta, Carl. *Strange Victory*. Boston: Project on American Defense Alternatives, 2002.

Conover, Ted. «The Pathetic Newburgh Four.» *Slate*, November 23, 2010. Conte, Michaelangelo. «State Court Throws out Religion as Defense.» *Jersey Journal*, August 2, 2010.

Cook, Blanche Wiesen. *The Declassified Eisenhower*. New York: Doubleday, 1981.

Coulter, Ann «This Is War» *National Review*, September 13, 2001

Council on American Islamic Relations. «Same Hate, Different Target.» 2010.

Crooke, Alistair. *Resistance*. London: Pluto, 2009.

Curry, Jerry. «Islam is a Violent Religion.» *WebToday*, September 11, 2010. Curtis, Edward. «Five Myths about Mosques in America.» *Washington Post*, August 29, 2010.

Curtis, Edward. *Muslims in America*. New York: Oxford University Press, 2009.

Daniel, Norman. *Islam and the West*. Oxford: OneWorldPublications, 1993.

Darwish, Nonie. *Now They Call Me Infidel.* New York: Penguin, 2006.

De Young, Karen and Jaffe, Greg. «US Secret War Expands Globally as Special Operations Forces Take Larger Role.» *Washington Post*, June 4, 2010.

Deliso, Christopher. *The Coming Balkan Caliphate.* Westport, CT: Praeger Security International, 2007.

Djerejian, Edward. *Danger and Opportunity.* New York: Simon and Schuster, 2008.

«Dossier of Civilian Casualties in Iraq 2003–2005.» Iraq Body Count, 2005. Dreyfuss, Robert. *Devil's Game.* New York: Metropolitan, 2005.

Dreyfuss, Robert. «US Slams Turkey Over Iran.» *Nation*, May 28, 2010. D'Souza, Dinesh. *The Enemy at Home: The Cultural Left and Its Responsibility for 9 / 11.* New York: Doubleday, 2007.

Elliot, Justin. «How the Ground Zero Mosque Fear Mongering Began.» *Salon*, August 16, 2010.

Elliott, Justin. «Tea Party Nation Founder: I Have a Real Problem with Islam.» *Slate*, October 27, 2010.

Emerson, Steven. *American Jihad.* New York: Free Press, 2002.

Erlich, Reese. «Conversations with Terrorists.» PoliPoint Press, 2010. Esposito, John. *The Future of Islam.* New York: Oxford University Press, 2010.

Print. Esposito, John, and Ibrahim Kalin, eds. *Islamophobia.* New York: Oxford University Press, 2011.

Esposito, John. *The Islamic Threat.* New York: Oxford University Press, 1999.

Esposito, John, and Dalia Mogahed. *Who Speaks for Islam*? New York: Gallup Press, 2007.

«Europe's Far-Right Vows to Push Referendum on Turkey's EU Accession.» *Deutsche Welle*, October 23, 2010.

Fadl, Khaled Abou El et al. *The Place of Tolerance in Islam*. Boston: Beacon, 2002.

Faiola, Anthony. «Anti-Muslim Feelings Propel Right Wing.» *Washington* Post, October 26, 2010.

Fallaci, Oriana. *The Rage and the Pride*. New York: Rizzoli, 2002. Faludi, Susan. *The Terror Dream*. New York: MacMillan, 2007.

Faruqi, Ismail Raji. *Trialogue of the Abrahamic Faiths*. Alexandria, VA: Al

Sadawi Publications, 1991.

Feffer, John. *Beyond Detente*. New York: Noon Day Press, 1990.

Fekete, Liz. A *Suitable Enemy: Racism, Migration and Islamophobia in Europe*. London: Pluto, 2009.

Feldman, Noah. *After Jihad*. New York: Farrar, Straus, Giroux, 1993. Feldman, Noah. *The Fall and Rise of the Islamic State*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2008.

Friedman, Thomas. «Letter From Istanbul.» *New York Times*, June 15, 2010.

Friedman, Thomas. *The World is Flat*. New York: Farrar, Straus, Giroux, 2007.

Frum, David. *The Right Man*. New York: Random House, 2005.

Fukuyama, Francis. *The End of History and the Last Man*. New York: Avon, 1992.

Fuller, Graham. *A World without Islam*. New York: Little, Brown, 2010. «Fundamentalist Menace.» *Times*, 1990.

Gabriel, Theodore, and Ron Geaves. *Islam and the West Post 9/11*. Aldershot: Ashgate, 2006.

Gaddis, John Lewis. *Strategies of Containment*. New York: Oxford University Press, 1982.

Gaffney, Frank. «America's First Muslim President?» *Washington Times*, June 9, 2009.

Gantz, Jeremy. «Terrorist by Association.» *In These Times*, December 13, 2010.

Geddes, Andrew. *The Politics of Migration and Immigration in Europe*. London: Sage Publications, 2005.

Gerecht, Reuel Marc. *The Islamic Paradox*. Washington, DC: American Enterprise Institute Press, 2004.

Gerges, Fawaz. *The Rise and Fall of Al-Qaeda*. New York: Oxford University Press, 2011.

Ghosh, Bobby. «Is America Islamaphobic?» *Time*, August 30, 2010.

Gibbon, Edward. *The Decline and Fall of the Roman Empire, Volume 6*. London: J. F. Dove, 1821.

Gladwell, Malcolm. *Blink*. New York: Little, Brown, 2005.

Goldman Sachs. «Turkish Economy and Investment Environment.» *taik*. org, 2008.

Goody, Jack. *Islam in Europe*. London: Polity, 2004.

Gottschalk, Peter, and Gabriel Greenberg. *Islamophobia: Making Muslims the Enemy*. Lanham: Rowman & Littlefield, 2008.

Griswold, Eliza. The Tenth Parallel. New York: Farrar, Straus, Giroux, 2010. Gurley, George. «The Rage of Oriana Fallaci.» *New York Observer*, January 26, 2003.

Gutsch, Jochen-Martin. «The German Geert Wilders.» *Der Spiegel Online*, January 6, 2011.

Hagopian, Elaine Catherine. *Civil Rights in Peril: The Targeting of Arabs and Muslims*. Chicago: Haymarket, 2004.

Hamdon, Evelyn Leslie. *Islamophobia and the Question of Muslim Identity: the Politics of Difference and Solidarity*. Black Point, NS: Fernwood, 2010. Hamid, Mohsin. *The Reluctant Fundamentalist*. Orlando: Houghton Mifflin Harcourt, 2008.

Herf, Jeffrey. *Nazi Propaganda for the Arab World.* New Haven, CT: Yale University Press, 2009.

Hervik, Peter. *The Annoying Difference.* New York: Berghahn Books, 2011. Hobsbawm, E. J. *Nations and Nationalism since 1780.* Cambridge: Cambridge University Press, 1990. Hockenos, Paul. «Europe's Rising Islamophobia.» *Nation.* May 9, 2011.

Housley, Norman. *Contesting the Crusades.* Malden, MA: Blackwell, 2006. Howard, Philip. *The Digital Origins of Dictatorships and Democracy.* New York: Oxford University Press, 2010.

Human Rights Watch. *We Are Not the Enemy.* Human Rights Watch, 2002. Huntington, Samuel. *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order.* New York: Simon and Schuster, 1996.

Huntington, Samuel. *Who Are We?* New York: Simon and Schuster, 2004. Ignatieff, Michael. *Empire Lite.* New York: Vintage, 2003.

«Islamic Calvinists.» *European Stability Initiative.* September 19, 2005. Jalal, Ayesha. *Partisans of Allah.* Cambridge: Harvard University Press, 2008. Jamal, Amaney and Nadine Naber. *Race and Arab-Americans after 9 / 11.* Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2008.

The Jerusalem Bible. New York: Doubleday, 1968. Jewett, Thomas. «Terrorism in Early America.» *Early America Review,* Winter/ Spring 2002.

Kagan, Robert. *Dangerous Nation.* New York: Knopf, 2006.

Kaplan, Fred. «The Professional.» *New York Times Magazine,* February 10, 2008.

«Katie Couric Speaks Against Anti-Muslim Bigotry, Suggests Muslim 'Cosby Show.'» *Huffington Post, January* 1, 2011.

Kay, Jeanne. «Europe's Islamaphobia.» *Foreign Policy in Focus*, April 9, 2010.

Kennedy, Paul. *The Rise and Fall of Great Powers*. New York: Random House, 1987.

Kinzer, Stephen. *Crescent and Star*. New York: Farrar, Straus and Giroux, 2008.

Kinzer, Stephen. *Reset: Iran, Turkey, and America's Future*. New York: Times Books, 2010.

Kinzer, Stephen. «Triumphant Turkey?» *New York Review of Books*, 2011. Kirisci, Kemal. Turkey's Foreign Policy in Turbulent Times, Institute for Security Studies, 2006.

Kirkpatrick, Jeanne. *Dictatorships and Double Standards*. New York: Simon and Schuster, 1982.

Kitzen, Michael. *Tripoli and the United States at War*. Jefferson, NC: McFarland, 1993.

Koppelman, Alex. «Why the Stories about Obama's Birth Certificate Will Never Die.» *Salon*, December 5, 2008.

Krauthammer, Charles. «The Unipolar Moment.» *Foreign Affairs*, 1991. Kristof, Nicholas. «Message to Muslims: I'm Sorry.» *New York* Times, September 18, 2010.

Kristol, William and Kagan, Robert. «Toward a Neo-Reaganite Foreign Policy.» *Foreign Affairs*, 1996.

Krugman, Paul. «Eurotrashed.» *New York Times Magazine*, January 16, 2011.

Kull, Steven. «Muslims and America: Internalizing the Clash of Civilizations.» *World Public Opinion*, June 7, 2010.

Kundera, Milan. «The Tragedy of Central Europe.» *New York Review of Books*, April 26, 1984.

Kundnani, Arun. «The FBI's 'Good' Muslims.» *Nation*. September 19, 2011. Kundnani, Arun. «Islamism and the Roots of Liberal Rage.» *Race and Class*, October 2008.

Kurzman, Charles, David Schanzer, and Ebrahim Moosa. «Muslim American Terrorism Since 911/: Why So Rare?» *Muslim World*, 2011. Lambert, Frank. *The Barbary Wars*. New York: Hill and Wang, 2005.

Leiken, Robert, and Brooke, Steven. «The Moderate Muslim Brotherhood.» *Foreign Affairs*, March/April 2007.

Levesque-Alam, Junaid M. «Robert Wright and the Koran.» *Foreign Policy in Focus*, September 15, 2010.

Levi-Strauss, Claude. *Tristes Tropiques*. New York: Washington Square Press, 1977.

Levin, Paul. *Turkey and the European Union*. New York: Palgrave MacMillan, 2011.

Lewis, David Levering. *God's Crucible*. New York: Norton, 2008

Lewis, Bernard. *The Assassins*. New York: Basic, 2002.

Lewis, Bernard. «Communism and Islam.» In Walter Laqueur, *The Middle East in Transition*, Freeport, NY: Books for Libraries Press, 1971.

Lewis, Bernard. *Faith and Power*. New York: Oxford University Press, 2010. Lewis, Bernard. «The Roots of Muslim Rage.» *Atlantic*, September 1990. «Liddy Guest Walid Shoebat Falsely Claimed that Obama Is 'Definitely a Muslim.'» *Media Matters*, September 11, 2008.

«Limbaugh Calls Islamic Center a 'Victory Monument at Ground Zero.'» *Media Matters*, August 17, 2010.

Littwak, Robert. *Rogue States and US Foreign Policy*. Washington, DC: Woodrow Wilson Center Press, 2000

London, Joshua. «America's Earliest Terrorists.» *National Review*, December 16, 2005.

Maalouf, Amin. *The Crusades through Arab Eyes*. New York: Schocken Books, 1985.

Madhani, Aamer. «Is Obama's Outreach to Muslims Working?» *National Journal*, 2010.

Majid, Anouar. *We Are All Moors: Ending Centuries of Crusades Against Muslims and Other Minorities*. Minneapolis: University of Minnesota Press, 2009.

Malik, Iftikhar Haider. *Crescent between Cross and Star: Muslims and the West after 9/ 11*. Karachi: Oxford University Press, 2006.

Mamdani, Mahmood. *Good Muslim, Bad Muslim: America, the Cold War, and the Roots of Terror*. New York: Three Leaves, 2004.

Mandaville, Peter. «Muslim Youth in Europe.» In *Islam, Europe's Second Religion*, edited by Shireen Hunter. Westport, CT: Praeger, 2002.

Manji, Irshad. *The Trouble with Islam*. New York: St. Martin's, 2003. Mansfield, Peter. *The Arabs*. London: Penguin, 1985.

Martin, Richard, and Abbas Barzegar. *Islamism*. Stanford: Stanford University Press, 2010.

Mastnak, Tomaz. *Crusading Peace*. Berkeley: University of California Press, 2002.

«Migration and migrant population statistics.» *Eurostat*, European Commission, October 2010.

Mishra, Pankaj. «Islamismism.» *New Yorker*, June 7, 2010.

Munro, Dana C. *Urban and the Crusaders: Translations and Reprints from the Original Sources of European History*. Philadelphia: University of Pennsylvania, 1895.

Nasr, Seyyed Vali Reza. *Forces of Fortune: The Rise of the New Muslim Middle Class and What It Will Mean for Our World*. New York: Free, 2009. *Netherlands Scientific Council for Government Policy, Dynamism in Islamic Activism*. Amsterdam: Amsterdam University Press, 2006.

Nimer, Mohamed. *Islamophobia and Anti-Americanism: Causes and Remedies*. Beltsville, MD.: Amana Publications, 2007.

Ohmae, Kenichi and Guehenno, Jean-Marie. *The End of the Nation State*. New York: Free Press, 1996.

Pal, Amitabh. «*Islam*» *Means Peace*. New York: Praeger, 2011.

Pamuk, Orhan. «The Souring of Turkey's European Dream.» *Guardian*, December 23, 2010.

Pape, Robert. «What Triggers the Suicide Bomber?» *Los Angeles Times*, October 22, 2010.

Patten, Chris. «No Way to Treat a Friend.» *Guardian*, October 17, 2007. Pew Forum on Religion and Public Life. «Mapping the Global Muslim Population.» Pew Global, 2009.

Pew Global Attitudes Project. «Obama More Popular Abroad Than At Home, Global Image of US Continues to Benefit.» Pew Global, 2010.

Pfaff, William. «Manufacturing Insecurity.» *Foreign Affairs*, November/ December 2010.

Pipes, Daniel. «A Madrassah Grows in Brooklyn.» *New York Sun*, April 24, 2007.

Pipes, Daniel. *Militant Islam Reaches America*. New York: Norton, 2002. Pipes, Daniel. «The Muslims are Coming, the Muslims are Coming.» *National Interest*, 1990.

Podhoretz, Norman. *World War IV*. New York: Doubleday, 2007.

Podliska, Bradley. *Acting Alone*. Lanham, MD: Lexington Books, 2010.

Polo, Marco et al. *The Travels of Marco Polo*. New York: Alfred A. Knopf, 2008.

Posner, Sarah. «Welcome to the Shari'ah Conspiracy Theory Industry.» *Religious Dispatches*. March 18, 2011.

Powell, Enoch. «Rivers of Blood Speech.» *Independent*, 2007. Priest, Dana, and Arkin, William. «Monitoring America.» *Washington Post*, December 20, 2010.

The Qur'an. New York: Penguin, 1981.

Qureshi, Emran, and Michael Anthony Sells. *The New Crusades: Constructing the Muslim Enemy*. New York: Columbia University Press, 2003.

Radu, Michael. *Europe's Ghost*. New York: Encounter Books, 2009. Ramadan, Tariq. *What I Believe*. New York: Oxford University Press, 2010. Rauf, Feisal Abudl. *What's Right with Islam*. San Francisco: Harper Collins, 2004.

«Richard Dawkins on Islam.» *faithfreedom*.org, 2010.

Runciman, Steven. *The First Crusade*. New York: Cambridge University Press, 2005.

Runciman, Steven. *A History of the Crusades*: Volume 3. Cambridge: Cambridge University Press, 1951.

Runnymede Trust. *Islamophobia: A Challenge for Us All*. London: Runnymede Trust, 1997.

Ruthven, Malise, «The Birth of Islam: A Different View.» *New York Review of Books*. April 7, 2011.

Ruthven, Malise. «The Big Muslim Problem!» *New York Review of Books*, December 17, 2009.

Ruthven, Malise. «Faith and Reason: Construing Islam as a Language.» *Independent*, 1990.

Ruthven, Malise «Righteous and Wrong,» *New York Review of Books*, August 19, 2010.

Sacirbey, Omar. «Skeptics Challenge Life Stories Offered by High-Profile Muslim Converts to Christianity.» *Washington Post*, June 26, 2010.

Said, Edward. *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World*. New York: Vintage, 1997.

Said, Edward. *Orientalism*. New York: Vintage, 1979.

Salisbury, Stephan. ‹How Muslim-Bashing Loses Elections.› *TomDispatch*, 2011.

Salisbury, Stephan. *Mohamed's Ghosts*. New York: Nation Books, 2010. Salisbury, Stephan. ‹Plotting Terrorism.› *TomDispatch*, July 6, 2010. Schanzer, David, Charles Kurzman and Ebrahim Moosa. *Anti-Terror Lessons of Muslim-Americans*, 2010

Schlesinger, Arthur. *The Disuniting of America*. New York: Norton, 1998. Scoliono, Elaine. «Seeing Green.» *New York Times Magazine,* Jamuary 21, 1996.

Semmerling, Tim Jon. *‹Evil› Arabs in American Popular Film: Orientalist Fear*. Austin: University of Texas, 2006.

Shaheen, Jack G. *Reel Bad Arabs: How Hollywood Vilifies a People. New York:* Olive Branch, 2001.

Shariah: The Threat to America. Center for Security Policy, 2010.

Shay, Shaul. *Islamic Terror and the Balkans*, New Brunswick, NJ: Transaction Books, 2007.

Shienbaum, Kim Ezra, and Jamal Hasan. *Beyond Jihad*. Bethesda, MD: Academica Press, 2006.

The Song of Roland. New York: Penguin, 1983.

Spencer, Robert. *The Politically Incorrect Guide to Islam*. Washington, DC: Regnery, 2005.

Spencer, Robert. *The Truth about Muhammad*. Washington, DC: Regnery, 2006.

Stephens, Bret. ‹What is Happening to Turkey?› *Wall Street Journal*, May 1, 2010.

Sultan, Wafa. *A God Who Hates*. New York: St. Martin's, 2003.

Taspinar, Omer. ‹Turkish Gaullism?› *Today's Zaman*, April 12, 2010. Taylor, Charles. ‹Oriana Fallaci Declares War on Radical Islam.› *Salon*, November 16, 2002.

Tehranian, John. *Whitewashed: America's Invisible Middle Eastern Minority*. New York: New York University Press, 2009.

Economist. «Islam and Democracy: Uneasy Companions,» 2011, economist. com/. Tibi, Bassam. «The Totalitarianism of Jihadist Islam and its Challenge to Europe and Islam.» *Totalitarian Movements and Political Religions*, 8, no.1 (2007).

Tolan, John. *Saracens*. New York: Columbia University Press, 2002

Toth, Anthony. «On Arabs and Islam.» *Washington Report on Middle Eastern Affairs*, January 1987.

نبذة عن المؤلف

جون فيفر هو المدير المساعد لقسم السياسة الخارجية تحت المجهر في معهد الدراسات السياسية، وسوف يصبح زميلا في مؤسسة المجتمع المفتوح مطلع عام ٢٠١٢.

أَلَّفَ عددًا من الكتب منها: **كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية: سياسة الولايات المتحدة وقت الأزمات** (سبع قصص، ٢٠٠٣)، ونشرت له مقالات كثيرة في **النيويورك تايمز والبوسطن غلوب وسالون وبروسبكت والنيشن وتوم ديسباتش والواشنطن بوست** وفي مطبوعات أخرى. كان كاتبًا زميلاً في مكتبة الأحكام في واشنطن العاصمة وزميلاً لمؤسسة بان تك في قسم الدراسات الكورية في جامعة ستانفورد. وهو محرر مشارك سابق في جريدة السياسة العالمية، وسبق له أن عمل ممثلاً للشؤون الدولية في شرق أوروبا وشرق آسيا للجنة خدمة الأصدقاء الأميركيين.

أجرت معه محطات تلفزيونية وإذاعية متعددة كثيرًا من المقابلات. ومن هذه المحطات الـ سي إن إن والـ إم إ س إن بي سي والجزيرة والديمقراطية الآن وغيرها. حاز المؤلف زمالة مؤسسة هربرت سكوفيل الابن للسلام، وسبق له أن عمل كاتبًا في مركز الجبل الأزرق وفي مؤسسة ورليتزر.

مطبعــة كــركــي
قريطم - بيروت - تلفاكس: 862500 1 961+
E-mail: print@karaky.com